رينهارت دوزي

ملوك الطوائف
ونظرات في تاريخ الإسلام

ترجمة

كامل كيلاني

ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام

ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام

تأليف

رينهارت دوزي

ترجمة

كامل كيلاني

كلمات

ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام

رينهارت دوزي

Histoire des Musulmans d’Espagne

Reinhart Dozy

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ٢٠١١/١٦١٠٧
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

دوزي، رينهارت.
ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام / تأليف رينهارت دوزي؛ ترجمة كيلاني . - القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
تدمك: ٤ ٠٥ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الأندلس - تاريخ - ملوك الطوائف
٢- التاريخ الإسلامي
أ- كيلاني، كامل (مترجم)
٩٥٣,٠٧١٢

الغلاف: تصميم سيلڤيا فوزي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2012 Kalimat Arabia.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

تصدير ٧

الجزء الأول: ملوك الطوائف ٩

الفصل الأول ١١

الفصل الثاني ٢٣

الفصل الثالث ٣٥

الفصل الرابع ٤١

الفصل الخامس ٤٩

الفصل السادس ٥٧

الفصل السابع ٦٧

الفصل الثامن ٨١

الفصل التاسع ٨٩

الفصل العاشر ٩٩

الفصل الحادي عشر ١١١

الفصل الثاني عشر ١٢٣

ملوك الطوائف وعواصمهم ١٣٥

الهوامش ١٤٣

الجزء الثاني: نظرات في تاريخ الإسلام ٢٢٥

ديانة العرب في الجاهلية ٢٢٧

بعد وفاة النبي	٢٣٩
قواعد الإسلام	٢٥٥
الهوامش	٢٦٧

تصدير

بقلم كامل كيلاني

هذه فصول مترجمة من كتاب العلامة المستشرق «دوزي» وقد آثرنا نقلها إلى العربية لتبيان وجهة تفكير عالم أوروبي كبير، وهي — وإن خالفت آراءنا أحيانًا في بعض مناحيها — جديرة أن تُقرأ بعناية فائقة، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقًا بالطرح والإهمال.

وإذا كان العلامة فخر الدين الرازي يقول في مقدمته لشرح «الإشارات» لابن سينا: «إن التقرير غير الرد، والتفسير غير النقد.»

فما أجدرنا أن نقول بدورنا: «والترجمة أيضًا غير النقد.»

لهذا اقتصرت على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق إلا ما يقتضيه المقام من توضيح لما أعتقد أن أكثر القراء في حاجة إليه.

على أنني لم أكد أنشر الفصل الأول من هذا الكتاب في «ديوان ابن زيدون» حتى نال من استحسان القراء أكثر مما كنت أقدره له.

وقد وعدت بإظهار هذا القسم كاملًا بعد أن أُنجِز شرح «ديوان ابن زيدون» ثم منعتني عوادي الزمن ومشاغله عن إنجاز هذا الوعد، ثم تغلبت العزيمة على التردد والتسويف. ورأيت أن أفي ببعض ما وعدت به القراء، فأنجزت ترجمة هذا الكتاب وكلي أمل في أن ألحقه بالكتاب الثاني الذي وعدت به القراء وهو: «ابن زيدون: أدبه وعصره».

فإذا انتهيت منه شرعت في إظهار «ديوان ابن حمديس». وأنا أستمد من الله العون على إنجاز هذا الوعد، وأستلهمه الرشد والسَّداد.

الجزء الأول

ملوك الطوائف

الفصل الأول

(١) بعد إلغاء الخلافة

منذ سنين عدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الإسلامية في بلاد الأندلس وأصبح أمر كل منها بيدها، ولم يكن تفكك السلطة مما يرغب فيه أهل تلك الولايات عامة أو يتفق ومصالحهم وآمالهم.

وقد جزعوا لهذا التفكك وذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه أسفًا على الماضي وجزعًا من المستقبل.[١]

ولم يكن ليستفيد من هذا الانحلال والتفكك في تلك البلاد إلا ملوك الإفرنج وحدهم، وقد كان من نتائجه أن اقتسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم، وحكم الصقالبة الشرق، وأصبح ما بقي بعد ذلك من بلاد الأندلس نهبًا مقسمًا بين ذوي المطامع من المغيرين المتوثبين على تلك البلاد، وبين آخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات عبد الرحمن الثالث[٢] والمنصور التي كانت مصوبة إلى الأرستقراطية.

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين قرطبة وإشبيلية حكومتان شوريتان.

(٢) قرطبة

أما قرطبة فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعمدوا إلى ابن جهور[٣] فأسندوا إليه السلطة التنفيذية، وقد كان مشهورًا عندهم جميعًا بجدارته وكفايته لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم، ولكنهم لم يكادوا يعرضون عليه قرارهم حتى رفض — بادئ ذي

بدء — ذلك المركز السامي، ثم قبله بعد أن ألح عليه في ذلك جمهرة منتخبيه، ولكنه اشترط عليهم أن يكون إلى جانبه في الحكم زميلان له في مجلس الشورى، هما محمود بن عباس وعبد العزيز بن حسن وكانا من أعضاء أسرته.

فأجابه أصحابه إلى ما طلب، ولكن على شرط ألا يكون لهذين الزميلين إلا صوت استشاري فقط.

وقد حكم السفير الأول ابن جهور تلك الحكومة الشورية الجديدة متوخيًا في أحكامه العدل والسداد، وكان مخلصًا رشيدًا، وإليه يرجع الفضل في استتباب الأمن ورفع المظالم، فلم يكد يتولى الحكم حتى أمن أهل قرطبة وأصبحوا لا يشكون شيئًا من الإِعنات والمظالم التي كانت تترى عليهم من قساة البربر الجائرين.

وكان أول ما عُني به أن صرفهم عن الخدمة واحتفظ ببني يَفْرن وحدهم لأنه رأى أن من المستحيل عليه أن يعتمد على سواهم لما عرفه من ولائهم وطاعتهم له.

وقد استبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسًا وطنيًّا، وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري، فإذا طلب إليه تنفيذ أمر بعينه قال لهم: «ليس من شأني أن أقرر أمرًا هو من اختصاص مجلس الشورى، وما أنا إلا منفذ لأمره وقراراته.»

وكان كلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي موجه إلى شخصه أبى أن يتسلمه، وأمر بتوجيهه إلى مستشاريه.

ولم يكن ليصدر قرارًا قبل عرضه على مجلس الشورى. أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم، فظل باقيًا في مسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائمًا، وآثر الإقامة فيه على أن ينتقل إلى قصر الخلافة.[٤]

وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب وقد رفض — مع هذا — أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقامًا وأكثرهم احترامًا في المدينة.

وكان — على حبه المال — يؤثر المصلحة العامة التي قضت عليه ألا يرتكب عملًا غير شريف. والحق أن ابن جهور كان مقتصدًا بل حريصًا حرصًا يكاد يصل به إلى درجة البخل، فقد أثرى حتى أصبح أغنى رجل في قرطبة ولكنه مع ذلك لم يأل جهدًا من جهوده المحمودة في توفير اليسر والرخاء على الناس كافة.

وكان يبذل كل ما في وسعه في تحسين العلاقات الودية وتوثيقها بينه وبين الممالك المجاورة، وقد كُتِبَ له النجاح في ذلك وحالفه التوفيق فلم يمض وقت طويل حتى استتب

الأمن وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية، وأمنت السبل، فأمَّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة.

(٣) إشبيلية

على أنه مع تلك الأعمال التي قام بها، فإن قرطبة عاصمة الخلافة القديمة لم تسترد مكانتها السياسية، ومنذ ذلك الحين أخذت إشبيلية — التي سنعنى بتاريخها عناية خاصة — تحرز الشأن الأول في المركز السياسي.

كانت إشبيلية — منذ أمد بعيد لا تزال — مرتبطة الحظ بقرطبة، متأثرة بما يجري من الحوادث فيها، متأسية بالعاصمة، خاضعة لملوك الدولة الأموية — على التعاقب — ثم لدولة بني حمود، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيِّئ في إشبيلية، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطردوه، فعول هذا الأمير على الالتجاء إلى إشبيلية حيث يقيم بها ولداه، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيري من قبيلة بني إيفورين.

وأرسل إلى الإشبيليين يأمرهم بإخلاء مئة مسكن لجنوده القادمين معه، وقد ترك هذا الأمر أثرًا سيئًا في نفوس أهل إشبيلية. هذا إلى ما عُرِفَ عن جنود قاسم الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من شرار اللصوص.

وقد أظهرت قرطبة للإشبيليين أنه من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه. فعولوا على أن يحذوا حذو قرطبة، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانيهم. وبعد جهد نجح قاضي المدينة أبو القاسم بن عباد[٥] في استمالة قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكًا على إشبيلية، فأعلن حينئذ مناد ابن زيري استعداده لمساعدته، وسارع القاضي فعقد بينه وبين قائد بربر قرمونة محالفة تقلدوا السلاح — على أثرها — ضد ولدي قاسم وحاصروا قصره.

ووصل قاسم[٦] إلى إشبيلية التي كانت مغلقة، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابة، ولكنه أخفق في هذه المحاولة، ولما أوجس في نفسه خيفة على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة، قطع على نفسه عهدًا أن يجلي — هو ومن معه من الجند — عن أراضي إشبيلية إذا ما أسلموا إليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما، فضمن

له الإشبيليون تنفيذ هذا الشرط، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه، وثَم سنحت للقاضي أول فرصة ليرضي حامية البربر.

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكمًا يولونه عليهم، إلا أن الخواطر حينئذ لم تكن هادئة، والنفوس لم تكن مطمئنة، خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة، أو أن يعيد بنو حمود الكرة عليهم، وحينئذ لا يتوانون لحظة في معاقبة المجرمين الثائرين، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة في أن يأخذ على عاتقه عبء المسئولية عما وقع.

(٤) بنو عباد

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسئولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوا ثروته واستشعروا سرورًا خفيًّا في أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة.

فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة، وكان — مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال — حكيمًا حازمًا، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب. ولم يكن القاضي متصل النسب بالسلالات العريقة، إلا أنه امتاز بحيازته أكبر ثروة، فقد كان يملك ثلث أرض إشبيلية وكانت له فوق ذلك منزلة سامية من الاعتبار نظرًا لمواهبه العلمية، وكان يعوزه أن يضمن إلى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة.

وقد تم له ذلك — فيما بعد — تدريجًا، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته، وليس لهذا العدد وجود، ولم يشك في أن الأرستقراطية العظيمة المجيدة في إشبيلية لا بد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب، يسمو إلى تسنم ذروة الخلافة، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم.

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك لخم الذين كانوا يحكمون الحيرة قديمًا قبل ظهور محمد ﷺ وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للإشادة بهذا النسب العريق المزعوم، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم، لأن بني عباد والمتزلفين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك، وكل ما يربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب إلى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب إليها ملوك الحيرة. ولكن

فرع أسرة آل عباد الذي تسلسل منه آباؤهم لم يقطن — على ما يظهر — الحيرة بتاتًا، بل كانوا يقيمون أخيرًا قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في ناحية حمص.

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ما في استطاعتهم كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فإنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود حمص، وقد رحل إلى إسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود حمص أراض على مقربة من إشبيلية، وأقام على ضفاف الوادي الكبير، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت ببطء من ظلمة الماضي أناسًا صالحين عاملين مقتصدين، وإسماعيل والد القاضي هو عنوان مجدها، وهو الذي خط بيمينه — في الصحيفة الذهبية لنبلاء إشبيلية — اسم عباد.[٧]

ولا غرو فقد كان إسماعيل من حملة الأقلام والسيوف، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان، فقد تولى قيادة فرقة في حرس هشام الثاني، ثم صار — فيما بعد — إمامًا لمجلس قرطبة الكبير، ثم قاضيًا لإشبيلية، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة، وإسداء النصح للكافة، وكانت شهرته في النزاهة تربو على شهرته في غير ذلك من الأمور، فهو — على الرغم من انتشار الفساد والرشوة — كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير، وكان كريمًا إلى أبعد غايات الكرم، وقد لقي القرطبيون منه كرم الضيافة، وحسن العشرة، فجعلته كل هذه المزايا والصفات جديرًا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد في الغرب.

وقبيل العهد الذي نحن بصدده توفي إلى رحمة الله في غضون سنة ١٠١٩م.

وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علمًا وأدبًا، وإن كان لا يدانيه خلقًا وفضلًا، فقد كان أنانِيًّا ذا أثرة وطمع وصلف وتكبر وإنكار للجميل، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع في أن يخلفه في منصب القضاء، ولكن القوم آثروا عليه غيره، فتقدم بالرجاء إلى قاسم بن حمود فنال — بفضل قاسم — منصب القضاء الذي كان يؤمله.

وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل.

(٥) قاضي إشبيلية

وفي مفتتح هذا العهد — الذي نحن بصدده — أشار نبلاء إشبيلية وأصحاب الرأي فيها على أبي القاسم قاضي إشبيلية أن يتبوأ عرش المملكة،[٨] ولما أدرك الغاية التي يرمون إليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الشرف الذي يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه في

الحكم أفرادًا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه في الاضطلاع بأعباء الحكم، بحجة أن هؤلاء الأشخاص الذين يشركهم معه في الرأي ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم، ولا يتخذ أي قرار بدون مشاورتهم، فقبل الإشبيليون ما اشترطه القاضي من أن يكون حكمه على قواعد الشورى، فلا يحكم بمفرده، وطلبوا إليه إنفاذ ما اعتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر، وأطلعهم كواكب في سماء المصر، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوي الشهير مؤدب هشام الثاني، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه إلى تكوين جيش للمملكة، ورفع أعطيات وأرزاق الجند، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر، ثم اشترى عددًا كبيرًا من المماليك ودربهم على القتال، وجرد منهم حملة على الشمال، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة إلى أمراء آخرين، وقد حاصر قصرين في شمال «فيزي» أُنشئا متقابلين على صخور يفصلهما سور، وأطلق عليهما اسم «الأخوين» وهما معروفان الآن باسمهما العربي وهو اسم «الأخوين» وقد حرفه القوم فهو يقولون «الأقوين»، وكان يقطنهما إسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي نتحدث عنه في حيازة ملك ليون ولا في حيازة أمير مسلم، ولذلك استولى القاضي عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما — وهم زهاء ثلاث مئة فارس — على الانضواء تحت لوائه، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمس مئة فارس، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفي للإغارة على الممالك المتاخمة له، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية ضد إشبيلية.

وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧: ففي هذه السنة جاء الخليفة الحمودي يحيى بن علي وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا إشبيلية، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلًا أخذ الإشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم، على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم، فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضمانًا لوفائهم وإخلاصهم — أن يرسل بعض أعيان ونبلاء إشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الإشبيليين، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل إلى يحيى بنجله عباد. وكان الخليفة يعلم ما للقاضي من الجاه والنفوذ فاكتفى بقبول ابنه رهينة لديه، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على

الإخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الإشبيليين عامة، وأصبح — منذ ذلك الحين — لا يخشى شيئًا لا من جانب الشعب، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلًا، وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم.

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره، ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهما عن خدمته ونفى «زبيدي» وعين رجلًا من خواص إشبيلية اسمه «حبيب» رئيسًا للوزارة، ولم يكن «حبيب» هذا من رجال المبادئ إلا أنه كان مع هذا ذكيًّا مخلصًا بكل معاني كلمة الإخلاص لمولاه، منصرفًا إلى مصلحته.

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة، وقد حلت أخيرًا بهذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشبت بين العرب والخائنين. إذ نهبت وخرب البربر جزءًا منها، وعاثوا فيها سلبًا، وأحرقوا ما صادفوه في طريقهم، وكان في نية القاضي أن يعيد تشييد ما خرب منها، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفطس أمير بطليوس عزم القاضي، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد «الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر» وتم استيلاء هذه الجيوش على باجة في الوقت الذي جاء فيه إسماعيل بن القاضي بجيش إشبيلية، وجيش حليف أبيه أمير قرمونة، فبدأ حصارها في الحال، وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين إيفرن والبحر، وعلى الرغم من المدد الذي جاء به ابن طيفور فإن محمدًا كان سيئ الحظ كثيرًا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرًا بين يدي أعدائه وأُرسِل إلى قرمونة.

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الأمير، فلم يكتفيا بالإغارة على بطليوس وحدها بل أغارا على قرطبة أيضًا، فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرًا من بربر ولاية سيدونا.

وبعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحًا أو سمِّه — إن شئت — هدنة مع بني الأفطس، وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضى القاضي في

(مارس ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونة نبأ إطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على إشبيلية ويبلغ القاضي شكره، ولكن محمدًا لفرط اشمئزازه من القاضي قال لأمير البربر: «إني أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به علي، فإذا كنت مدينًا لغيرك بإطلاق سراحي، وكان علي أن أشكر قاضي إشبيلية وفاءً لهذا الحق، فإني أفضِّل أن أبقى حيث أنا في سجني.»

فاحترم الأمير شعوره وأرسله إلى بطليوس مشيعًا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الإجلال والتكريم.

وبعد بضع سنين؛ أي في سنة ١٠٣٤، انتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة، وثأر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته، وذلك بأن أباح للقاضي أن تمر بأرضه جنوده بقيادة ابنه إسماعيل وهي ذاهبة في طريقها للإغارة على مملكة ليون، ولما كان إسماعيل وجنوده في مضيق لا يبعد كثيرًا عن حدود ليون باغته جيش بني الأفطس فقتل من جنود إشبيلية عددًا كبيرًا، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار، وأفلت إسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله، وفيما كان موليًا وجهه شطر مدينة لشبونة الواقعة على حدود مملكة أبيه — من الجهة الشمالية الغربية — تحمَّل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية.

ومنذ هذه الآونة صار القاضي الخصم الألد لأمير بطليوس، وليس لدينا معلومات تفصيلية عن المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير بطليوس وخصمه.

ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات خطر عظيم لإسبانيا المسلمة، ولم تترك فيها أثرًا يضارع ما تركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلي.

قلنا إن القاضي اعترف بسيادة الخليفة الحمودي يحيى بن علي ولكن هذا الاعتراف كان تعهدًا غير مجد، وقد بقي كذلك مدة طويلة، فقد قام القاضي بحكم إشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة، وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه، وقد تبدلت هذه الحال تدريجًا إذ وُفِّقَ يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبًا، فأصبح الآن بحق زعيم عامة الحزب الأفريقي بعد أن كانت هذه الزعامة اسمية فيما مضى، ولما كان معسكره العام في قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وإشبيلية في آن واحد، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدق إلى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها وقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البلاد البربر الذين اتخذوا الأملاك التي سبق لهم غزوها.

وهذه هي الوسيلة التي تجعل البلاد بمنجاة من التعرض لمثل ما حل بها من المصائب من قبل، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوي كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الأفريقي، وهو في الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه، ولم تكن العقبات التي يجب عليه أن يذللها لنيل تلك الغاية بخافية عليه.

فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم متى رأوه يحاول أن يبسط سلطانه عليهم، على أن شيئًا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب إلى نفسه.

على أن المصادفات ستخدمه، فهو سيتمكن إلى حد ما أن يصل إلى الغاية التي يرمي إليها، ويدرك المشروع الذي كان يعمل على تحقيقه. وسنرى — فيما بعد — على أي نحو يتم له ذلك.

(٦) هشام الثاني

أسلفنا أن الخليفة التعس هشام الثاني فر من القصر في عهد سليمان الثاني. وقلنا إن أكثر الظواهر تدلنا على أنه مات في آسيا مجهولًا لا يعرفه أحد.

ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق أنه مات لشدة تعلقه بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء، وكسته حلل الشرف والمجد، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الإشاعات التي كانت ترد إليهم من الخارج منبئة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا، وقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولًا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس، فسلبه الزنوج الذين كانوا يرافقونه كل ما معه، وزعموا أنه استمر يومين لا يتذوق طعامًا ولا شرابًا، إلى أن رآه صانع فخار فرق له ورثى لحاله، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهمًا ورغيفًا، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفًا، إذ قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما طعامًا، وبعد لأي ما استطاع هشام — على عجزه عن العمل — أن يكسب قوت يومه.

إلا أنه أنف هذه الحال فهرب، وسار مع قافلة ذاهبة إلى فلسطين، ووصل إلى بيت المقدس وهو في أشد حالات الإملاق، وإنه ليتنقل في بعض طرق المدينة، إذ وقف على دكان حصري، وأخذ ينظر إلى عمله بانتباه شديد، فسأله الحصري: «هل تعرف هذه الصناعة؟»

فأجابه محزونًا: «كلا، وأنا آسف لأنه لا سبيل إلى أن أعيش وأكسب ما أسد به الرمق.»

فقال الحصري: «إذن فابق معي لحاجتي إليك في إحضار الخيزران، ولك أجرك.» فقبل مسرورًا، وبقي عند الحصري حتى حذق هذه الصناعة.

وما زال على هذه الحال بضع سنين، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد إلى إسبانيا في سنة ١٠٣٣، ونزل مالقة ثم تحول عنها إلى المرية فوصل إليها سنة ١٠٣٥، فاضطر الأمير زهير إلى إبعاده خارج حدود مملكته، فرحل إلى قلعة رباح حيث ألقى بها عصا التسيار.

هذه الرواية التي صادفت رواجًا وقبولًا من الشعب لا تستحق — على ما يظهر — أن تنال شيئًا من الثقة، والذي وقع حقيقة هو أنه في العهد الذي كان فيه يحيى يهدد إشبيلية وقرطبة كان في قلعة رباح رجل حصري اسمه خلف يشبه الخليفة هشامًا الثاني تمام الشبه، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام «المزعوم» من الروايات والأراجيف وعدوه ضربًا من الحيلة السياسية والخداع والقحة، وإن كان من مصلحتهم أن يهتدوا إلى مكان هشام إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ولم يتردد خلف حين طرق سمعه كثيرًا أنه شبيه هشام في أن يدعي أنه هو نفسه الخليفة هشام الثاني، وقد جازت هذه الحيلة على أهالي قلعة رباح لأن خلفًا لم يكن معروف النسب عندهم، والأغرب من هذا أنهم دخلوا في طاعته، وثاروا على أميرهم إسماعيل بن دحمان ذي النون أمير طليطلة، فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدة مقاومتهم، وأخرج هشامًا المزعوم من المدينة فهدأ ثائر الأهالي، وعادوا إلى السكينة والخضوع.

(٧) دهاء القاضي

ولم ينته دور خلف عند هذا الحد، بل رجع عودًا على بدء حين علم قاضي إشبيلية بخبره، وعلم الفائدة التي يجنيها من وراء ذلك الرجل إذا هو أحضره إلى إشبيلية، وكان الذي يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل، كما كان يسره كثيرًا أن يرتضي الناس أنه هشام ليستطيع أن يكون باسمه حزبًا ضد البربر، ويكون وهو رئيس الوزراء روح هذا الحزب وزعيمه. ولهذا بادر إلى دعوة الخليفة المزعوم إلى إشبيلية ووعده بتعضيده إذا نجح في إثبات شخصيته، ولما حضر الحصري إلى إشبيلية قدمه القاضي إلى نساء هشام بالقصر، فصرحن جميعهن تقريبًا بأنه هو بعينه الخليفة السابق، وعول القاضي على قولهن، وبعث إلى شيوخ إشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلنهم بأن هشامًا الثاني عنده، ويدعوهم إلى حمل السلاح معه دفاعًا عن حقوقه، ومؤازرة لقضية الخلافة.

وقد كلل الله هذا المسعى بالنجاح، واعترف بسيادة «هشام» محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذي لجأ إلى إشبيلية وعبد العزيز أمير بلنسية ومجاهد أمير دانية وأمير طرطوشة.

وعلم عامة الشعب في قرطبة علمًا مقرونًا بالسرور أنه لا يزال على قيد الحياة، إلا أن كبيرهم الحزم بن جهور كان أقلهم تصديقًا للخبر حرصًا على الحكم، فلم ينخدع، ولم تجد هذه الحيلة إلى نفسه مساغًا، ولكنه لم يجد سبيلًا إلى مقاومة إرادة الشعب، ومخالفة ميوله، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثاني من جديد.

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقلبي يتسلح ضد يحيى، كان هذا محاصرًا إشبيلية، مجدًّا في تخريب ما يتصل بها من العمران، موطنًا النفس على الانتقام الهائل من القاضي الخائن، ولكن الملتفين حوله — من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت رايته — كان هواهم مع هشام الثاني، خليفتهم السابق وكانت المخابرة بينهم وبينه سائرة.

وفي أكتوبر (سنة ١٠٣٥) ذهب فريق منهم خفية إلى إشبيلية، وأبلغوا القاضي ومحمد بن عبد الله، أن من السهل مباغتة يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر، ولم يدع القاضي وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفيدا منها، وهنا وجَّه القاضي ابنه إسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس الجيش الإشبيلي، وعندما أرخى الليل سدوله كمن إسماعيل مع أكثر الجند في كمين، وأرسل كوكبة لمناوشة قرمونة ليغري يحيى بالخروج إلى ظاهرها، وقد نجح في خطته هذه، إذ كان يحيى — حين بلغه مجيء ابن عباد على رأس جيش — ثملًا، فنهض وكان متكئًا على سريره وصاح قائلًا: «يا لها من فرصة سعيدة، هذا ابن عباد مقبلًا لزيارتي، والآن أيها الجند، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت.»

وخرج في ثلاثة آلاف فارس، وكان النبيذ قد لعب برأسه، فلم يتمهل ريثما يعبئ جنده وينظم خططه، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شيء. وفوجئ الإشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت، فقابلوه بجلد وعنف، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذي كمن فيه إسماعيل.

ومن هذه اللحظة سعى يحيى إلى حتفه بنفسه، فإن إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند، واضطره إلى التقهقر، وقتل يحيى نفسه في المعركة، وكاد يأتي القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك، وقال له: «إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم إياه.»

فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد بن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لولا أن ساعده الأهالي على دخولها من ثغرة، وسار إلى قصر الإمارة، وسلَّم نساء الأمير يحيى إلى بنيه، واستولى على ما في القصر من كنوز ونفائس في (نوفمبر سنة ١٠٣٥م).

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورًا عظيمًا في إشبيلية وقرطبة، وعندما وصل الخبر إلى مسامع القاضي خر ساجدًا شكرًا لله، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضي لا يخشى شيئًا من جانب بني حمود.

وقد نودي بإدريس — أحد أشقاء يحيى — خليفة في مالقة، وقد كان يعوزه الوقت الكافي الذي يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه وما يقدمه من وعود، قلوب زعماء البربر، ليجعلهم في صفه، ولهذا لم يعد في استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه محمد خليفة.

ولما رأى القاضي أن الظروف خدمته، هَمَّ بأن يقيم هو وهشام الثاني المزعوم بقصر الخلافة في قرطبة، إلا أن يقظة ابن جهور، وتصميمه على عدم التخلي عن الحكم، وقفا حجر عثرة في طريقه، فقد نجح في إقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغي من الإمامة، وعرف أن القاضي عند مجيئه بهشام إلى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة في وجهه، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها، فيضطر أن يعود من حيث أتى.

وعول — في بداية الأمر — على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلبي، وهو الأمير الوحيد الذي أبى الاعتراف بهشام الثاني، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير، وأقطعه عدة أملاك، بدأ زهير يناصر الحموديين. ولما نودي بإدريس خليفة بادر بالاعتراف به.

ولما صار الآن مهددًا من القاضي عقد محالفة مع حَيُّوس الغرناطي ثم زحف جيش إشبيلية، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر.

ومن المحقق أن القاضي قد بالغ في الاعتداد بقوته، ولم يحسب حساب أعدائه، وكان عليه أن يخشى مجيء الوقت الذي تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة — بدورها — إشبيلية.

وكثيرًا ما خدمته المصادفات الحسنة التي شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر.

الفصل الثاني

في العصر — الذي نحن بصدد التحدث عنه — ظهر رجلان طبقت شهرتهما الآفاق، وكلاهما كان يحمل لصاحبه حقدًا قاتلًا، وكانا هما اللذان بيديهما تسيير دفة الأمور في غرناطة والمرية. هذان الرجلان هما: المغربي ابن عباس، واليهودي صمويل.

فالربان صمويل هاليفي، وكان يدعى عبادة بن نغذلة، ولد في قرطبة ودرس التلمود على الربان هانوخ، الرئيس الروحي للجالية اليهودية، ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي وتثقف بأكثر العلوم التي كانت معروفة إلى ذلك العهد، ثم كان — بعد انقطاعه عن الدرس — بدالًا صغيرًا، وقضى في هذه التجارة مدة طويلة، أولًا في قرطبة، وثانيًا في مالقة التي أقام بها بعد الفترة التي استولى فيها بربر سليمان على العاصمة، ثم ساعفه الحظ وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع.

ذلك أن حانوته كان قريبًا من قصر أبي القاسم بن العريف وزير جيوش ملك غرناطة، وكان على رجال القصر في الغالب أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشئون، ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجئوا إلى صمويل هذا ليحرر لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل التي أثارت إعجاب الوزير إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي، مما حمل الوزير عند عودته إلى مالقة أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل، ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه، وخاطبه بقوله: «ليس خليقًا بك أن تبقى صاحب حانوت، وما أجدرك أن تكون كوكبًا يسطع لألاؤه في بلاط الملك، فإذا توفرت على ذلك رغبتك، فإني متخذك لي ناموسًا خاصًّا.»

فتقبل منه هذه المنة شاكرًا، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة، وازداد إعجابه به عندما أخذ يبادله الحديث في شئون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال، بعيد النظر، سديد الرأي، حتى قال بعض المؤرخين اليهود: «إن النصائح

التي كان يسديها صمويل كانت بمثابه أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحي كلام الله ويستفسره.»

ولهذا كان الوزير يأخذ بها، ويخصه بجميل الثناء، ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه الذي مات فيه، جاء الملك يعوده، وقد داخله حزن عميق على وزيره، وخادمه الأمين الذي سيفقده ولا يجد من يخلفه، فانتهز هذه الفرصة وقال للملك: «لم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني بل كانت وحيًا أتلقاه من صمويل ذلك اليهودي الذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص، فأقصر نظرك عليه واتخذه أبًا لك ووزيرًا، أخذ الله بيدك، وشد به أزرك.»

وقد عمل حيوس الملك بهذه النصيحة، وأحلَّ صمويل بالقصر[١] محل وزيره الراحل، وصار هذا اليهودي ناموس الملك ومستشاره.

وربما لا يحدثك التاريخ عن رجل يهودي حكم في دولة إسلامية حكمًا مباشرًا وصريحًا باسم وزير مستشار إلا في هذه المملكة الإسلامية.

على أن بعض اليهود قد تمتع — على الأرجح — بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض ملوك المسلمين الذين كانوا يستعملونهم غالبًا على وزارة المالية، ولكن التسامح لم يبلغ بالإسلام إلى حد أن يتولى يهودي منصب رئيس الوزراء، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى فلم يكن ليجوز في غرناطة تلك المدينة التي كثر عدد اليهود المقيمين بها حتى أطلقوا عليها اسم مدينة اليهود،[٢] ولما كانت في أيديهم معظم الثروة فقد كانوا يتدخلون غالبًا في شئون الدولة.

وصفوة القول أن اليهود وجدوا هنا أرضًا أخرى غير الأرض الموعودة من الصحراء وصخرة حريب.

ويصح أن يفسر سمو صمويل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول، إذ من المحقق أنه لم يكن في استطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير لا إلى رجل من البربر، ولا إلى آخر من العرب. وقد كانوا يؤثرون — في ذلك الحين — أن يكون الوزير أديبًا قد بلغ في الأدب الغاية وملك ناصية البيان، كي يستطيع أن يحرر الرسائل التي ترسل إلى الملوك بالنثر المبدع، والأسلوب الرائع الممتع، وقد كان ملك غرناطة يرغب في أن تتوافر هذه المواهب عنده، ومثله في ذلك مثل صعلوك يعمل على أن يكون من العظماء، ولما كان نصف بربري بذل كل ما في وسعه حتى لا يظهر بهذا المظهر، وكان يتمنى — من أعماق نفسه — أن يكون

ذا علم وأدب، وكان يزعم — حتى لا ينسب إلى ضعة النسب — أن السلالة التي انحدر منها — وهي صنهاجة — لم تكن من عنصر البربر بل كانت من عنصر العرب.[٣]

فلكل هذه الاعتبارات كان لا بد له من وزير مضطلع بفنون الأدب لا نظير له عند جيرانه، ولكن أنى له أن يظفر بذلك؟

إن البربر الذين عنده كانوا لا يحسنون إلا عملًا واحدًا هو القتال والاستيلاء على المدن ونهب ما فيها من الأموال والذخائر وصرفها وتخريبها، ويعجزون بعد ذلك عن النطق الفصيح، أو كتابة سطر صحيح بلغة القرآن، والعرب الذين كانوا يخضعون لسلطانه كانوا لا يحملون هذا النير على عاتقهم إلا وهم يرجفون غضبًا ويضطربون حمية وخجلًا، ويرون خيانته عملًا شريفًا، فهو لا يستطيع أن يأمن جانبهم، وقد ساعفته الظروف فرأى يهوديًّا مثل صمويل شهد له علماء العرب أنفسهم بالاستبحار في العلوم وفقه أسرار لغة العرب، ومما يشهد له بالمهارة والحذق أنه مع حرصه على التمسك بدينه، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين، فلا بد أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزًا ثمينًا كان ينفق منه كلما أراد الكتابة، ولهذا لم يشعر الملك — وقد رفعه إلى منصة رياسة الوزارة — بخجل، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه، وعلى الرغم من عدم تسامحهم وارتيابهم في اليهود فقد أذعنوا اضطرارًا واعترفوا بعبقرية صمويل ونبوغه ومزاياه، وفي الحق أنه كان متحليًا بمختلف العلوم، زاخر العباب فيها، فهو الرياضي المنطقي الفلكي الذي يجيد — فوق ذلك — سبع لغات، أضف إلى هذا أنه — بوجه عام — كان كثيرًا ما يكرم الشعراء ورجال الأدب، والكثير ممن خصهم بنواله، لم يقصروا في إطرائه ومدحه والثناء عليه، وقد دخل في غمار من مدحه الشاعر منفائيل.

ووجه إليه بالكلمة التالية التي لا يذكرها المسلمون، إلا مقرونة بفزع واستنكار عظيمين:

> «أيها العلم الفرد الذي جمعت في شخصك من المزايا والسجايا الحميدة ما لم يظفر سائر الناس إلا بجزء يسير منه، أنت يا من أطلقت الجود من محبسه بعد أن كان سجينًا، إنك لأسمى الناس قدرًا وأرفعهم منزلة في الشرق والغرب، فإنك كالذهب قيمة وسائر الناس كالنحاس ... إلخ.»

وأما الذي كرهه العرب من آثار ذكائه الحقيقي فهي الخدمات العديدة التي أداها للأدب العبري، فقد نشر باللغة العبرية مقدمة للتلمود، وقعت في اثنين وعشرين جزءًا جعلها خاصة بالغراماطيق، ومن أهم كتب الغراماطيق وأوفرها مادة «كتاب الثروة» صنفه قاضٍ من أقضى القضاة، وأكثرهم ثقافة ودراية، كان على دين صمويل الذي ازدهر بالمعارف والبحوث في القرن الثاني عشر، وقد وضع هذا الكتاب في المرتبة الأولى من الكتب التي بحثت في الغراماطيق، كان هذا المؤلف شاعرًا أيضًا، وقد نسج على منوال المزامير، وابن سيراخ، ولما كانت أشعاره مفعمة بالكنايات وأمثال العرب والحكم المختلسة من أقوال الحكماء والفلاسفة، والمعاني الشعرية التي اخترعها الشعراء المجيدون، فقد أصبح من العسير — إلا على الخاصة — تفهم معانيه. على أن أكبر علماء اليهود كان يتعذر عليه فهم غوامضه ما لم يستعن بالمتون والشروح والتعليقات.

ولما كان التعمق والبحث في آداب اللغة العبرية أكثر شيوعًا منهما في اللغة العربية التي هي صورة منها، ونموذجًا لها، كان الغموض لا يعد نقصًا وعيبًا، بل يعد من الدراية والكفاية العلمية.

وكان صمويل يسهر على مصالح اليهود، ويُعنى عناية أبوية بالشبيبة اليهودية، يتفقد رقيقي الحال منهم، ويمدهم بما يسد حاجاتهم — عن كرم وسخاء — وكان في خدمته كتاب ينسخون المشنا والتلمود، فكان يوزع نسخها جوائز على التلاميذ الذين لا يملكون شراءها، ولم تكن مكارمه وخيراته وإحساناته لتقتصر على أتباع دينه في إسبانيا فحسب، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في إفريقية وصقلية وبيت المقدس وبغداد، وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد يعتمدون على معونته وكرمه.

لهذا عمد اليهود في غرناطة إلى أن يبرهنوا على إخلاصهم وحبهم وولائهم واعترافهم له بالجميل عليهم وعلى أبناء دينهم، فمنحوه لقب «ناغد» أي زعيم أو أمير يهود غرناطة.

ولما كان زعيم أمة ورئيس دولة فقد ضم إلى رجاحة العقل وتوقد الذكاء يقظة وتبصرًا وحزمًا، وصفات خلقية ثابتة جعلته في مصافِّ كبار الزعماء والرؤساء، فكان يتكلم قليلًا ويفكر طويلًا، وهذه في العادة من أعظم صفات الرجل السياسي المحنك.

وكان يهتبل الفرص فلا يدعها تمر دون أن يستفيد منها عن حنكة وخبرة ودربة، وكان عليمًا بأخلاق الناس وميولهم، خبيرًا بالوسائل التي يتغلب بها على رذائلهم وشرورهم، وكان — فوق هذا — جميل الهندام حسن الهيئة مشرق الطلعة، ففي مجالس الحمراء البديعة كان يبدو أنيقًا رشيقًا حتى ليخيل للناظر إليه أنه نشأ منذ نعومة أظفاره

في أحضان الأناقة الفاخرة، ولم يكن أحد ليجيد الكلام بلباقة وحذق مثله، ولا ليفنن في التظرف في الحديث ويتملق محدثه ويتملك بقوة بيانه مشاعر محدثه مثله، ويندر فيمن أسرعت بهم عجلة الحظ فرفعتهم فجأة من الحضيض إلى ذروة المجد ألا يكونوا على نمط أولئك الذين كانوا فقراء، فأصبحوا أغنياء، فإن كثيرًا منهم يغلب عليه طبعه الأول فينحط إلى درجة صعلوك وقح مفتون، وصمويل لم يكن على نمط أولئك، بل كان كمن نشأ في السيادة والمجد منذ ولادته.

ولما كان ذا عطف محبًّا للجميع، فقد أضاف إلى سجاياه الكريمة خلقًا نبيلًا، متأصلًا في نفسه، هو التخلي عن صفة الادِّعاء الكاذب، فهو — بدلًا من أن يخجل من عمله الذي كان يزاوله من قبل فيعمل على إخفائه — كان يعلنه لمحدثه ومن يعيبه عليه، وكان يعلن ذلك في صراحة وبساطة تقنع محدثه أنه يعتزي إلى عمل شريف.

وأما ابن عباس وزير زهير أمير المرية فقد كان رجلًا فائق الشهرة عظيم الخطر، وقد قالوا عنه إنه اختص بأربعة أشياء لا يدانيه فيها غيره:

(١) الأسلوب الإنشائي
(٢) الثروة
(٣) البخل
(٤) الكبر

فكانت ثروته — على الحقيقة — لا تقع تحت حصر، وقد قدروها بما يربو على خمس مئة ألف دوكا.[٤]

وكان قصره — لفخامته — كقصر ملك مؤثثًا بأفخر الأثاث والرياش غاصًّا بالخول والعبيد، فيه نحو خمس مئة قَيْنَة جميعهن ذوات جمال رائع نادر، ومما هو خليق بالإعجاب في قصره هذا مكتبته الفاخرة التي كانت تحوي عدا الكراسات المنفصلة زهاء أربع مئة ألف مجلد، وقد تمت السعادة لهذا الرجل فلم يعد ينقصها شيء، فقد كان بهي الطلعة جميلًا شابًّا، قد أوفت سنه على الثلاثين، ينحدر نسبه من أسرة عريقة، يرجع أصلها إلى بعض قبائل العرب التي نصرت النبي ﷺ.

وقد كان لكثرة الثراء يسبح في بحر من الذهب، ولما كان عليمًا بفنون الأدب قديرًا على التعبير عن آرائه في عذوبة ولطف ورقة، ذاعت شهرته الأدبية وتردد ذكره في المحافل

والأندية، وتوافر الناس على محبته وتقديره. ولكن مما يؤسف له أن شيئًا من الخوف والارتباك قد ملأ فؤاده، وتملك عليه مشاعره، وأصبح ينتابه من الوساوس والشكوك والاضطرابات المفزعة ما لا حد له، ومن جراء ذلك كثر أعداؤه، وقل أولياؤه، وكان أهل قرطبة من أشد الناس نقمة عليه — لكبريائه وغطرسته — فقد حدث مرة أن زار مدينتهم مع زهير، فواجه بكل احتقار وزراية أكبر رجل من عظماء قرطبة الممتازين بأصل أرومتهم وبمواهبهم الخلقية والعلمية، وكان مما جبه به ذلك العظيم قوله: «إني لا أرى في مدينتكم هذه سوى صعلوك سائل، أو مأفون جاهل.»

وفي الواقع كانت أوهام هذا الرجل ودعواه الجوفاء قد وصلت إلى حد السفه والجنون، وقد جاء في شعره من الغلو والإغراق في القول ما معناه: «لئن كانوا قد أصبحوا كلهم عبيدي، فإن نفسي لن يقنعها ذلك ولن تسكن إليه.»

ومن أبياته التي كان يرددها في كل مجلس وعند كل مناسبة، وبخاصة إذا كان يلعب الشطرنج ما مضمونه: «قد أمن الشقاء جانبي، وهو ممنوع البتة أن يحوم حولي، أو ينزل بساحتي.»

وهذه القحة التي كان يواجه بها القضاء، ويجبه بها القدر، كانت مبعث إثارة النفوس والخواطر ضده، مما حمل شاعرًا جريئًا على أن يجهر بما يعبر به عن الرأي العام، فأحال الشطر الثاني إلى ضد معناه، وذلك حيث يقول: «ولكن القدر الذي لا ينام سيوقظ راقد الشقاء.»

ولما كان ابن عباس عربيًّا قحًّا، أصبح يكره البربر ويحتقر اليهود. وربما كانت تقضي عليه ميوله بأن لا ينضم ملكه إلى الحزب العربي الصقلبي، ذلك الانضمام الذي تكون نتيجته اللازمة، إيداع زهير غيابة السجن بيد قاضي إشبيلية زعيم هذا الحزب. وقد كان امتعاضه من زهير شديدًا لمحالفته ملكًا من ملوك البربر، اتخذ له وزيرًا يهوديًّا كان شديد الكراهة له، وهو يعلم ذلك، وقد تمالأ مع ابن بقية[٥] وزير الحموديين بمالقة وعمل على خلع إسماعيل بأن اختلق لإدراك هذا الغرض عدة وشايات ودسائس لم تفلح، ثم عمد بعد ذلك إلى أن يوقع ملكه مع ملك غرناطة بأن يجعله يقدم مساعدته لمحمد أمير قرمونة وعدو حبوس، وقد نجح في محاولته هذه.

وبعد فترة من الزمن وافى الأجل المحتوم حبوس في يوليو سنة ١٠٣٨[٦] وقد أعقب ولدين باديس[٧] وهو بكره، وبلقين، وهو أصغر منه. وأراد البربر وجماعة اليهود أن يتبوأ صغيرهما العرش، وآخرون من اليهود بينهم إسماعيل، ومعهم العرب، كانوا يميلون إلى

جانب باديس. وكان لا بد — لهذا الخلاف — من أن تنشب حرب أهلية، لو لم يبادر بلقين إلى التنازل عن العرش لباديس والدخول في طاعته، فحذا حذوه أنصارُه مكرهين.[٨] وأول عمل عمله الأمير الجديد أنه بذل كل ما في وسعه لتوطيد أركان المحالفة بينه وبين أمير المرية، وقد صرح هذا الأخير بأن كل شيء تتم تسويته عند المقابلة. وخرج في حرس تام العدد والعدة، ومنظر يستوقف الأبصار، واجتاز حدود مملكة باديس — على غير علم منه — إلى أن صار فجأة على أبواب غرناطة، فأثَّر هذا العمل — الخالي من اللياقة — في نفس باديس. ومع هذا فقد قابله بكل حفاوة، وأولم له ولمن معه وليمة فاخرة، وغمر أتباعه بالعطايا والهدايا، وعلى الرغم من هذه الحفاوة البالغة، فإن المفاوضات التي دارت بينهما، على عقد تحالف وطيد، لم تسفر عن نتيجة، إذ لم يستطع الأميران ولا وزيراهما (كان إسماعيل لا يزال وزيرًا في مكانه) أن يتفقا على شيء، وكان في مقابلة ما فعله باديس من الحفاوة بضيوفه، أن أميرهم زهيرًا،[٩] بتأثير وزيره ابن عباس حين اجتمع بباديس، تظاهر أمامه بعظمة تركت في نفسه أثرًا سيئًا، وجعلته يبيِّت النية على الإيقاع بأمير المرية، وتأديبه أدبًا يكون كفاء لقحته وجفائه، وصمم على الإيقاع بوزيره أيضًا لما بدا منه من عناد وفظاظة حين عول أخوه بلقين، وأحد قواده، أن يبذل آخر محاولة للتوفيق بينهما.

وتفصيل الخبر أن بلقين ذهب حين أقبل الليل إلى حيث مجلس ابن عباس وخاطبه بقوله: «اتق الله — أيها الوزير — واخش عقابه، فأنت الذي يحول دون اتفاق أميره، وقد رأيناه أطوع لك من بنانك، لا يصدر إلا عن رأيك، ولا يعمل إلا بمشورتك، ولعلك تدرك أكثر مما ندرك مبلغ ما وصلنا إليه من السعادة، ومواتاة الحظ، في الوقت الذي كنا نعمل فيه متفقين، حتى لقد حسدنا جميع أعدائنا. وإذن فواجبنا جميعًا أن نعود إلى ما كنا عليه من الاتفاق والمحالفة. والشرط الذي لم يتم عليه الاتفاق بيننا، هو مبلغ المعونة التي تمدون بها محمدًا أمير قرمونة. فلندع هذا الأمير وما يخبؤه له القدر من حظ — وذلك ما يريده أميرك — ثم لنتفق بعد هذا على تسوية جميع الشروط، فإن كل شيء — بعد نقطة الخلاف هذه — ميسور وسهل.»

فرد عليه ابن عباس بلهجة قاسية، تشف عن نفوذ وسلطان قاهر من جهة، وعن امتهان لمحدثه وزراية عليه من جهة أخرى. ولما حاول أخو أمير البربر وسفيره أن يعالجه من ناحية العاطفة، قام إليه معانقًا باكيًا، فلم يؤثر فيه بمعانقته ودموعه، بل قال له: «وفِّر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة، فإنها لا تترك أي أثر في نفسي، وإن ما

قلته لك آنفًا، هو ما أعيده على مسامعك اليوم، فإذا لم تعمل أنت وأصحابك على تنفيذ ما نريد، فسأعمل بعد على ما يدعوكم إلى الحسرة والندم.»

فأحرج بلقين هذا الرد وأجابه بقوله: «هل هذا هو جوابك الذي أحمله إلى المجلس؟»

فقال ابن عباس: «هو هذا بدون شك. ولك أن تبالغ في قولي ما شئت، وتزيد في لهجته شدة ما استطعت.»

فبكى بلقين حمية وغضبًا لما لحقه من الإهانة والازدراء، وعاد إلى باديس، ومجلسه منعقد، فأفضى إليه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس من حديث، وأصابه من عنت. فامتعض باديس صنهاجة امتعاضًا شديدًا وقال: «إن وقاحة هذا الرجل لا تحتمل. فقوموا جميعًا، قومة رجل واحد للدفاع عن كرامة المملكة، وإلا فإنكم — وما تملكون — تصيرون ملكًا لغيركم.»

وقد شاطره الغرناطيون هذا الغضب، وظهر بلقين، أشد من أخيه باديس حماسة وغضبًا، وطلب إليه — في عنف — أن يتخذ أهل المرية في الحال، ما يلزم من التدابير نحو هذا الطاغية وملكه، فقطع على نفسه عهدًا بذلك.

وكان لا بد لزهير في العودة، من اجتياز قنطرة لا محيد له عنها.

فأمر باديس بقطع هذه القنطرة، وأرسل جنوده فاحتلوا تلك المضايق والأوعار، ولم يكن حنقه على زهير شديدًا كأخيه، ولم ييئس من عود صديق والده القديم إلى ما كان عليه من عواطف سامية، وميول شريفة، ولهذا عول على أن ينبهه في الخفاء إلى الخطر المحدق به، فعمد إلى حَرَسِيٍّ من البربر من جند المرية، وبعثه إلى زهير رسولًا، فوافاه ليلًا وأَسَرَّ إليه بما يلي: «أخبرك يا مولاي — وأنا صادق فيما أقول — أنك ملاقٍ غدًا من المخاوف والمصاعب، إذا أنت اجتزت القنطرة في طريق عودتك، ما تتعرض معه لأشد أنواع الخطر والهلاك. فأنصحك أن تخف للرحيل — منذ الليلة — قبل أن يتسع الوقت لجند غرناطة فيحتلوها ويضيقوا عليك الخناق. وإذا نجوت سريعًا، وحدث أنهم تتبعوك، كان في استطاعتك أن تدبر معهم معركة في براح من الأرض بعيدًا عن تلك المضايق، أو تلحق بإحدى قلاعك فتكون في مأمن من غائلتهم.»

ويظهر أن هذه النصيحة صادفت من نفس زهير قبولًا، ووقعت منه موقع الإعجاب، إلا «ابن عباس» الذي كان حاضرًا وقت أن أفضى الرجل إلى زهير بهذا الحديث، فقال له: «لا عليك أيها الأمير، فإن الخوف هو الذي جسم في خيال هذا الرجل أن يحدثك هكذا.»

فصاح الحَرَسِيُّ: «أي خوف هذا؟ ألمثلي تقول هذا الكلام، وأنا الذي اشترك في عشرين معركة في حين أنك لم تشهد في حياتك معركة واحدة؟ وسترى — عند معاينة الحادث غدًا — أني لم أغش الأمير حين نصحته.» وغادرهما مغضبًا.

وقد زعم أعداء ابن عباس (وقد قلنا سابقًا إنهم كثير) أنه رفض نصيحة جندي البربر لا لأنه استهان بها، بل لأنه كان يرمي إلى هلاك زهير طمعًا في الاستئثار بحكم المرية على أمل أن يقتل زهير في المعركة ويركن هو إلى الفرار، فيُنادى به ملكًا عليها، وربما كان لهذا الزعم ظل من الحقيقة، وسنرى على الأقل أن ابن عباس سيفخر أمام باديس بأنه استدرج زهيرًا حتى وقع في الشرك.

وفي اليوم التالي (١٥ أغسطس سنة ١٠٣٨) ألفى زهير نفسه وراء تلك المجازات والمضائق محصورًا، وقد أحاط به جنود غرناطة، فذعر جنوده ذعرًا شديدًا، وعمهم الحزن والكمد. أما هو فكان حاضر الذهن حيث رتب المشاة من الزنوج، وكانوا خمس مئة راجل، والمشاة من الأندلسيين وأمر القائد هذيلًا، بأن يتقدم على رأس الفرسان الصقالبة وينقض على العدو فصدع هذا بالأمر، ولم تكد تبدأ المعركة ويلتحم الفريقان، حتى سقط هذيل عن جواده ولم يعرف سبب سقوطه، أمن طعنة رمح أم من كبوة فرسه؟

وسرعان ما لاذ الفرسان بالفرار بغير انتظام، وفي نفس هذا الوقت المشئوم، خان الزنوج زهيرًا — وكانت له فيهم ثقة عظيمة — وانضموا إلى أعدائه، بعد أن استولوا على ما لديه من عدة وسلاح ولم يبق معه — وهو على هذه الحال — سوى الأندلسيين وهم أخلاط من أردأ الجند غير مدربين على القتال. فأسرع هؤلاء أيضًا بالهرب، وتبعهم زهير طوعًا أو كرهًا.

ولما كان الجسر مقطوعًا، وأطراف الشعاب والمضايق محتلة بجند غرناطة، لم يسع الفارين إلا أن يعتصموا برءوس الجبال. فأعمل الغرناطيون — في أغلبهم — السيوف، ومن لم ينله السيف منهم، تردَّى في مهاوٍ عميقة، وطاح هذا العدد، وبقي زهير وحده.

وأخذ أرباب الوظائف — من غير الجند — أسرى، عملًا بأوامر باديس، الذي أوصى رجاله بالإبقاء عليهم، وفي عدادهم ابن عباس، وقد صرح أن أخوف ما يخافه — وقد وقع في قبضتهم أسيرًا — مكتبته الحاوية لأنفس الكتب وأكثرها عددًا، وصاح قائلًا: «رُحماك ربي وعونك، إلى أي مصير تصير كتبي؟»

وجعل يتوسل بالجند الذين يسوقونه إلى باديس ويقول لهم: «اذهبوا إلى ملككم، وسلوه أن يُعْنى العناية كلها بكتبي وأن لا يحرق منها شيئًا، فإن من بينها كتبًا لا تقوم بوزنها ذهبًا.»

ولما مَثَل بين يدي باديس، أراد أن يخدعه بقوله: «ألم تر أني قد خدمت مصلحتك حين أوقعت — في حبائلك — هؤلاء الكلاب؟ وأشار بيده إلى الأسرى من الصقالبة. وأريد في مقابلة ذلك أن تسعى بدورك في صالحي، وذلك بأن تأمر باستبقاء كتبي، والمحافظة عليها، فإنه لا شيء أعز عليَّ منها.»

وفيما هو يخاطبه كان أسرى المرية يرمقونه بأنظار يتطاير منها الشرر حنقًا وغيظًا، وحمل الغيظ أحد رؤساء الجنود، وهو ابن شبيب على أن يقول لباديس: «أستحلفك — يا مولاي — بمن جعل النصر حليفك، ألا تدع هذا الخائن الذي أضاع مملكتنا، يُفْلت من يدك، فإنه هو وحده الذي جنى علينا كل ما وقع. وإذا أتيح لي أن أشهد مصرعه، وما يحل به من العذاب الأليم، فسأكون أول من يقدم نفسه عن اختيار لتضرب رأسي بعده.»

فافتر ثغر باديس عن ابتسامة لطيفة عند سماعه لهذه الكلمات، وأمر بإطلاق سراحه. وكان ابن شبيب هذا هو الوحيد الذي نجا بحياته من أسرى الجيش، لأن عامة الأسرى الباقين تسلمهم الجلاد على التعاقب لضرب أعناقهم، كما أنه أطلق سراح الأسرى الملكيين من أرباب الوظائف، وأبقى ابن عباس وحده على تلك الحال من الأسر والاعتقال.

والآن عرف هذا الوزير المتكبر مبلغ ما حل به من الشقاء الذي تَقَحَّمَهُ بإقدامه الجنوني، وتحققت نبوءة شاعر المرية، وأيقظ القدر الذي لا ينام راقد الشقاء. وأودع ابن عباس سجنه في قصر الحمراء، وكبل بسلاسل وأغلال لا يقل وزنها عن أربعين رطلًا، وعرف أن باديس مغيظ محنق قد اشتد غضبه عليه، وأن إسماعيل لا يرضى بغير موته، ومع هذا، فقد كان بعض الأمل يجيش بصدره، إذ عرض على باديس إطلاق سراحه مقابل ثلاثين ألف دوكا، فأجاب بأنه سينظر في طلبه بعين الاعتبار. ومضَى شهران دون أن يبتَّ في أمره. وفي غضون هذه المدة وفد على قصر باديس كثيرون، مطالبهم متعارضة في شأن الأسرى. فرسول قرطبة كان يطلب إطلاق الأسرى، وبخاصة ابن عباس وتلاه رسول آخر هو الأحوص بن صمادح صهر عبد العزيز حاكم بلنسية ورسوله، وطلب بإلحاح قتل جميع الأسرى، وفي مقدمتهم ابن عباس.

ومنشأ ذلك أنه — على أثر وقوع هذه الحوادث — كان عبد العزيز قد بادر بالاستيلاء على المرية بدعوى أن من حقه أن تئول إليه، لأن زهيرًا كان من الأمراء التابعين لأسرته، وهو يخشى أن يطلق سراح ابن عباس والذين معه فينازعوه في هذا الحق. ولم يدر باديس إلى أي الجانبين يميل، فإن الطمع في ثروة ابن عباس، وحب الانتقام منه، كانا يتنازعان فؤاده.

وفي مساء ذات ليلة، بينما باديس وأخوه يتنزهان على صهوتي جواديهما خارج المدينة، إذ طلب باديس من أخيه أن يصرح له برأيه فيما عرضه ابن عباس عليه من الفدية، فقال له: «إنك عندما تقبل دنانيره، وتفك أسره، يثير عليك حربًا تكلفك ضعف ما تأخذه من الفداء، وعندي أنه يجب أن تودي بحياته وشيكًا.»

ولما عاد من المتنزه بادر باديس إلى استدعاء أسيره وأخذ يعدد عليه أخطاءه، وما بدر منه من ألفاظ جافة مقذعة، وابن عباس مستسلم مصيخ بسمعه لما يوجهه إليه من جارح القول.

ولما فرغ الملك من كلامه، قال ابن عباس: «أتوسل إليك يا مولاي، بكل عزيز عليك أن ترحمني وتنقذني من آلامي.»

فقال له باديس: «سأريحك من آلامك اليوم.»

ولمح باديس على أسارير أسيره الحزين المتقع اللون، بصيصًا وشعاعًا من الرجاء، فصمت لحظة يسيرة، ثم استأنف كلامه، وكشَّر عن أنيابه بابتسامة فيها كل معاني الانتقام والوحشية، وقال له: «إنك لا محالة ذاهب الآن إلى حيث تزيد آلامك.»

وتراطن مع أخيه بلغة البربر التي لا يفهمها ابن عباس. ومن كلام باديس الأخير وابتسامته الرهيبة، وشكله المروع الغاضب، لم يبق عند ابن عباس شك في أن ساعته الأخيرة قد دنت، فجثا على ركبتيه وقال: «أستحلفك بالله أن تبقي على حياتي وتشفق على زوجاتي، وترحم أولادي الصغار، ولك أن أقدم ثلاثين ألف دوكا بل ستين ألفًا.»

وكان باديس مصغيًا لكلامه، لا ينبس ببنت شفة، ثم عمد إلى رمح قصير وطعنه به في صدره، وحذا حذوه أخوه بلقين وتبعه علي بن القروي، وانهالوا عليه بالطعنات، ولم تنقطع استصراخاته وتوسلاته، إلا بعد أن برد في مصرعه عند الطعنة السابعة عشرة.[١٠]

وسرعان ما ذاع الخبر في غرناطة بمقتل ابن عباس، ذلك الغني المتكبر المتعجرف، وقد كان سرور الإفريقيين عظيمًا. وكان أعظم الناس سرورًا إسماعيل الذي لم يبق أمامه إلا

عدو واحد خطير، وخصم لدود، هو ابن بقية. وكان «لإسماعيل» هاتف خفي يعتاده في الحلم، قد ألقى في روعه أن هذا العدو سيلقى حتفه ويلحق بابن عباس عاجلًا. واليهود في هذا كالعرب، يتوهمون أن سرًّا من الأسرار يلهمهم وهم في نومهم بنبوءات عن المستقبل. وعاده الحلم ذات ليلة، فسمع في نومه هاتفًا يردد ثلاثة أبيات بالعبرية هذا معناها: «لقد هلك ابن عباس وشيعته والملتفون حوله، وهذا الوزير الآخر الذي كان يظاهره ويتآمر معه يوشك أن يقتل مثله، ويوطأ كالجلبان ويداس، فماذا كانت عاقبة ثرثرتهما وحمقهما واعتدادهما بقوتهما؟ لقد دارت الدائرة على أحدهما، وعما قليل يلحقه الآخر، فلله الحمد والشكر.»

وبعد بضع سنين تحققت نبوءة إسماعيل — وسنضطر إلى ذكر مقتل هذا الوزير فيما بعد — وصح الآن أن الشعور بالخوف، أو الحب، يجعل في الشخص سرًّا غريبًا يدرك به بعض الأمور الغيبية.

الفصل الثالث

في الوقت الذي باغت فيه باديس زهيرًا وجنى عليه، كان قد أدى — مرغمًا، وبدون قصد منه — خدمة جليلة للحليفين اللذين اعترفا بهشام المزعوم كخليفة. وقد ذكرنا أن عبد العزيز[1] أمير بلنسية، استولى على إمارة المرية، ولم يكن في استطاعته في الواقع أن يمد حليفه — قاضي إشبيلية — لاضطراره للدفاع عن مملكته ضد إغارة مجاهد[2] الذي كان يرى — بعين الحسد — اتساع مملكة جاره وما كان القاضي ليخشى وقوع حرب بينه وبين المرية فاطمأن من هذه الناحية.

وبدأ يفكر في مهاجمة البربر مبتدئًا بمحمد[3] أمير قرمونة لنزاع قام بينهما، وكان في الوقت نفسه يتآمر سرًّا مع فريق من الغرناطيين، ويبادلهم الرسائل، ويعمل على إشعال نار الثورة بها.

وبدأ كثير من أهل غرناطة يظهرون نفورًا واستياء من باديس. ويرجع هذا إلى ما قطعه على نفسه من عهود ووعد به من أماني معسولة، في بدء توليه الحكم، وعلى أثر ذلك صار يبدو قاسيًا غليظ القلب شيئًا فشيئًا، ويظهر بمظهر الخائن اللئيم السفاك، وعكف على الشراب، فعم الاستياء منه، وأخذ الناس يلومون ويتألمون، ويشكو بعضهم إلى بعض، ثم أخذوا يتمتمون خفية ويتناجون، ثم صرَّح الشر فعادوا يتآمرون.

وكان زعيم هذه المؤامرة وروحها رجل أفاقي يقال له أبو الفتوح.

ومن حديث هذا الرجل أنه ولد بعيدًا عن إسبانيا من أسرة عربية كانت في جرجان.

وقد تلقى الأدب والفلسفة والفلك على أشهر أعلامها ببغداد، فكان عالمًا مستبحرًا، وأديبًا شاعرًا، وفوق ذلك كان فارسًا كميًا، وشجاعًا باسلًا، يمتطي الجواد الأصيل، وينتضي السيف الصقيل.

هبط أبو الفتوح أرض إسبانيا سنة ١٠١٥ ليجني ثروة على الراجح. وبعد مدة اتصل بجناب مجاهد دانية، وكان هذا الأمير عالمًا لغويًّا وجرت بينهما مباحثات في الأدب، واشتغلا معًا بشرح «المجمل» في النحو، ثم قاتل في صف أمير سردينيا.

وكثيرًا ما كان يعالج المسائل الفلسفية العويصة ويحاول استكناه المستقبل بواسطة علم النجوم وسير الكواكب. ثم رحل إلى سرقسطة مقر المنذر، فرحب به هذا الأمير أولًا، ثم اتخذه صديقًا، وعهد إليه بتأديب ابنه. ولكن يؤخذ مما رواه المؤرخ العربي الذي ننقل عنه ها هنا، أن العهد قد تغير، وتغير معه الأشخاص، إذ أبلغه المنذر يومًا، أنه في غنى عنه، وأن عليه أن يبرح سرقسطة.

فرحل أبو الفتوح إلى حيث تطيب له الإقامة في غرناطة، وجلس للتدريس، فكان يلقي محاضرات عن الشعر القديم، وبخاصة ديوان الحماسة، وكان إلى جانب هذا العمل العلمي، يقوم بعمل آخر، هو التنبؤ بالمستقبل، وقد خلق أعداء كثيرين لباديس حين تنبأ على أحكام النجوم، بأن ياسر ابن عمه يطمع في الملك، وأن باديس سيفقد عرشه، ويتبوءه ابن عمه مكانه ثلاثين عامًا.

وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وفق إلى تدبير مؤامرة اكتشفها باديس قبل حلول الموعد المحدد لتنفيذها، وتمكن أبو الفتوح وياسر، وأركان المؤامرة، من الفرار إلى خارج المملكة، حذرًا من انتقام باديس، ولجئوا إلى قاضي إشبيلية، الذي كان — لا ريب — شريكهم في هذه المؤامرة. ومحال أن نعرف إلى أي حد كان نصيبه فيها.

وفي هذه الفترة هاجم القاضي بجيشه الذي جرت العادة بأن يقوده ابنه إسماعيل، خصمه محمدًا أمير قرمونة، فانتصر انتصارًا باهرًا واضطرت مدينتا «إشبونة» و«أستيجة» إلى التسليم، وحوصرت قرمونة نفسها.

ولما اشتد الضيق بمحمد أمير قرمونة، طلب المدد والعون من إدريس أمير مالقة، ومن باديس كذلك، فلبيا طلبه. ولما كان إدريس مريضًا، أرسل جنوده — بقيادة وزيره ابن بقية — وقاد باديس جيشه بنفسه وتلاحق الجيشان، وانضما إلى بعضهما.

وكان إسماعيل واثقًا كل الثقة من بسالة جنده، ووفرة عددهم، فوطن نفسه على منازلة خصومه. ولكن باديس، وابن بقية[٤] حين حسبا أن خصمهما يفوقهما، أو يدانيهما

عددًا، أبيا أن يشتبكا معه في القتال، وآثرا أن ينسحبا، ويتركا أمير قرمونة برهة، فعاد أولهما أدراجه إلى مالقة.

ووصل الآخر بجنوده إلى غرناطة، واقتفى إسماعيل في الحال أثر الغرناطيين. وكان من حسن حظ باديس، أنه بعد أن فارقه ابن بقية بنحو ساعة، أرسل إليه رسولًا على جناح السرعة يستنجده وإلا سحق جيشه في لمحة بجنود إشبيلية، فطار إليه باديس ووقف الجيشان على مقربة من «أستيجة»، على تمام الأهبة والاستعداد للقاء عدوهما، بثبات ورباطة جأش.

وقد وهم الإشبيليون، إذ حسبوا أنهم إنما يتعقبون جيشًا منهزمًا، فإذا بهم أمام جيش كامل العدة والعدد، فأفقدتهم تلك المفاجأة قوتهم المعنوية.

ووقع في صفوفهم الاضطراب عند الصدمة الاولى، وعبثًا حاول إسماعيل تعبئة الجيش للقتال، وبرز أمام الصفوف فكان أول الذاهبين ضحية المعركة، فلم يسع الإشبيليين إلا الفرار طلبًا للنجاة.

وملك باديس ناصية الحال بعد هذا الانتصار البسيط المفاجئ، وبينما هو في معسكره قرب «أستيجة» عرته دهشة إذ وجد أبا الفتوح قد انحنى أمامه متراميًا على أقدامه. وكان الذي حدا هذا الرجل إلى تلك المحاولة الخطرة، أنه حين عجل بمغادرة غرناطة — خوفًا على نفسه من باديس — ترك للقضاء أمر زوجه وولده الصغير وبنتيه، وكان قد وصل إلى علمه أن باديس أرسل إلى «قوادم» الزنجي، فألقى القبض على زوجه وأولاده بوساطة خواصه المقربين إليه، وأودعهم السجن. وكان معروفًا بأنه شديد الشغف بزوجه الغادة الأندلسية الفتية، كثير الحنو على ابنه الصغير وبنتيه، بحيث لا تطيب له الحياة دونهم.

وقد خشي أن ينتقم باديس منهم في شخصه، فجاء يلتمس الصفح عن زلته، وهو يعلم ما ركب في طبع عدوه من حب الانتقام، وما جبل عليه من الظلم والجبروت. جاء على أمل أن يرق له، ويعطفه عليه ما عطفه على عمه والد الزعيم الفار الذي كان رأس شركائه في المؤامرة.

وحين جثا أبو الفتوح أمام باديس قال له أبو الفتوح: «مولاي، حنانيك ورحمة بعبدك الجاني أمامك، وأنا أحقق لك ما تقطع معه أني بريء مما عزي إلي.»

فكاد باديس يتميز غيظًا وحنقًا، وصرخ في وجهه وعيناه يتطاير منهما الشرر: «كيف استطعت يا هذا — مع شناعة جرمك — أن تمثل أمامي؟ لقد بذرت بذور الشقاق

بين أفراد أسرتي، ثم جئتني الآن تزعم أنك بريء مما جنته يداك! أتحسب أنه من السهل عليك أن تخدعني؟»

فقال له: «مولاي، أُقسم عليك إلا ما رحمتني. ولا تنس أنك غمرتني بإحسانك وشملتني بحسن رعايتك، وهذه البلاد التي أنا ربيب نعمتها من العسر الشاق علي أن أفارقها. وفي الوقت الذي أبعد فيه عنها أكون تعسًا شقيًّا. ولا أكذب مولاي الحديث فإني ما فررت حين فررت مع ابن عمك، إلا لما تأكد بيننا من صلات يعرفها مولاي، وأخشى أن يحل بي العقاب كشريك له في الجرم، وها أنا ذا بين يدي مولاي أعترف بالفرار وأكرر أن الذي ألجأني إليه محض الصداقة، وأؤكد أني بريء، وأطمع في عفو مولاي وصفحه، وأنتظر أن يعاملني كملك عظيم ومولى كريم لا تحمل نفسه الكبيرة حقدًا على صغير مثلي، فارحم لهفتي، ورد إلي أسرتي، وعاملني بما أنت أهله.»

فقال له: «سأعاملك — إن شاء الله — كما تحب، وبما أنت خليق به، فارجع إلى أهلك بغرناطة، وسأنظر في شأنك عند عودتي إليها.»

واطمأن أبو الفتوح إلى هذا الكلام الذي لم يدرك مراميه لأول وهلة، وسار إلى غرناطة يحرسه فارسان. ولما كان بظاهر المدينة أرسل «قوادم» الزنجي — تنفيذًا لأمر مولاه — بعض غلمانه، فألقوا القبض عليه، وحلقوا رأسه ولحيته وأركبوه جملًا، وأردفوه زنجيًّا جلدًا استمر يصفعه على التتابع، والجمل يطوف به أحياء المدينة ويجوس به خلال ديارها حتى أفضوا به إلى السجن حيث أودعوه في غرفة من غرفه ضيقة لبث فيها هو وجندي من البربر أسر في معركة «أستيجة» وكان أحد شركائه في المؤامرة.

وعاد باديس بعد أيام إلى غرناطة ولم يكن قد بت في أمر أبي الفتوح بشيء، ولم يستطع أن يصنع به كما صنع بابن عباس لأن أخاه بلقين حال دون ذلك، ولم يعرف السبب الذي جعله يهتم بشأن هذا الفيلسوف إلى هذا الحد، إذ عمد إلى إظهار براءته، ودافع عنه بكل قوة حتى خيف أن يفضي ذلك إلى الاستياء. ولهذا تردد باديس في الفصل في أمر أبي الفتوح إلى أن حدث أن سكر مرة بلقين كما يقع ذلك كثيرًا مع أخيه باديس فأمر أخوه بلقين — وهو في غفوة الشراب — بإحضار أبي الفتوح وزميله المرافق له في السجن، وحين وقع عليه نظره أشبعه سبًّا شنيعًا وإيلامًا وتقريعًا، وقال له: «وهل صدقتك كواذب الطوالع أيها المنجم الخائن الكاذب، وما هي الفائدة التي عادت عليك الآن؟

ألم تَعد أميرك ذلك السافل المغرور الذي خدعته، ومنيته الأماني الكواذب المعسولة أني سأكون تحت سلطانه؟ وأنه سيظل في الحكم ثلاثين عامًا، فلماذا لم تر نحس طالعك حين بدا لك سعد طالع أميرك، حتى كان يتسنى لك أن تتفادى ما حل بك من هذه المصائب الأليمة؟ إن حياتك الآن أيها الأفاك الأثيم رهن يميني.»

فلم ينبس أبو الفتوح بكلمة لأنه ما غامر بحياته إلا طمعًا في لقاء زوجته المعبودة، وطفله وبنتيه المحبوبتين، ولأن عاطفته الملتهبة نحو أهله هي التي أكرهته على المغامرة بحياته والاستشفاع والتوسل إلى باديس واختراع الحيل والأكاذيب. أما الآن وقد صار على يقين من أن ذلك الطاغية الجبار لا محالة قاتله، فقد استعاد إليه حواسه، وتلقى زئير باديس وزمجرته بهدوء ورباطة جأش.

واستعاد إلى نفسه عزتها وكرامتها، وظهر طبعه المتين، وخلقه الرصين بالمظهر الحقيقي، فأطرق مليًّا، وشاعت على شفتيه ابتسامة مطمئنة ساخرة، وصمت صمت من يشعر بكرامة نفسه وعزتها. وقد زاد هذا الموقف الشريف الهادئ من استعار نار الغضب عند باديس فأرغى وأزبد، وكاد يتميز من الغيظ، فأسرع إلى سيفه فاستله من غمده، وأغمده في صدر ضحيته، فتلقى الضربة دون أن يبدي حراكًا أو يظهر أنينًا مما جعل باديس يصيح صيحة المتعجب من هذا الرجل، وهو يلفظ النفس الأخير، ويستقبل الموت بصمت عميق، ورباطة جأش، ونادى الجلاد أن اقطع رأسه، وارفعه على رمح عبرة لغيره، وادفن جثته إلى جانب ابن عباس كي يرقد عدوّاي كلاهما في مرقدهما الأخير جنبًا لجنب إلى أن تقوم الساعة.

والتفت إلى الجندي الأسير بعد أن فرغ من ضحيته الأولى، وقال له: «والآن جاء دورك فاقترب أيها الجندي.» فجزع البربري، واضطرب اضطرابًا شديدًا، وجعل يصيح ويستشفع، ويستغيث، وجثا على ركبتيه يستغفر باديس بكل ما في استطاعته ليبقي على حياته، ولكن باديس قال له: «هل ذهب منك الحياء أيها الشقي؟ ألم تر إلى ذلك المنجم الحكيم، كيف تلقَّى الموت — بكل ثبات — فمات كريمًا عزيزًا، لم تبدر منه كلمة تشف عن جبن، فكيف وأنت جندي قديم معدود في عداد الجند البواسل تصل إلى هذا الحد من الجبن؟ إنك إذن لا تستحق رحمة ولا هوادة.»

وضرب عنقه في (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٣٩).

ثم وريت جثة أبي الفتوح التراب كما أمر باديس إلى جانب ابن عباس وحزن لمقتله جماعة العلماء والأدباء النابهين في غرناطة وصاروا كلما مروا بقبر هذين الرجلين العظيمين يتهامسون: «لله قبر يضم رجلين حكيمين أبيا أن يقيما على الضيم والذل، فماتا كريمين رحمهما الله رحمة واسعة. والبقاء لله وحده.»

الفصل الرابع

أخذ طاغية صنهاجة وجبار غرناطة يُقوي نفوذه شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح زعيم حزبه السياسي على رأس البربر[١] ولم يكن يعترف للخلافة الحمودية بمالقة إلا بمجرد السيادة الاسمية، وقد بلغ الحموديون الغاية في الضعف حتى جعلوا لوزرائهم السلطان عليهم، وكان بعضهم يعمد إلى إهلاك بعض، إما بتجريد السلاح أو دس السم. وهم عوضًا عن أن يوجهوا نظرهم إلى أتباعهم من أمراء البربر الأقوياء فيشدوا بهم أزرهم كانوا يركنون إلى الدعة، ويرون السعادة كل السعادة في أن يظفروا بالحكم في مالقة، وطنجة، وسبتة، وإن فقدوا النفوذ في البلاد التي تخطب باسمهم على المنابر.

وكان ثمة خلاف كبير بين بلاطي غرناطة ومالقة، ففي غرناطة كان البربر وعلى رأسهم باديس ووزيره إسماعيل يعملون لصالحهم وهم على وفاق تام في الخطط ووجهات النظر، وفي مالقة كان الأمر على النقيض من ذلك، لوجود الصقالبة الذين تتنافر مصالحهم مع مصالح البربر، هذا إلى ما وقع للصقالبة أنفسهم من التحاسد والتطاحن، واستعانة بعضهم على بعض بأعدائهم من النصارى، وهذه العوامل بعينها هي التي كانت سببًا في سقوط الدولة الأموية.

وقد حدث أن الخليفة الحمودي إدريس الأول كان مريضًا في الوقت الذي جرد فيه جيوشه على جند إشبيلية، وقد أسلم الروح بعد أن وصل إليه الخبر بمقتل إسماعيل في معركة «أستيجة» بيومين، فاختلف الوزير البربري مع الوزير الصقلبي على تعيين الخليفة، فالأول يريد أن يتبوأ عرش الخلافة يحيى بن إدريس البكر، لتكون السلطة في يده وليقوم هو بالأمر، والوزير الصقلبي يعارضه في ذلك ولا يقره عليه. ولما كان هذا وزير الممتلكات الإفريقية قام بالبيعة لحسن بن يحيى ابن عم يحيى وأعد العدة ليجوز

البحر به إلى مالقة. وقد أذعن لخطة الوزير الصقلبي وزير البربر لتردده وقلة ثباته، وكان من جراء التردد والتواني في أخذ الحيطة أن أهمل التدبير اللازم للدفاع في الوقت المناسب، فرأى بغتة الأسطول الإفريقي وقد ألقى مراسيه في مياه مالقة، فعجل بالفرار مع الخليفة الذي كان يريد أخذ البيعة له.

ولما استقر حسن بعاصمة ملكه أرسل وزيره إلى وزير البربر يمنحه العفو، ويرغبه في العودة، فوثق بكلامه، وعاد ليلقى حتفه، وقد تحققت النبوءة التي كان إسماعيل اليهودي رآها في منامه، وبعد ذلك قتل المدبر لدولة حسن أيضًا وهو «نجاء» الذي ارتكب الجريمة كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، كما أن حسنًا كان جديرًا بأن يقتص منه، فقد قتل مسمومًا بيد زوجه شقيقة يحيى المسكين، ومن ذلك الحين أراد «نجاء» أن يزيد في نفوذه، فرأى أنه ليكون كملك مستأثر بالحكم يجب أن تكون السلطة في يده وحده، وأن تكون سيادة الخليفة اسمية، فعمد إلى قتل ابن حسن، وهو في ريعان الشباب، وزج بشقيق إدريس في غياهب السجن، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك عرض نفسه على البربر كخليفة، وأغراهم بالوعود البراقة ليجتذبهم إلى جانبه، ولكن البربر كانوا ينطوون على ألم ممض، وغيظ كامن في الصدور، من جراء جرأته البالغة، وطمعه في منصب الخلافة طمعًا يمس بالدين، فإنه كان يظهر للسلالة الهاشمية احترامًا مزيفًا يوقع في الريبة والشك. وعلى أثر ذلك فكر البربر في الانتقاض عليه والاقتصاص منه، وأخذوا يتربصون به الدوائر ويتحينون له الفرص، ولكي يخفوا ما انطووا عليه من البغضة وإضمار الشر، تظاهروا بإجابته إلى غرضه، وصارحوه بأنهم طوع أمره، وأقسموا له اليمين، وبايعوه على الطاعة والنصرة. ورغب «نجاء» حينئذ في انتزاع الجزيرة من محمد الخليفة الحمودي الذي كان يحكمها، وجرد عليها جيشه والتحم الفريقان، ولكن حدث في المعارك الأولى التي دارت رحاها مع العدو أن لاحظ الوزير الصقلبي أن البربر يقاتلون بتراخ، وأنه ليس في الإمكان التعويل عليهم، فرأى من الحكمة أن يصدر أمره للجنود بالارتداد، واعتزم أن ينفي عند عودته إلى العاصمة البربر الذين تحوم حولهم الشكوك والريب، وأن يجذب إليه العنصر الصقلبي بقوة المال، وأن يلف حوله من الصقالبة أكبر عدد ممكن، ولكن أعداءه الألداء من البربر عرفوا خطته، وتبينوا ما يرمي إليه، وانتهزوا فرصة مروره بالجيش وسط مضيق محصور، فانقضوا عليه وقتلوه في غرة (٥ فبراير سنة ١٠٤٣).[٢]

وعلى أثر مقتل ذلك الغاصب لم يستطع البربر أن يخفوا صيحات الفرح والسرور التي كانت تتصعد من أعماق صدورهم. ووقع الاضطراب الشديد بين الجنود، فأركن الصقالبة إلى الفرار مخافة أن يصيبهم مثل ما أصاب زعيمهم المقتول، وأسرع فارسان من القتلة إلى مالقة ينهبان الأرض على جواديهما، ولما بلغا المدينة أخذا يصيحان بأعلى صوتهما: «بشراكم، بشراكم: لقد قتل المتوثب الغاصب.»

ثم أدركا صاحب شرطة «نجاء» فأردياه قتيلًا، وعمدا إلى إدريس شقيق حسن فأخرجاه من السجن، وأقاماه خليفة، ومن ذلك الحين طويت صحيفة من تاريخ الصقالبة في مالقة، على أن السكينة التي استتبت فيها، والطمأنينة التي لابستها زمنًا لم تدم طويلًا.

لم يكن إدريس الثاني في الحقيقة قوي الدهاء كبير العقل، ولكنه كان وديع النفس، كريم الخلق، طيب القلب، خيرًا تقيًّا، يصرف جميع أوقاته في عمل البر وفعل الخير، ولو أن الأمر كان بيده وحده لما بقي في بلاده رجل واحد يئن من الفقر ويشكو الحاجة، وقد مكن المنفيين والمبعدين — مهما كانت جنسياتهم وأحزابهم — من العودة إلى أوطانهم، ورد إليهم ما أخذ من أملاكهم، وما كان يصيخ بسمعه إلى الوشايات والسعايات. وكان جوادًا سمحًا ينفق على الفقراء والمعوزين كل يوم خمس مئة دوكا، وكان — لرقة طبعه وسذاجة قلبه — يعطف على عامة الشعب، ويميل إلى التحدث إليهم، ولا يحجب جواريه عنهم، مما تنبو عنه تقاليد الملك ورسوم الخلافة.

ولما كان «الحموديون» من سلالة الرسول ﷺ فقد كان عامة الشعب يرفعونهم إلى درجة التقديس، ويرونهم في أعينهم كأنصاف آلهة. ولكي يزيدوا من عقيدة الشعب رسوخًا، ويكسبوا محبتهم، ويشعروا قلوبهم المهابة والاحترام لهم، كانوا يظهرون أمامهم في الأوقات القليلة النادرة، وقد حاطوا أنفسهم بالأسرار.

وكان إدريس — على ميله إلى البساطة والتحرر من التقاليد المرعية — يضطر إلى أن يأخذ بالقواعد التي سنها سلفه من الخلفاء، ومن ذلك أنه كان يختفي عن عيون محدثيه فلا يكلمه إنسان إلا من وراء حجاب. ولكونه مثال البساطة المجسمة كان ينسى هذا التقليد، ويغفل هذه السنة التي درج عليه سلفه، فقد حدث يومًا أن شاعرًا من «إشبونة» كان ينشده قصيده يمتدح فيه كرمه، ويشيد بطيب عنصره، وشرف أرومته، وكرم محتده، وقد جاء فيه بلهجة أهل الجهات الغربية من جزيرة الأندلس قوله:

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمودٍ أمير المؤمنين[3]
يا بني أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى في الدجى فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى وجميع الناس من ماء مهين
انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

وكان الخليفة يستمع إلى مادحه من وراء ستار، وكانت رسوم الخلافة لا تسمح بقبول رجاء هذا الشاعر، إلا أن الخليفة فعل ما لم تجر به العادة، وقال لحاجبه: «ارفع الستار.»

فكان هذا الشاعر أسعد حظًّا من عشيقة «جيوبيتر» التي ذهبت ضحية ميلها إلى رؤيته، حيث رأى ما ينبعث عن ذلك المحيا من النور الذي — وإن لم يكن سناه يذهب بالأبصار ويبهر الأنظار — فهو على الأقل يطبع في ذهن من يجتليه وينظر إليه أجمل صورة من صور السماحة والإحسان وطيب القلب، وربما كان هذا أحمد أثرًا في نفسه مما لو عاين من صورته الحسية مشرقًا من مشارق الأنوار، وشاهد تلك الصفات التي ذكرها في شعره. ومن المحقق أن الخليفة أجازه بجائزة سنية وانصرف شاكرًا مسرورًا.

ومما يؤسف له نظرًا لمركز الخلافة وأمن الدولة أن إدريس كان يضم إلى سماحة النفس وطيب القلب، وصفًا آخر هو التناهي في الضعف والمواتاة والاستسلام، ففي استطاعته أن يوافق ويسلم بكل ما يراد ويطلب منه كائنًا ما كان، فلو أن أميرًا من الأمراء الذين يستظلون بحكمه — كباديس أو غيره — طلب إليه أن ينزل له عن قصر الخلافة أو يهبه أي أمر آخر لفعل، وقد حدث أن باديس بعثه إليه ملحًّا أن يرسل وزيره ويمكنه من التنكيل به لضغينة في نفسه، فصرح إدريس لوزيره الذي يحقد عليه باديس أنه كاتبه في شأنه وطلب أن يسلمه إليه وأنه لا بد فاعل حيث لا يستطيع أن يرفض طلبه، فأذعن الوزير لحكمه ولم يشفع له عند إدريس أنه الخادم الأمين القديم لأسرته، وقال: «لك يا مولاي أن تفعل ما يريده هذا الطاغية، وعليَّ أن أستسلم لما يأتي به القضاء، وما يخبؤه لي القدر، وسترى أني ملاق حتفي غدًا وسأقابله باستسلام ورباطة جأش وقدم ثابتة.»

وقضي الأمر، ووصل وزير إدريس إلى غرناطة حضرة مملكة باديس فأمر به في الحال فضربت عنقه، وكان هذا الضعف الظاهر من إدريس مما أحفظ عليه البربر وأوغر صدورهم، كما أغضبهم من قبل لينه المفرط، وعطفه الذي كان يبديه للشعب بنزعاته الاشتراكية. بهذا تحرجت الحالة وانطوت قلوب البربر على بغض هذا الخليفة الضعيف المستسلم وكراهته، ولما كان أولئك الزنوج يطغيهم الضعف ويغريهم اللين، ولا يردعهم إلا إعمال السيف في رقابهم، وإنضاج جلودهم بالسياط، وتعليق المشانق لإزهاق أرواح مجرميهم، لم يزدهم ذلك إلا استخفافًا بالخليفة وازدراء به وجرأة عليه، ذلك الخليفة الذي لم يَصدر قط حكمٌ على أحد بالقتل في زمنه، فلا جرم إذا كان الاستياء عامًّا شاملًا، ولا غرابة في أن يحدث رئيس حصن «إيرش» ثورة في داخله، ويطلق صاحب شرطته سراح ابني عم إدريس وينادي بمحمد البكر منهما خليفة، ولا في أن يثور الزنوج الذين يؤلفون حرس قصر الخلافة بمالقة، ويهيبوا بمحمد أن يكون بينهم، على أن السواد الأعظم من أهل مالقة لم يتخلوا عن خليفتهم في ساعة الخطر المحدق والبلاء الداهم، إذ كانت قلوبهم تفيض حبًّا وعطفًا على خليفتهم الخيِّر المحسن، فسارعوا إلى نجدته، وطلبوا أن تخرج لهم الأسلحة من دار السلاح، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا ولو أنهم كانوا متقلدي السلاح في ذلك الوقت لم يبق من الزنوج الثائرين أحد في القصر، وقد أبى إدريس أن يمكنهم من السلاح حقنًا للدماء وإطفاء للنائرة وشكر لهم هذه العاطفة، وخاطبهم بقوله: «عودوا إلى دوركم فإني لا أرغب في أن يسفك دم من أجلي.»

وبهذا لم تقم أية عقبة في سبيل إقامة محمد خليفة مكان إدريس الذي حل محله في حصن «إيرش»، وبهذا تبادل كل منهما مكان الآخر (١٠٤٦–١٠٤٧).

ولم يكن الخليفة الجديد على شاكلة سلفه، بل نزع لأمه، وهي حسناء باسلة، يطيب لها العيش في الخلاء حيث تشاهد عن كثب الاستعداد للقتال، وإدارة المعارك الدموية، وضرب الحصار على الحصون المنيعة، وحيث تنثر على الجند من درر كلامها، وصرر نقودها ما يلهبهم حماسة وشجاعة ونجدة، وقد بلغ محمد في البسالة والإقدام شأوًا بعيدًا، وكان مع هذا قاسيًا غليظ القلب سفاكًا للدماء، وإذا كانت القوة قد أعوزت إدريس فإن محمدًا (على رأي محدثي الثورة) كان له من البأس والقوة أوفر نصيب، وقد كان مثله في ذلك مثل الضفدعة التي طلبت من «جيوبيتر» أن يقيمها ملكة على مملكة الضفادع، وعالم الضفادع هذا كما أسماه «لافونتين» هو جماعة البربر والعبيد، أولئك الذين لم يلبثوا إلا قليلًا حتى حنقوا على الخليفة الرهيب، وحملوا له الإحن في صدروهم، وندموا على سلفه الوادع المسالم الذي كان وجوده كلا وجود.

وسرعان ما دبرت مؤامرة، وشرع مدبروها يتفاوضون مع رئيس حصن «إيرش» الذي سارع إلى الانضمام إليهم بسهولة فأخرجوا إدريس الثاني من السجن، ونادوا به خليفة.

وفي هذه الآونة لم يحجم إدريس عن إثارة حرب أهلية؛ لأن ما عاناه في سجنه ذهب بما كان في نفسه من نزعات شريفة، واتفق أن محمدًا — وقد ألهبته أمه حمية وحماسة — قاتل خصومه ببسالة وشدة حتى ظفر بهم وألجأهم إلى وضع السلاح، ومع هذا لم يسلموا إدريس لخصمه، بل أرسلوه لإفريقية، وتولى الأمر هناك اثنان من البربر، وهما: صاحب شرطة سبتة،[٤] وصاحب شرطة طنجة فقابلاه بحفاوة وإكرام بالغين، وأخذا له في البيعة وخطبا باسمه على المنابر، على أن ذينك الرجلين استأثرا دونه بالسلطة الحقيقية، وكانا لحرصهما على الاستئثار بالسلطة والنفوذ يراقبانه عن كثب، ويحولان دون ظهوره للجمهور، واقترابه من الشعب، وقد تمكن بعض مضمري العداوة لهما من أمراء البربر أن يقولوا للخليفة: إن هذين المملوكين اعتقلاك في القصر وحالا دون أن تتولى الحكم بنفسك، فخولنا السلطة ونحن نخلصك منهما، ولكن إدريس — لوداعته — رفض اقتراحهم، وأفضى بما دار بينه وبينهم من الحديث إلى وزيريه، فصدر أمرهما في الحال بإبعاد أولئك الأمراء.

وخشي الرجلان القائمان بإفريقية أن يصغي إدريس لما يدس إليه مرة ثانية من الوشايات والدسائس فأوعزا إليه أن يرحل إلى الأندلس فجاز البحر إليها، واستقر عند صاحب رندة[٥] على أنهما لم يزالا يعترفان به كخليفة ويقران الخطبة باسمه على المنابر.

وفي هذه الأثناء طلب المتذمرون في مالقة من باديس أن ينضم لمساعدتهم، فقام وأعلن الحرب بادئ ذي بدء على محمد ثم أبرم معه صلحًا، ثم بايعوا أمير الجزيرة الخضراء، واسمه محمد أيضًا، ونادوا به خليفة، وكان الخلفاء بالأندلس إلى هذا العهد أربعة، وهم: الخليفة المزعوم المشبه بهشام في إشبيلية، ومحمد في مالقة، ومحمد صاحب الجزيرة، ثم إدريس الثاني المستقر في رندة.

ولم يكن لاثنين منهما في الحقيقة شيء من النفوذ والسلطان، أما الآخران فكانا أميرين صغيرين لا خطر لهما، ولا يستحقان أن يحملا لقب الخلافة ولا أن يتسمى كل واحد منهما بأمير المؤمنين.

أما أمير الجزيرة فقد فشل في هذه المحاولة، وانفض من حوله الداعون له باسم الخلافة، فعجل بالعودة إلى بلاده، ومات بعد أيام قلائل أسى وخجلًا (١٠٤٨–١٠٤٩).

وبعد أربع أو خمس سنوات توفي محمد الخليفة القائم بمالقة، وتطلع إدريس الثالث أحد أبناء أخيه إلى منصب الخلافة، ولكنه لم ينجح هذه المرة، وأقيم إدريس الثاني خليفة، وشاءت الأقدار أن تسالمه فبقي في هدوء وطمأنينة إلى أن قضى نحبه سنة (١٠٥٥).

وأراد حمودي آخر أن يخلفه في الحكم فناوأه باديس وقضى على آماله.

ولما كان باديس صاحب غرناطة هو الرئيس الحقيقي للبربر، فقد كره أن يرى أمامه خليفة تستظل بلاده بحكمه، ومن ذلك الحين عقد النية على أن يقضي على الحموديين، وأن يدمج مالقة[٦] وأعمالها ضمن ولاياته، وقد أمضى عزيمته هذه، وأنفذ مشروعه دون أن يصادف عوائق كبيرة.

إلا أن العرب لم يكونوا ليذعنوا لسلطانه إلا على كره منهم لذلك، ولما كان قد كسب إلى جانبه أمثال الوزير أبي عبد الله الجذامي لم يحفل بالباقين، أما البربر فكانوا مقتنعين بضعف أمرائهم، وبأن الضرورة تقضي عليهم بأن ينضموا إلى إخوانهم من بربر غرناطة، ليتقووا بهم، ويستطيعوا أن يواجهوا الحزب العربي الذي يزداد كل يوم قوة وتوسعًا في الجانب الغربي الجنوبي، لهذا كله ناصروا باديس وأيدوا خططه ومشروعاته ولم يعارضوها، وأصبح باديس بفضل عون البربر والتفافهم حوله ملكًا على غرناطة ومالقة وما يتبعهما من أعمال،[٧] وتمكن من نفي الحموديين والقضاء عليهم، وهم وإن كانوا قد لعبوا دورًا آخر في إفريقية إلا أن دورهم الذي مثلوه في الأندلس كان قد انتهى.

الفصل الخامس

لكيلا نقطع تسلسل الحوادث في هذه العجالة اليسيرة عن تاريخ مالقة اضطررنا لأن نلم بالحوادث إلمامة يسيرة، ولما كنا سنلقي نظرة على التقدم الذي أحدثه الحزب العربي في غضون هذه المدة، فمن واجبنا أن نعود إلى بعض حوادث السنين الماضية.

لما توفي أبو القاسم محمد قاضي إشبيلية في أواخر يناير سنة ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ولقب حينئذ بالحاجب أي الوزير الأول لهشام الثاني، واشتهر بعد ذلك في التاريخ باسم المعتضد، ولو أن هذا الاسم لم يطلق عليه إلا بعد فترة من الزمن، فإنا سنطلقه عليه الآن تفاديًا مما عساه أن يقع في اللبس عند تغييره.

إن هذا الزعيم الجديد للحزب العربي في الجنوب الغربي من الجزيرة، قد حقق بشخصيته القوية الفتية لهيئة من الهيئات الحزبية القوية ما لم تحققه الشيخوخة اللدنة الضعيفة، فقد كان في كل الشئون المنافس الجدير لخصمه باديس زعيم الشعبة البربرية المعارضة.

كان هذا الزعيم الجديد كمنافسه كثير الشكوك حقودًا غادرًا لئيمًا ظلومًا جبارًا قاسيًا سفاكًا للدماء، وكان مدمنًا للخمر مثله، إلا أنه قد بزه في الخبث والدعارة، وكان ثائر الطبيعة جامح الشهوة، يواصل اللذات ولا ينقطع عن الشهوات، حتى إنه لم يجتمع في قصر ملك من الملوك ما اجتمع في قصره من الحظيات والسراري. يقال إنه دخل قصره — على التتابع — ثمان مئة من الشواب والصبايا الحسان.

وبالرغم من التوافق بين هذين الملكين في كثير من النزعات الشريرة والشهوية، فإن أخلاقهما وميولهما وعاداتهما لم تكن متوافقة في نواح كثيرة.

فأمير البربر كان من البربر أو أقرب إلى خشونة البربر منه إلى شيء آخر، ساخرًا من آداب اللياقة، بعيدًا عن الحصافة والثقافة، لا يعنى بأساليب الحضارة، ولا يترك لها عادات البداوة، ولم يكن الشعراء لتطأ أقدامهم أبهاء الحمراء ليمتدحوا بالشعر العربي ملكًا لا يعرف غير رطانة البربر.

أما المعتضد فقد كان على النقيض من ذلك، قد أخذ بطرف مناسب من الثقافة والتعليم الحسن، ولم يكن — في الحقيقة — قد توسع في العلوم حتى يكون جديرًا في زعمه أن يوضع في مصاف العلماء ويستحق لقب عالم، ولكنه أوتي من المواهب، ودقة الشعور، ولطف الإحساس، وسلامة الذوق، وحدة الذكاء، وقوة الذاكرة، ما جعله يعلم ما لا يعلمه رجل عادي.

وشعره الذي نظمه قصائد ومقطعات له قيمته إذا أريد الوقوف على كنه أخلاقه، بغض النظر عن قيمته اللغوية والأدبية، على أن هذا الشعر قد أكسبه بين مواطنيه مكانة شاعر مجيد[١] وكان محبًّا للأدب شغوفًا بالفنون أريحيًّا جوادًا يغمر الشعراء بالعطاء الكثير، على المديح القليل، له ولع شديد بتشييد القصور الفخمة، وكانت أساليبه في الظلم مقرونة بشيء من المهارة، ينهج في ذلك منهج خليفة بغداد الذي انتحل لنفسه لقبه، واختط في أحكامه خطته، بينما كان باديس لا يعرف من أمر هذا الخليفة شيئًا بل ربما كان يجهل العصر الذي كان فيه.

وكلا الملكين كان مولعًا بشرب الخمر كما عرفت إلا أن باديس — لخشونته وجفاء طبعه — كانت تتمثل في مجلس شرابه الوحشية والجفاء، وكان لبربريته الجافية لا يمنعه الخجل أن يسف في شرابه إسفافًا معيبًا.

أما المعتضد وهو ذلك الرجل المثقف المهذب، والإنسان الرقيق الحاشية، والملك العظيم الشأن، فما كان يقدم على هذا الأمر إلا بشيء من الرقة والدعة واللطف، وكان لما يمتاز به من الذوق ولطف الإحساس وقوة التمييز، لا يخلو مجلس شرابه من شروط اللياقة، وجمال الذوق، وحسن التنسيق، وكان يتعاطى الخمر بطريقة غير معتدلة، وكان هو وندماؤه ينشئون في امتداح هذه النقيصة الخمريات البديعة التي تكون آية في لطف الشعور، وجمال الذوق ودقة التعبير، وقد ساعدته قوته الجسمانية على مواصلة أعمال الدولة والقيام بأعباء الملك مع إدمانه الشراب، وانكبابه على الشهوات واللذات، وقد كان من آيات نشاطه للعمل، وانصرافه لمهام الدولة، أن يكف عن شهواته في الأوقات التي يتطلبها العمل، فيعنى بمهام دولته كملك، ويبذل في ذلك جهد الطاقة ليوفر من أوقات العمل وقتًا للهو والراحة واستجمام القوى يعود فيه إلى شرابه، ويلهو فيه بلذاته.

ومن الغريب أن هذا القاسي الجبار — مع ما كان يلقيه في قلوب حرمه وجواريه الحسان من الفزع والرعب بنظراته المفزعة المروعة — كان ينظم فيمن يقع في حبالتهن من أولئك الغيد الحسان أشعارًا تجمع إلى الرقة والسلاسة اللذة والمتعة.

فبين باديس إذن وبين المعتضد من البون الشاسع في الفساد ما يفصل بين الفاسد المتبربر الخشن، والفاسد المتحضر الظريف، ولكن مما يجب الاعتراف به هنا أن البربري كان أقل من زميله فسادًا وخبث نفس، فقد كان باديس في جرائمه وشناعاته على جانب من النزاهة والصراحة، بينا عينه المتفرسة الباحثة تتحسس الأفكار الخفية في نفس غيره وتتبحثها لتكشف عن مكنوناتها، دون أن يظهر ذلك في معارف وجهه، أو نبرات صوته.

ولم يمت ملك غرناطة في فراشه بل طاح في ساحة القتال، أما ملك إشبيلية فقد كان — على خوضه غمار كثير من المعارك والحروب — دونه شجاعة وبسالة، لأنه لم يتول بنفسه قيادة الجيش في هذه الحروب سوى مرة أو مرتين في حياته، وكان من دأبه أن يضع الخطط الحربية للمعارك، ويدع تنفيذها لقواده، وهو منزو في خبائه بعيدًا عن خطوط القتال، كما روى ذلك بعض مؤرخي العرب.

وكانت حيل باديس في النكاية بأعدائه جافة سقيمة،[٢] مما يجعل إحباطها بسرعة ميسورًا وسهلًا، أما حيل المعتضد فكانت دقيقة لينة يمس المخدوع منها في لينها ما يمس من ظهر الحية الرقطاء تحت أنيابها السم ناقع، ولهذا كان يندر فشلها، ويصعب إحباطها، وجانب الدهاء وسعة الحيلة من الجوانب القوية في المعتضد، ويروون في هذا الصدد حكاية يجدر بنا إيرادها، وذلك أنه حدث في الموقعة التي أوقعها المعتضد ضد بربر قرمونة أنه كان يتبادل مع رجل من عرب هذه المدينة رسائل سرية يقفه فيها على حركات وخطط البربر، ولكيلا تضبط هذه الرسائل، ولا يرتاب فيها أحد، كان مضطرًّا لأن يتخذ كثيرًا من الحيطة والحذر.

ولكي يصل إلى غرضه من تبادل الرسائل مع جاسوسه، كان قد اتفق معه على خطة معينة، وبناء على تلك الخطة أشخص إلى قصره رجلًا ساذجًا طيب القلب من بدو إشبيلية ولما مثل بين يديه قال له: «اخلع رداءك هذا الخلق، والبس هذه الجبة الثمينة الجميلة التي أتركها لك هدية إذا قمت بتنفيذ ما آمرك به.» فارتدى الرجل الجبة وهو يفيض بشرًا وسرورًا، ولم يدر أن في بطانة جيبها قد خيطت رسالة من المعتضد إلى عينه بقرمونة، وأظهر الرجل استعداده لأن يؤدي بدقة وأمانة كل الأوامر التي يكلفه بعملها،

فاستحسن المعتضد منه ذلك وقال: «أصخ بسمعك إذن لما آمرك به: عليك أن ترحل من الآن إلى قرمونة، فإذا حللت بسيطها وكنت بظاهرها، فلا تدخلها إلا بعد أن تجمع من الحطب حزمة تدخل بها المدينة وتعرضها في السوق مع باعة الحطب، ولكن عليك ألا تبيعها إلا لمن ينقدك في ثمنها خمسة دراهم.» ومع جهل الرجل سر هذه الأوامر الغريبة بادر إلى الطاعة، وغادر إشبيلية، ولما كان على مقربة من قرمونة أخذ يحتطب، ولم يكن ذلك من عادته، وقد يجمع المحتطب المتعود مقدارًا كبيرًا يستطيع جمعه، إلا أن هناك فرقًا بين حزمة صغيرة وأخرى كبيرة.

دخل الرجل المدينة يحمل مما جمعه من فروع الأشجار تلك الحزمة الصغيرة ليبيعها في السوق، فوقف على حزمته تلك أحد المارة وسأله: «كم ثمن هذه الحزمة؟»

فأجابه البدوي: «ثمنها خمسة دراهم كاملة غير منقوصة، فإن شئت دفعت الثمن وأخذتها، وإن شئت تركتها» فأغرب الرجل في الضحك وقال له: «عجبًا، لعلك لا تشك في أن حزمتك هذه من خشب الآبنوس.»

وجاء آخر، فقال: «لا، بل هي من العود الهندي الذكي الرائحة.»

وهكذا أخذ كل من وقف على سلعته الحقيرة وعرف ما يطلبه ثمنًا لها يمزح معه هازئًا به ساخرًا منه.

وبقي على حاله تلك في السوق إلى أن مال ميزان النهار، وآذنت الشمس بالمغيب، فدنا منه حينئذ عين المعتضد يتظاهر بشراء حزمة الحطب، واتفق معه على أن ينقده ثمنها إذا قبل أن يتبعه بها إلى منزله، يحملها على كاهله، فتبعه الرجل إلى منزله حتى وضعها هناك، ولما أخذ الدراهم الخمسة، قام يتأهب للعودة، فقال له صاحب الدار: «لقد أمسيت فإلى أين تذهب الساعة؟»

فأجابه: «إني رجل غريب، ولست من أهل المدينة، ولا بد لي من العودة إلى إشبيلية.» فقال له: «وهل ترى ذلك ممكنًا الليلة، وهل تأمن عادية اللصوص في الطريق؟ انزل هنا على الرحب والسعة، وسأقدم لك طعام العشاء. ويمكنك أن تبكر بالسفر غدوة إلى حيث تريد.» فقبل منه الرجل ما اقترحه عليه، وقابل تلك الحفاوة البالغة بالشكر والثناء، وأنساه كرم الضيافة، وطيب الأكل ما لقيه بالنهار من سفه وسخرية، وبعد أن تناول طعام العشاء، وفرغ من تلك الأكلة الشهية، أخذ يسمر مع مضيفه إلى هزيع من الليل، حيث دار بينهما هذا الحوار.

– الآن أيها الضيف الكريم، خبرني من أي البلاد قدمت وما موطنك؟

– قدمت من بسيط إشبيلية حيث المزارع، وحيث موطني الذي أقيم فيه هناك.

– إني أرى أنك — أيها الأخ — شجاع مقدام جريء لأنك استطعت أن تخاطر بنفسك وتصل إلى هنا، وأنا أعلم مبلغ ما وصل إليه البربر من القسوة والوحشية، هم بلا شك يسرعون إلى قتلك، ويرون ذلك أمرًا سهلًا ولا بد أن يكون هناك من الأسباب القوية ما حملك على المجيء هنا، والتعرض لأخطار الطريق.

– ليس هناك من الأسباب القوية ما حفزني على المجيء، ولست أظن أن أحدًا من الناس بالغًا من القسوة ما بلغ يتعرض لرجل أعزل مثلي في الطريق أو يصيبه بأذى.

وما زالا يتحدثان إلى أن أثقل الكرى جفن الضيف، فأخذه المضيف إلى حيث المكان الذي أعده لنومه، وهم الفلاح أن ينام دون أن يخلع جبته، فقال له القرموني: «يحسن أن تخلع جبتك كي تنام مطمئنًّا، وتستيقظ مستريحًا، لأن هذه الليلة دافئة حسنة الطقس كما ترى.»

فعمل الفلاح بإشارته، وسرعان ما استغرق في نوم عميق، ولما أيقن أنه لا يشعر بحركته تناول جبته وحل بطانتها، وفيها رسالة المعتضد فأخذها وقرأها، وكتب جواب الرسالة سريعًا، ووضعه في نفس المكان وخاطه كما كان.

واستيقظ الفلاح في صبيحة تلك الليلة مبكرًا، وبعد أن ودع مضيفه وشكر له كرمه وحسن ضيافته عاد أدراجه راحلًا إلى إشبيلية، ولما ألقى بها عصا التسيار استأذن على المعتضد ومثل بين يديه، وقص عليه نبأ رحلته فغمره بلطفه، وجميل رعايته، وقال: «إني من عملك هذا لمسرور، وأرى أنك تستحق عليه جائزة سنية.» وأمر أن يلقي ما عليه من وعثاء السفر، وأن يخلع جبته هذه، ويكسى عوضها حلة كاملة، فأحس من أعماق نفسه بسرور وارتياح، وأخذ الثياب الجديدة وترك جبته التي هي محور الرواية، وخرج من القصر مزهوًّا يروي ما وقع له مع الملك لأهله وجيرانه ومعارفه، ويذكر لهم ما اختصه به الملك من عطف وصلة ما أجازه به من كسوة ملكية من كسى التشريف التي لا تمنح إلا لرجال الدولة وذوي الشأن وأرباب المناصب، ولم يقف على سبب هذا العطف الملكي، ولم يدر أنه استخدم من حيث لا يشعر جاسوسًا وبريدًا من برد الحرب يحمل إلى بلاد الأعداء رسالة فيها أنباء خطيرة كانت تودي بحياته لو أن البربر عثروا عليها، ولكنه لم تحم حوله أية ريبة.

كان المعتضد عظيم الدهاء واسع الحيلة، في كل ما يدخل في باب الحيل والخدع السياسية، وفي متناول يده الأشراك والفخاخ التي ينصبها لاقتناص من يريد الإيقاع به،

والويل لمن يثير كامن غضبه، ولو أن إنسانًا أحفظه ومضى سريعًا ليختفي في الجانب الشرقي من المعمور لأدركه انتقام هذا الملك، ويقال إنه استصفى أموال رجل مكفوف البصر، وأخذ معظمها، ونفد ما بقي منها في يد الرجل فخرج إلى مكة حاجًّا يتكفف الناس، وهناك في الحرم أخذ يدعو على ذلك الملك الظالم ويسبه ويلعنه حيث أفضى به ظلمه إلى ذل المسألة وذل الاغتراب. فاتصل بالمعتضد خبره وأنه يدعو عليه ويشهِّر به، فاستدعى رجلًا إشبيليًّا من رعيته كان قد أزمع الرحلة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وأحضر علبة فيها دنانير مسمومة، وقال له: «إذا وصلت إلى مكة ورأيت الإشبيلي الضرير، فصله بهذه العطية وأقرئه مني السلام واحذر أن تفتحها.» فصدع الرجل بالأمر، ولما وصل إلى مكة تفقد الضرير حتى عرفه، وأعطاه العلبة، وقال: «هذه هدية المعتضد إليك.» فسمع وسوسة ما بداخلها من الدنانير فطار لبه، وقال: «يا عجبًا! كيف يفقرني المعتضد بإشبيلية أمس، ويغنيني بالحجاز اليوم؟»

فأجابه الرجل: «لعله تذكر ما تحيفك به من الظلم، فضميره الآن يخزه ويؤنبه، وعلى كل حال فإنما أنا رسول ومبلغ وقد قمت بما عهد به إليَّ خير قيام، ومن حقك وحسن حظك أن تقبل هذه الهدية الثمينة التي لم تكن تحلم بها، والتي فيها غناك وسعادتك.»

فاقتنع الضرير وبالغ في شكره، وحمَّله شكره وولاءه للملك إذا هو عاد إلى إشبيلية، ثم أخذ العلبة ووضعها بين ذراعه وخاصرته، وخف مسرعًا إلى كوخه يهرول بقدر ما تسمح به حالة مكفوف ضرير، ودخل كوخه ذلك الحقير وهو بين مصدق ومكذب، وأحكم إرتاج الباب، وفتح العلبة وأفرغ منها كومة ذهب من دنانير، ولا تسل عن ذلك الأعمى وقد طفح قلبه بشرًا وسرورًا، حين وجد الفرصة السعيدة تواتيه بالثروة والغنى فجأة، بعد أن عاكسه الدهر، وعانى من الفقر الأمرين، أخذ يقلب بين يديه تلك الدنانير البرَّاقة، ولو أن عينيه لم تكونا مقفلتين بحكم العمى لشعر بتمام اللذة، على أن حاستي اللمس والسمع قد عوضتا عليه ما فاته من تلك المتعة واللذة، فقد كان يقبض تلك الدنانير بأصابعه ويملأ بها راحتيه، ويتحسسها بأنامله، ويتسمع رنينها بأذنه، ويلهو بعدها المرة بعد المرة، وقد غمرته اللذة، وعمه السرور، وذهبت به الأماني والأحلام كل مذهب، إلى أن فعل السم به فعله، وسرى في جسمه سريان الحمى في المحموم، ولم يرخ الليل سدوله على هذا المسكين الذي أوقعه القضاء في حبالة المعتضد حتى أمسى بفعل السم جثة هامدة.

إذن فباديس والمعتضد كلاهما قاسٍ شديد البأس، وإن كانت قسوتهما ترى بألوان مختلفة، فباديس في ثورة غضبه يقتل بيده ضحاياه، والمعتضد في أحوال نادرة يتعدى على وظيفة جلاده، وتحت تأثير غضبه وحنقه الشديدين اللذين بز فيهما صاحبه يسمح ليديه الأرستقراطيتين على كره منه أن تتلطخا بالدم، أما باديس فلم يكن يتطلب لشفاء نفسه أزيد من انغماس يده في دم عدوه، ومن دأبه بعد ذلك أن يعلق رأس القتيل على رمح ليطاف به في المدينة، وبهذا تبرد غلته، وأمير إشبيلية على عكسه فإن غضبه من عدوه لا يشفيه مجرد القتل، فهو يتتبعه إلى ما بعد الموت، وما كان يتوقف لحظة عن إثارة أشلاء قتلاه وإخراجها من عيابها وصناديقها المقفلة إرضاءً لنزعاته الوحشية.

وكان يضع — أسوة بالخليفة المهدي[٣] — جماجم أعدائه على نصب من الخشب إلى جانب الأزهار بحديقة في قصره، ويعلق في أذن كل جمجمة بطاقة يكتب عليها اسم صاحبها، وكانت تلك الحديقة المثمرة برءوس القتلى، تبعث في نفسه السرور والانشراح كلما رآها أمامه، وكثيرًا ما كان يصرح بذلك في أقواله، على أنه لم يكن بين تلك الرءوس التي هي قرة عينيه رءوس من فتك بهم من أعدائه الأمراء، لأنه كان يحفظ رءوس أولئك في صناديق مقفلة قد أودعها في مكان بعيد من القصر.

ونقول: «إن مما يبعث على الدهشة أن ذلك المارد الوحشي القاسي كان يعتبر نفسه الأمير الخير بين الأمراء، ويرى أنه مثل «طيطوس» الذي كوِّن تكوينًا خاصًّا ليكون على يديه سعادة الجنس البشري، وكان مما يقوله في شعره هذه العبارات:

> إن إرادة مولاي القدير لو اقتضت أن يمتد سلطاني على جميع الأحزاب المختلفة من العرب والبربر والصقالبة لخيمت السعادة على ربوع الأندلس، وإن مما يقوي عندي الأمل في سعادة الناس وعزهم وطمأنينتهم، أني لا أزال أسلك معهم سبيل الجادة، وأني لم أنحرف قط عن الصراط السوي، وما عاملت أحدًا من رعاياي إلا بما يوجبه علي كرم عنصري وشرف نفسي وعلو همتي، من رعاية العدل وحب الإنصاف، ولست أنفك أدفع عنهم شر المعتدين، وغائلة المفسدين، وأزيل أسباب المصائب التي تنزل بساحتهم، وتنصب فوق رءوسهم.»

الفصل السادس

بعد أن قضى المعتضد على حياة «حبيب» وزير أبيه ومشاوره في الحكم، وأصبح منفردًا وحده لا منازع له ولا مشاور، وجه عسكره إلى البربر، وبدأ بجيرانه بربر قرمونة وكانت تعتاده هواجس نفسية، ويجسم عنده الوهم أنه إذا لم يكن على قدم الاستعداد والأهبة لمباغتة أعدائه والقضاء عليهم، فإنهم — بلا شك — قد عقدوا النية، ووطنوا أنفسهم على الإيقاع به، وانتزاع المملكة منه ومن عقبه، وكان بعض المنجمين قد تنبأ بأن جيلًا من الناس سيولد خارج مملكته يكون على يده انتزاعها من أيدي بني عباد، وهذه الظنون التي كانت تذهب به كل مذهب ما برحت تجعله يحاول أن يوقع بالبربر كلما أمكنته الفرصة ليبيد خضراءهم، ويستأصل جرثومتهم، وقد استمرت هذه الوقائع والحروب مدة طويلة قتل خلالها محمد أمير قرمونة، حيث خدع واجتذب إلى كمين وقع فيه (١٠٤٢–١٠٤٣) وكان من نتائجها اتساع المملكة في الجهة الغربية.

وفي سنة (١٠٤٤) قهر ابن طيفور[١] واستولى على «مرتولة»[٢] ثم هاجم بعده ابن يحيى أمير «لبلة» ولم يكن هذا الأخير من البربر بل كان عربيًّا، وما دام المعتضد يريد أن تتسع رقعة مملكته، فليس يقفه عن قصده أي شيء، ولما ضيق الخناق على ابن يحيى[٣] استنجد بالمظفر صاحب بطليوس فتقدم لمعونته فصده المعتضد فلجأ إلى بربر غرناطة وأنشأ يؤلف ضد المعتضد حلفًا قويًّا انضم إليه باديس ومحمد أمير مالقة ومحمد أمير الجزيرة الخضراء، وحدث على أثر ذلك أن أبا الوليد بن جهور الذي خلف أباه كرئيس لجمهورية قرطبة سنة (١٠٤٣) بذل كل ما في وسعه للتوفيق والصلح بين الفريقين فلم يفلح، وذهب سعيه عبثًا، ولم يستمع لرسله الذين أرسلهم لإصلاح ذات البين أحد.

وأعد الحلفاء من البربر خطة الزحف على إشبيلية ريثما يجمعون شتات جيوشهم ويتصل بعضهم ببعض، وعرف المعتضد ذلك فانتهز فرصة وجود المظفر في منطقة

نفوذه بعيدًا عن حلفائه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه وبلاده، فعمد — أول الأمر — إلى تخريب كورة بطليوس ثم سار مخالفًا عادته على رأس جيشه، وزحف على «لبلة» وهجم أعداءه في مضيق على مقربة من أبواب المدينة، ورد فريقًا منهم إلى «الأحمر»، ولكن المظفر وفق لجمع رجاله، وحمل بهم حملة صادقة اضطرت المعتضد أن يتقهقر نحو إشبيلية، وتمكن المظفر حينئذ أن ينضم إلى حلفائه.

ولكن بينما هو يوقع التخريب في البلاد التابعة لإشبيلية خرج ابن يحيى من حلف هؤلاء، وانضم إلى المعتضد ودخل في حلفه — على كره منه — وقد عاقبه المظفر بالاستيلاء على أمواله التي كانت مودعة عنده، وأعمل السلب والنهب في كورة «لبلة»[٤] فاستصرخ ابن يحيى بالمعتضد إشفاقًا على بلاده من التخريب والتدمير، فعمد هذا إلى إرسال جنوده لمقاتلة جند بطليوس، فاستدرجوهم إلى كمين وتمت الهزيمة على عسكر بطليوس، فاضطروا إلى التقهقر، ولم يقتنع بهذا الانتصار بل عمد إلى تخريب جهات «يابره» بواسطة ابنه إسماعيل، ولكن أمير بطليوس أمر أن يتقلد السلاح كل من يستطيع القتال من الرعية، وبذلك تمكن من صد هجمات جيوش إشبيلية، ولما اتصلت به الإمدادات من إسحاق أمير قرمونة سير رجاله لمنازلة العدو، وعبثًا حاول بربر قرمونة أن يقنعوه بالعدول عن عزمه الذي صمم عليه بدافع الغرور والجهل بقوة عدوه، ومما قالوه له: «إنك — بلا شك — لا تقدر جيش إشبيلية قدره، وتجهل وفرة عدده، ونحن أعرف منك بذلك، فقد وصلت إلينا أنباؤه فضلًا عن أننا رأيناه رأي العين، ووقفنا على ما فيه من عدد وعدة.» ولكن تحمس المظفر وحدة طبعه أبيا عليه أن يعمل بمشورة ناصحيه، أو يصدق لهم قولًا، ومضى في سبيله بدافع الجرأة التي كلفته ثمنًا باهظًا، فقد حلَّت به الهزيمة وتقهقر تاركًا ثلاثة آلاف قتيل على أقل تقدير، وكان من بين من قتل في هذه المعركة ابن أمير قرمونة الذي كان يتولى قيادة جيش أبيه، وقد حملت رأسه إلى المعتضد، فوضعها في صندوق مع رأس جد هذا الأمير الشاب.

بعد هذه المعركة المشئومة ظهرت بطليوس مدة طويلة في مظهر مزعج، ومنظر مخيف، تستوحش منه النفس، وينقبض له الصدر، إذ دامت حوانيتها مقفلة، وأسواقها مقفرة، بعد أن قتل في هذه المعركة المستأصلة صفوة أهلها، ومما زاد الحالة سوءًا وبلاء أن الإشبيليين إبان المعركة أتلفوا المزارع ودمروا الحصاد، فأناخت المجاعة بكلكلها على أنحاء المملكة، ولم يستطع المظفر عمل شيء بإزاء هذه الكارثة المجتاحة، وتخلى عنه

حلفاؤه بعد أن حاول عبثًا أن يستعين بهم على تخفيف هذه النازلة التي حلت ببلاده، وظل ساكنًا ببطليوس يحرق الأرم، وتتآكل نفسه غيظًا وندمًا.

ومع ما هو واقع فيه من سوء الحالة وتحرجها لم يشأ أن ينزل عن عزة نفسه وإبائها، ويقبل صلحًا شريفًا بواسطة ابن جهور، بينا عدوه الظافر قد أظهر تمام الاستعداد لقبول هذا الصلح.

ولم يكتف بهذا بل تظاهر أنه غير مكترث لما أصابه من خسارة، ولحق ببلاده من أزمة ومجاعة، وبدافع هذا التظاهر الكاذب أرسل إلى قرطبة في طلب قينات — وكن في ذلك الحين نادرات — وبعد عناء البحث اشتريت له اثنتان لم تكونا على جانب من الحسن والبراعة في الغناء. ودهش الناس لركون المظفر إلى اللهو والخلاعة، وهو المعروف بالجد والوقار، والبعد عن العبث وسماع القينات، ولم يدرك القوم كيف أنه يركن إلى اللهو في هذا الوقت الذي تظهر فيه بلاده بمظهر الخراب والاضمحلال، ولكنهم أدركوا السر في هذا السلوك الغامض حين علموا أن المظفر يريد أن يظهر لخصمه أنه في الوقت الذي يستطيع فيه أن يبيع أشياء مملوكة له، كذلك يستطيع — وهو مرتاح الخاطر — أن يشتري مغنيات يلهو بهن.

وبالرغم من هذا كله فقد واصل ابن جهور جهوده للتوفيق بين الخصمين وإبرام صلح شريف عاجل بينهما، وفي شهر يوليو سنة ١٠٥١ كللت جهوده بالنجاح، وتم بوساطته — بعد مفاوضات طويلة — عقد صلح بين المظفر والمعتضد.

وحينئذ وجه المعتضد جميع قواته إلى ابن يحيى أمير «لبلة» الذي انفصل عن حلفائه وعاد وحيدًا دونهم، ولم تكن هذه الحملة حربًا، بل كانت بمثابة نزهة حربية، ولم يحاول «ابن يحيى» — لضعفه عن المقاومة — أن يدافع حتى عن نفسه، بل تحول إلى قرطبة، وعول على أن يقضي بها سائر أيام حياته، وقد عطف عليه المعتضد وأرسل ثلة من فرسانه كحرس له في الطريق.

وأدرك الأمير الذي كان باسطًا حكمه على «ولبة» وعلى جزيرة «سالطس»[٥] الصغيرة، وهو أبو عبيد عبد العزيز البكري صاحب كتاب المسالك والممالك أنه قد حان وقته، وجاء دوره، ومع هذا فقد كان يؤمل أن ينقذ من الغرق ما يمكن إنقاذه، فكتب يهنئ المعتضد بانتصاره الجديد، ويطلب إليه أن يدخل في حلفه، ويكون تبعًا له، وأن يتنازل له عن «ولبة» في مقابل أن يترك له «سالطس» ويشرح العلاقات الودية التي كانت بين أسرته وبين أسرة آل عباد، فقبل المعتضد ما تقدم به إليه، وتظاهر بأنه يريد مقابلته، والإفضاء

إليه بحديث هام فسافر إلى «ولبة»، ولكن عبد العزيز رأى من الحكمة وصواب الرأي ألا يكون في انتظاره وأن يتحول عنها إلى «سالطس»، وجاء المعتضد فوضع يده على «ولبة» وقفل عائدًا إلى إشبيلية، وترك هناك ثقة من رجاله ليحول دون أن يبرح عبد العزيز جزيرته، أو ينتقل أحد إليه.

ولما عرف عبد العزيز ما وصلت إليه حاله لاذ بالحكمة، وشرع يفاوض عامل المعتضد على «ولبة» يطلب السماح له بالسفر إلى قرطبة، وباع سفنه وذخائره الحربية للأمير الإشبيلي مقابل عشرة آلاف دوكا.

وقد أراد المعتضد أن يخونه ويستدرجه إبان سفره ليوقعه في الشرك كي يستولي على أمواله.

ولكن عبد العزيز فطن إلى قصده، وتمكن بواسطة حراس طلبهم من أمير قرمونة أن يصل إلى قرطبة دون أن يصيبه في طريقه مكروه.

ثم هاجم المعتضد بعد ذلك ولاية «شلب» الصغيرة، حيث كان يلي الحكم فيها العرب من بني مرين وهم الذين كان أجدادهم يملكون الجهات الممتدة في هذا الإقليم، وقد تولوا في عهد الأمويين المراكز المهمة، واستمات أمير «شلب» في الدفاع عن نفسه بكل إقدام وشجاعة، وقد صحت عزيمته على ألا يسلم أو يموت، ولكن جيش إشبيلية الذي كان يقوده محمد المعتمد قيادة اسمية فقط لبلوغه الثالثة عشرة من عمره بالغ في تضييق الحصار على «شلب» إلى أن استولى عليها عنوة. وكان ابن مرين اعتزم أن يفتك بأكبر رأس في الجيش، إلا أن المعتضد بعد أن تمكن منه وهب له حياته واكتفى بنفيه. وبعد أن تم الأمر بالاستيلاء على «شلب» أصدر أمره بالزحف على «شَنْتَمَرِيَّة» القريبة من الرأس الذي يسمى إلى اليوم بهذا الاسم، وهي كورة كان الخليفة سليمان أعطاها لسعيد بن هارون، وكان مجهول النسب لا يعرف أكان من العرب أم من البربر، والرجال المجهول أصلهم في العادة يكونون من الإسبانيين، سكان البلاد الأصليين. بقيت هذه الجهة مع سعيد هذا إلى أن انتقل سليمان إلى جوار ربه، فاستقل بها، ثم خلفه عليها بعد وفاته ابنه محمد، وحين دهمه عسكر إشبيلية لم تكن منه إلا مقاومة قصيرة المدى، ولما تم للمعتضد أخذ هذه الكورة، ضمها إلى «شلب» وأراد أن يلي الحكم فيها ابنه محمد (١٠٥٢).

وبهذه الانتصارات السريعة اتسعت إمارة إشبيلية في الجهة الغربية من جزيرة الأندلس، أما الجهة الجنوبية فلم تكن قد اتسعت بعد؛ لأن أمراء الجنوب من البربر كانوا

— في ذلك الحين — مسالمين للمعتضد في الغالب، معترفين بسيادته أو مقرين بخلافة هشام الثاني.

لم يقنع المعتضد بما أصاب من فتوحات اتسعت بها رقعة مملكته، وعد ما تم له من ذلك قليلًا بالنسبة لما يطمح إليه، فسرت إلى نفسه فكرة قتل أولئك الأمراء، والاستيلاء على ولاياتهم، ولكي يكون نجاح أعماله السرية محققًا رأى أن يسلك سبيل الاعتدال والحذر حتى لا يطوح بنفسه في محاولة جريئة، فذهب بعد غزوة «شلب» مع اثنين من الخدم لزيارة أميرين من أتباعه، وهما ابن نوح أمير بني مرين وابن أبي قرة أمير رندة دون أن يعلنهما أنه آت لزيارتهما، وإن مما يبعث على الدهشة أن يلقي المعتضد بنفسه بين مخالب هؤلاء، ويضع نفسه بدون تبصر تحت رحمتهم وهو يعلم ما يكنه له أولئك البربر من عداوة وحقد، والواقع أن المعتضد — في مثل هذه المواقف — لا تنقصه الجرأة والإقدام، وهو على الرغم من خيانته ومخاتلته للجميع، واثق من حسن نيات وتقدير الغير له، فقد قوبل عند بني مرين بكل حفاوة وتجلة، وأعرب له ابن نوح عن فرط سروره وغبطته بما هيأت له الظروف السعيدة من هذه الزيارة التي جاءت على غير انتظار، وأولم له وليمة فاخرة، وبالغ في إكرام وفادته، وحقق له من جديد أنه سيكون له التابع الوفي المخلص على الدوام، ولكن المعتضد لم يقدم على هذه الزيارة لسماع التحايا، وألفاظ التكريم والحب والولاء، بل كان يرمي إلى غرض آخر، وهو جس النبض ليعرف هل يستطيع أن يكسب إلى جانبه بعض أفراد من ذوي النفوذ والجاه؟ إذ قد لاحظ أن العرب يميلون من أعماق صدورهم إلى التخلص من نير البربر، وأنه لا يستطيع التعويل عليهم عند سنوح الفرصة.

وبفضل ما كان يحمله خادماه من الهدايا والتحف والأحجار الكريمة استطاع أن يرشو كثيرين من رجال البربر، دون أن يداخل ابن نوح أدنى ريب في دسائسه.

وبعد أن سر المعتضد كثيرًا من نتائج هذه الزيارة استأنف سفره إلى «رُندة» فقوبل بمثل ما قوبل به هناك من الإجلال والترحيب، ونجحت حيله السرية، وأعماله الخفية فيها كثيرًا، لأن العرب هنا كانوا أكثر تذمرًا من زملائهم بني مرين، وأشد رغبة في التحرر من حكم البربر.

والظاهر أن بني قرة كانوا أصلب عودًا وأكثر جرأة من بني نوح، فقد دبروا للمعتضد مؤامرة رهيبة يكون انفجارها بمجرد الإشارة، ومن الاتفاق الغريب أن تسلم

حياته وهي معرضة للخطر في سبيل إنفاذ مشروعه الخطر الجريء، فقد حدث مرة أن تناول معهم الطعام، وأخذوا يحتسون النبيذ وأحس هو — خلال ذلك — بميله إلى الراحة والرقاد، فقال للأمير: «إني أشعر بتعب، وأحس بحاجة إلى النوم، فخذوا أنتم في حديثكم، وامضوا في شرابكم، ريثما أستريح برهة، وآخذ حظًّا قليلًا من النوم، ثم أعود فآخذ مجلسي معكم حول المائدة.» فأجيب إلى طلبه وأعدت له وسائل الراحة، وبعد لحظة كان فيها متناومًا مظهرًا أنه في سبات عميق، طلب بعض رجال البربر من الجالسين أن يصغوا لحظة إلى حديث خطير يريد أن يفضي به إليهم، فصمت الجميع، وقال الرجل بصوت خافت: «يظهر أن عندنا كبشًا سمينًا قد مد صفحته للسكين المشحوذة، وقد واتانا حظ سعيد كنا بعيدين عن إدراكه، ولو أننا بذلنا في سبيل هذه الفرصة ما في الأندلس من ذهب لم يجد ذلك شيئًا، بينما ذلك الطاغية قد حضر بنفسه وأمكنكم من مقاتله، أنتم تعلمون جميعًا أن ذلك الرجل هو الشيطان بعينه، فإذا ما قضينا على حياته لم ينازعنا أحد السلطة في هذه البلاد.»

ولاذ الجميع بالصمت، وأخذوا يتبادلون الإشارة باللحظ، ولا خفاء أن فكرة قتل ذلك الشيطان الذي يمقتونه ويزدرونه، ويعرفون طرقه الملتوية المتعرجة، تقابل بسرور وابتسام من أولئك الرجال الذين مرنوا على القسوة، وشبوا — منذ نعومة أظفارهم — على القتل وسفك الدماء، لذلك لم تبد على وجوههم علامات الدهشة، ولم تلح عليها أمارات الاستنكار والاشمئزاز، وكان من بين هؤلاء جميعًا رجل واحد معتدل المزاج والتفكير قد غلا في رأسه الدم لهذه الفكرة الخاطئة، والخيانة الدنيئة، ذلك الرجل هو معاذ بن أبي قرة أحد أقارب أمير رندة فقد تطاير من عينه الشرر، وأظهر امتعاضًا واشمئزازًا واحتقارًا لفكرتهم هذه المنافية للمروءة وكرم الضيافة، ورد عليهم في تؤدة وثبات بصوت متهدج يغض منه ويخفضه قليلًا قائلًا: «إياكم أيها القوم أن ترتكبوا هذه الفعلة الشنعاء، إن هذا الأمير بزيارته لنا ومجيئه عندنا، قد وثق بنا وأمن جانبنا واعتمد على إخلاصنا ووفائنا له. ومسلكه هذا يدل على أنه يقطع بأنا غير أهل لأن نخونه، أو نخفر ذمته، ولدينا من الشرف وطيب العنصر ما يدعونا لأن نحقق ظنه فينا، وثقته بنا. وبماذا تتحدث عنا القبائل غدًا إذا علموا أننا وطئنا بأقدامنا قداسة حقوق الضيافة، فقتلنا ضيفنا؟ ففكروا أيها القوم مليًّا، وثوبوا إلى رشدكم، ولعنة الله على من يهم بارتكاب هذه الجريمة.»

وقد ترك هذا الكلام في نفوس البربر أثرًا عميقًا، وحرك ما ردده عليهم من واجب الضيافة — في قلوبهم — وترًا حساسًا، يندر أن يتنبه عند أمثال أولئك الطغام من شعوب أفريقية.

وقد مثلوا هذا الفصل والمعتضد في يقظة تامة — وإن كان متناومًا — وقد سمع كل ما دار بينهم من الحديث، ولما حمد الأثر الذي أحدثه كلام معاذ في نفوس الآخرين، واطمأن إلى النتيجة، تظاهر بأنه بدأ يستيقظ، ومضى سريعًا إلى السماط. فوقف الجميع وعانقوه وقبلوه قبلًا مقرونة بالاحترام وإظهار المودة والعطف. وكانت حركاتهم تدل على أن ضمائرهم لم تكن مرتاحة لما هموا به، وأنهم ينطوون على سر مهانتهم من تلك اللحظة التي فكروا فيها بالغدر بضيفهم. ثم تكلم المعتضد فقال: «يجب أيها الأصدقاء، أن أتعجل العودة إلى إشبيلية ولا يفوتني أن أشكر لكم حفاوتكم، وأذكر لكم مبلغ سروري بحسن مقابلتكم لي وترحيبكم بي، وكان يجمل بي أن أقدم لكم بعض هدايا نفيسة تكون عنوانًا على اعترافي بفضلكم وتقديري لكرمكم، ولكني آسف جد الأسف لأن الهدايا — التي كان يحملها خادماي — قد نفدت أو كادت، ولا بأس من إحضار دواة وقرطاس، وليمل علي كل منكم اسمه، وما تميل إليه نفسه من كسى تشريف أو صرر نقود أو جوار أو عبيد أو غير ذلك — مما يدخل في باب التحف وسني الهدايا — وليرسل إلي عند استقراري بعاصمة مملكتي ليأخذ ما يخصه من نفيس تلك الهدايا.» ولما استقر بحضرة ملكه جاءته رسلهم تترى، وعادوا محملين بصنوف الهدايا الثمينة، والحلل الفاخرة، وبذلك توثقت الروابط المتينة، والعلائق الحسنة بين المعتضد والبربر، وتنوسيت الأحقاد والإحن القديمة، وحل محلها الوداد والوئام والصفاء والسلام.

مضت على ذلك ستة أشهر دعا المعتضد بعد انقضائها أمير رندة و«ابن مرين» إلى مأدبة فاخرة أدبها لهما، زعم أنها اعتراف منه بجميل إكرامهما وحسن استقبالهما له، وكذلك دعا من البربر ابن خزرون، وأميري «أركش» و«شريش»، فبادر الأمراء ثلاثتهم إلى إجابة الدعوة، ووصلوا إلى إشبيلية (١٠٥٣) فاستقبلهم المعتضد بحفاوة بالغة، وأعد لهم أسباب النعيم والراحة. وبعد أن ألقوا عنهم وعثاء السفر دعاهم وأكابر أتباعهم إلى الاستحمام بحمامه، وانتحل سببًا لإبقاء معاذ الشاب معه، وكانوا نحو ستين من البربر دخلوا الحمام الذي أعد لاستحمامهم، وبعد أن تجردوا من ملابسهم في الباب الأول، تطرقوا إلى باب الحمام نفسه وهو مماثل لما يوجد الآن من نظائره في البلاد الإسلامية،

مغطاة أرضه وجدرانه بالرخام الملون، مكسوة قبابه بأنصاف كرات جوفاء من زجاج غير صقيل لإرسال الضوء إلى أسفل، في وسطه نافورة تمج الماء إلى أعلى، وفي جوانبه مغاطس مملوءة بالماء الساخن، وصنابير بارزة في الجدران، بعضها يصب منه ماء بارد، وبعضها متصل بمرجل الحمام يصب منه ماء ساخن قد وصل إلى درجة الغليان.

وبينما المستحمون يلتذون بهذا النعيم الذي هيأ لهم أسبابه المعتضد إذ شعروا بحركة خفيفة غير عادية ظنوها حركة بنَّائين أو وقَّادين منصرفين إلى عملهم، فلم يعيروها اهتمامهم — لأول وهلة — ثم صارت الحرارة بعد برهة قليلة تتزايد إلى أن شعروا بالدوار وأحسوا بالضيق، فتلمسوا الباب يفتحونه، فوجدوه محكم الإرتاج وكأنما بني عليهم من خلف، ولما يلبثوا إلا قليلًا حتى ماتوا جميعًا نتيجة الاختناق.

ومكث معاذ طويلًا يترقب عودة الأمراء والصحب ثم انتهى به الأمر إلى القلق والضجر، ثم تجاسر فسأل المعتضد عن السبب الذي من أجله تأخروا هكذا مدة طويلة، فأفضى إليه المعتضد بالسبب وصرح له — وقد اربد وجهه، وشاع فيه الغضب — بقوله: «لا خوف عليك، أما أولئك الخونة من أهلك وعشيرتك فقد استأهلوا العقاب، واستحقوا ما حل بهم من هلاكهم خنقًا في الحمام لتآمرهم على قتلي حين كنت بضيافتهم. وثق أنني كنت متناومًا إبان تآمرهم على قتلي، وقد سمعت كل ما دار بينهم من الحديث في هذا الموضوع الخطير، كما استحسنت كلامك في هذا الصدد، ولست أنسى ما حييت ما أنا مدين لك به من هذا الجميل الذي طوقتني به، وأنت مخير الآن بين البقاء هنا حيث أقاسمك جميع ما أملك — إن شئت — وبين العودة إلى وطنك، وإذا اخترت العودة ورغبت في الإقامة برندة، فلك مني أن أغمرك بسني الجوائز ونفيس الهدايا.»

فقال معاذ بصوت يشف عن حزن عميق: «وكيف العودة يا مولاي إلى الوطن، وكل ما فيه يمثل لي ذكرى من فقدتهم؟» فقال المعتضد: «عليك إذن أن تقيم بإشبيلية آمنًا لا تخاف شيئًا.» وكلف بعض رجال حاشيته أن يعمل على إعداد قصر لإقامة معاذ وأمر له بألف قطعة من الذهب نقدًا، وعشرة من صافنات الجياد، وثلاثين جارية، وما يقرب من هذا العدد من العبيد، ثم توجه إليه بقوله: «وسأمنحك فوق هذا عشرة آلاف دوكا مرتبًا سنويًّا.»

وبقي معاذ بإشبيلية، وهو محل عناية المعتضد وعطفه، فكان يبعث إليه كل يوم بهدايا غالية نفيسة بالغة في الإبداع، يندر أن توجد إلا في خزائن الملوك، وكان في غالب الأحيان

التي يجتمع فيها بوزرائه ومشيريه للاستشارة في أعمال الدولة يجعل لهذا الذي أنقذ حياته المكان الأول في الشورى والرأي.

وبعد أن انتهى المعتضد من تمثيل هذا الدور ووضع رءوس القتلى في صندوق بين رءوس ضحاياه التي كان يتمتع بإلقاء نظرات السرور عليها، أرسل جيشًا للاستيلاء على بني مرين وأركش وشريش وجهات أخرى. وقد نجح الجيش في مهمته من غير أن يعاني صعوبة بفضل مساعدة أهل تلك الجهات من العرب، والخونة الذين اشتراهم المعتضد بالمال. إلا أن الاستيلاء على رندة حيث خلف أبو النصر أباه فيها لم يكن من السهل، فقد كلف جيش المعتضد جهدًا وعناء أكثر من غيرها، ولأنها كانت قائمة على ربوة جبل شاهق تحيط بها وهاد وطرق وعرة تجعل الوصول إليها صعبًا.

ولكن حدث أن العرب ثاروا على البربر وتحمسوا لقتالهم وأعملوا فيهم سيوفهم. وحاول «أبو النصر» نفسه الفرار — طلبًا للنجاة — فتردى في هوة عميقة، إذ بينما كان يتسلق السور زلت به قدمه فهلك.

وقد أحدث الاستيلاء على رندة وحدها في نفس المعتضد سرورًا عظيمًا، فبادر إلى تحصينها، وجعلها أقوى منعة مما كانت عليه. ولما تم له ما أراد من تحصينها، وذهب بنفسه لمعاينتها تملكته نشوة سرور وارتياح جعلته ينظم فيها شعرًا مضمونه: «أنت الآن قد بلغت في التحصين الغاية، ولا شك أنك قد صرت أثمن درة في تاج المملكة، وقد استولى عليك جنودي البواسل بأسنة الرماح، وظبا السيوف.»

الفصل السابع

في الوقت الذي كان فيه المعتضد ثملًا بنشوة انتصاراته، عاكفًا على شهواته ولذاته، كان باديس حليف هموم وأحزان، حتى لقد بلغ به الحزن أن شق ثيابه — حين اتصلت به أنباء النكبة التي حلَّت بالبربر — أخذ يصيح صيحات الغضب، ويزمجر زمجرة الرعد، وقد استولى عليه الهياج والقلق والاضطراب، وتملَّكه شعور أسود جعل الدنيا تظلم في عينيه، وقد وقر في نفسه أن عامة العرب برندة تحركوا للثورة بدافع الجنسية والوطن، وقاموا قومة رجل واحد للقضاء على منافسيهم من البربر.

ومن الذي يستطيع أن يدخل في روعه أن أتباعه من العرب لم يدخلوا في حلف مع بني عباد، وأنهم لم يأتمروا به وبعرشه؟ لقد شغلت هذه الفكرة باله، وكانت لا تفارقه ليل نهار، ويقال إنه كانت تعتاده نوبة ذهول، ثم يهيج به هائج الغضب، إلى حد أنه كان يصيح صياحًا شديدًا، ويقسم ليبيدنَّ كل عربي أَقَلَّتْهُ الغبراء، وأحيانًا كانت تضطرم نفسه هلعًا، وتذوب جزعًا، وتفيض بالوساوس والأحلام والشكوك والأوهام، ثم يعود إلى حالته الأولى من السكون المبهم الغامض الأليم، وكأنما انقضت عليه صاعقة.

على أثر هذه الحالة النفسية العصبية أخذ يفكر في تدبير خطة مروعة رهيبة، وذلك أنه كان يدور بخلده أنه ما دام العرب مقيمين معه في داخل المملكة ومنبثين في الولايات التابعة له، فلن يتأتى له أن يطمئن على سلامة ملكه لحظة واحدة، فعول — في قليل من الحنكة السياسية وعدم التبصر في العواقب — على إبادة خضرائهم، واستئصال شأفتهم من المملكة، وعقد النية على أن ينفذ هذا الرأي الخطير عند اجتماعهم بالمسجد للصلاة من يوم الجمعة المقبل، وكان لا يبرم أمرًا دون أن يستشير وزيره إسماعيل اليهودي،

فلما صرَّح له بعزمه، وأفضى إليه بسره، وأعلمه أنه مصمم على تنفيذ خطته — رضي أم أبى — أظهر له الوزير شناعة هذه الخطة، ووخامة عاقبتها، وعمل جهده على أن يعدل الأمير عنها، وأشار عليه أن يتمهل في الأمر ريثما تنضج الفكرة، وأن ينظر فيما عساه أن ينجم عن هذا الرأي الخطير من النتائج، وكان مما قاله له: «لنسلم أن كل شيء سيتم على ما تريد وتهوى، ولنفرض أنك ستدرك غرضك بالقضاء على جميع العرب — بقطع النظر عمَّا ينجم عن هذا العمل من الخطر — فهل يفوتك أن العرب في خارج المملكة لا يسكتون عن مصاب إخوانهم وما يحل بزملائهم؟ وهل يدور بخلدك أنهم يلبثون ساكنين في أماكنهم، وأنهم لا يتحركون لنجدة أبناء جنسهم؟ كلا، إني أؤكد لك أنهم يسارعون إليك بدافع الغضب الشديد، والعصبية القومية، ويتدافعون إلى بلادك تدافع الأمواج الهائجة المضطربة، ولا يلقون السلاح أو يعلو السيف رأسك.»

ومع مشاكلة هذا الكلام للصواب، ومطابقته للواقع، فإنه لم يؤثر في نفس باديس ولم يصرفه عن رأيه، وأخذ على إسماعيل عهدًا بأن يكون ما دار بينهما من الحديث سرًّا مكتتمًا، وأصدر أمره بأخذ الأهبة والاستعداد لما يجب عمله يوم الجمعة.

وقضي الأمر، وكان جميع الجند بأسلحتهم المختلفة أمام المسجد يوم الجمعة على هيئة عرض عام للجيش، ولم يقف إسماعيل حيال هذا الأمر موقف الخمول، بل كان قد دس نسوة إلى زعماء العرب عملن على تفريقهم، ونصحن لهم بعدم الاجتماع للصلاة يوم الجمعة، وأن يختفوا عن الأنظار في هذا اليوم فلا يبدو لهم أثر، فعملوا بنصيحتهن وأخذوا حذرهم، ولم يحضر المسجد في ذلك اليوم سوى نفر يسير من العرب ممن لا خطر لهم مع عامة الشعب، وتحقق باديس فشل خطته، فكاد يتميز من الغيظ وأرسل في طلب إسماعيل، وأخذ يلومه على إذاعة السر الذي أفضى به إليه، فقال: «إن امتناع العرب عن الحضور لصلاة الجمعة لم يكن لسر مذاع، وتفسير هذا الامتناع من جانبهم ظاهر، فإن القوم رأوا أنك حشدت جندك بلا سبب موجب في وقت لم يكن فيه بينك وبين جيرانك حرب، فلم يشكوا في أنك إنما تقصدهم بالسوء، فعوضًا من أن تغضب وتندم يجب أن تحمد الله (تعالى) على هذه العاقبة الحميدة، فلو أن العرب وقفوا على ما كنت تبيته لهم — من الشر والوقيعة — لثاروا واضطرب بسببهم حبل الأمن، أفلا يسرك أنك تراهم الآن ساكنين هادئين؟ فتروَّ في الأمر قليلًا، وسيجيء الوقت الذي تحمد فيه رأيي الذي أطلعتك عليه.»

وربما كان باديس وقد غاب عنه وجه الصواب غير مقتنع بصحة ما ذهب إليه وزيره، ولكنه حين جاء أحد شيوخ البربر وأيَّد إسماعيل في الرأي اقتنع أخيرًا، واعترف في النهاية بأنه كان مخطئًا، ولم يعد يفكر في ملاشاة العنصر العربي من رعاياه، إلَّا أنه حين رأى فلول البربر الآتين من بني مرين وأركش وشريش ورندة قد لجئوا إلى غرناطة وجاءوا يلتمسون لهم فيها مأوى، اعتزم أن ينتقم من عدوه، ويغزو بجيشه والمهاجرين ولايات إشبيلية.»

وليس عندنا تفصيلات عن هذه الموقعة الحربية، ولكن الدلائل تدل على أنها كانت حربًا دموية؛ لأن البربر كانوا موتورين يلتهبون حماسة للانتقام لأبناء جنسهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العرب كانت كراهتهم لبربر غرناطة أكثر من كراهتهم لسائر البربر، إذ كانوا يعدونهم من الرافضة أعداء الدين، لسكوتهم على أن يكون بين وزراء المملكة رجل يهودي، ويقول بعض شعراء إشبيلية الذين كانوا يشيدون بانتصارات المعتضد ما معناه: «لقد أعملت سيفك في رقاب شعب من البربر ينتحلون اسم الإسلام، ولا يؤمنون بغير اليهودية.»

لهذا كانت الحرب مع الغرناطيين تعد في نظر العرب حربًا دينية مما حملهم على مقاتلتهم بمنتهى الشدة حتى اضطروهم إلى التقهقر والارتداد إلى حيث يقيم أبناء جلدتهم، وقد ساءت حال أولئك المهاجرين البائسين إذ لم يسمح لهم المعتضد بالعودة إلى دورهم وبلادهم حين رأى باديس أن يحلوا عن غرناطة إلى مساكنهم الأصلية التي لا مندوحة لهم عن العودة إليها، فاضطروا إلى أن يجوزوا بحر الزقاق إلى سبتة ولم يشأ «سقوت» أمير هذه الجهة أن يكون لهم فيها بقاء، وهكذا كانوا يطردون — حيثما حلوا، وأينما ارتحلوا — في وقت تفشت فيه المجاعة بإفريقية مما أدى إلى هلاكهم جميعًا.

وبعد هذه النكبة التي حلت بالبربر وجه المعتضد جنده ضد القاسم بن حمود أمير الجزيرة، وكان أضعف أمراء البربر فلم يسعه إلا أن يدخل في طاعة المعتضد ويطلب منه العفو، فأجاز له أن يتحول إلى قرطبة فرحل إليها وأقام بها (١٠٨٥).

ولما تَمَّ للمعتضد هذا الانتصار الباهر رأى أن الوقت قد حان لإتمام الدور التمثيلي الذي لعبه حتى الآن أسوة بأبيه من قبل، فطوَّعت له نفسه أن يعلن أن هشامًا الثاني المزعوم، والذي قد مات وعلم الناس قاطبة بوفاته لا يزال على قيد الحياة.

على أنه لم تكن ثمة أسباب تدعو والده إلى إثارة مسألة الخلافة بانتحال هذا الاسم، فإن الناس جميعًا قد اقتنعوا — في ذلك الحين — باستحالة الرجوع إلى الماضي، والعودة إلى نظام الجماعة، وقد دلت التجارب على أن الخلافة قد سقطت بحيث لم يبق أمل في أن تقوم لها فيما بعد قائمة، وعلى هذا فقد أصبح في قلعة رباح شخص لا خطر له، ولا يترتب على وجوده أية فائدة.

ويجوز أن هذا الرجل الذي اختفى من سنين عديدة ولم يره أحد — لا من عامة الشعب، ولا من حاشية القصر — قد مات، أو أن المعتضد قد تضايق منه فأمر بقتله — كما تحقق ذلك بعض الأخبار — وليس في وسعنا أن نجزم بشيء في هذا الصدد؛ لأن أمير إشبيلية يعرف كيف يحيط أعماله بالأسرار الغامضة، وقد حدث أنه في سنة ١٠٥٩ جمع رجال الدولة، ونعى لهم هشامًا الذي مات من فالج أصابه، ولكنه أمر ألَّا يذاع خبر الوفاة ما دام في حروب مع جيرانه، أما الآن وهو في حالة سلم مع البلاد المجاورة، فقد أمر بدفن رفات أسير قلعة رباح باحتفال مشى فيه رجال الدولة، ومشى هو في الجنازة باعتباره الحاجب؛ أي: الوزير الأول، مترجلًا وبدون طيلسان، وأرسل البُرُد بنعي هذا الخليفة إلى حلفائه في شرق الأندلس، وطلب إليهم اختيار خليفة جديد ليبايعوه، ولم يفكر أحد في ذلك بطبيعة الحال، فزعم أن الخليفة الراحل عهد إليه أن يكون أميرًا على كل بلاد الأندلس من بعده، ومن المحقق أنه كان يعمل على إدراك هذا الغرض، وأن جميع جهوده كانت موجهة إليه، وقد توجهت نفسه الآن للاستيلاء على قرطبة عاصمة المملكة القديمة، ولم يدر ما كان يَخْبَؤُهُ له القدر من فشل وخذلان، وذلك أن جنوده أغاروا عدة إغارات على بعض الجهات التابعة لقرطبة، وانضم إلى ذلك أنه أمر ابنه إسماعيل قائد جيشه أن يستولي على مدينة الزهراء التي دمر نصفها البربر، فقابل أمره بشيء من الاستياء والامتعاض والتبرم والاعتراض، وكان قد بدأ منذ زمن يظهر الكراهة والاشمئزاز من أبيه، ويشكو قسوته وظلمه، ويرميه بأنه كان يقحم به على الأهوال والأخطار، ويعرضه لمواقع الهلكة، إذ كان يأبى في المعارك الكبيرة، وحصار المعاقل المنيعة، أن يمده بالعدد الكافي من الجند، وفوق هذا فقد حرك في نفسه عوامل الاستيلاء والبغض رجل أفاقي يُدعى أبا عبد الله البرزيلي كان قد رحل من مالقة عندما استولى عليها باديس، وكان يطمع أن يكون حاجبًا لأي أمير، فأثار في نفس إسماعيل فكرة الثورة على أبيه، وأوعز إليه أن يؤسس لنفسه مملكة مستقلة في جهة أخرى كالجزيرة الخضراء، وقد أتيحت للرجل أسباب النجاح إذ أظهر إسماعيل في الوقت الذي أمر فيه بالزحف على قرطبة

منتهى ما يكون من الامتعاض والهياج؛ لأنه طلب من أبيه أن يمده بالعدد الذي يلزمه من الجند فأبى، وعبثًا حاول إسماعيل أن يقنعه بأن ما معه من الجند لا يكفي للزحف على ولاية كقرطبة، وبأن باديس لا بد آتٍ لمساعدة أهلها كما فعل ذلك سابقًا، وأنه إذا جاء لمعاونتهم ما دام محالفًا لهم، فإنه حينئذ يضع نفسه بين نارين، ويكون مضطرًّا لمنازلة عدوين، فلم يصغ المعتضد إليه، بل كان في أشد حالات الغضب على ابنه، ودعاه بالجبان، وهدده بالقتل، وكان على وشك أن يبرز ذلك من حيز القول إلى حيز الفعل وأفضى إليه بقوله: «إذا لم تطع قولي، وأظهرت الخلاف علي، فإني مضطر لا محالة أن آمر بضرب عنقك.»

فجرحت هذه الكلمات إسماعيل في صميم نفسه، وهاج به هائج الغضب، ودفعه حرج الموقف إلى المضي في الخطة الرهيبة التي رسمها لنفسه، ولكنه جاء إلى البرزيلي ليشير عليه بما يمكن عمله، فكان من السهل على هذا أن يقول له: «إنه قد حانت الساعة لتنفيذ الخطة التي أدليت بها إليك.»

وبعد مضي يومين من سفر إسماعيل على رأس الجيش من إشبيلية بلغ رؤساء الجند أن قد ورد عليه نبأ من أبيه أن يأمره فيه بالعودة لمقابلته ليفضي إليه بأمر هام.

وقفل راجعًا مع البرزيلي وثلاثين فارسًا من فرسان الحرس إلى إشبيلية ولم يكن المعتضد في هذا الوقت بقصر الإمارة الحصين، بل كان قد تحول إلى قصر الزاهر الواقع على الضفة المقابلة من النهر، وآنس إسماعيل قلة الحامية والحراس، فاستولى عليه ليلًا، وحمل ما فيه من كنوز ونفائس على ظهور البغال، ولكي يحول دون أن يعبر أحد النهر إلى «قصر الزاهر» لإبلاغ أبيه الحادث أمر بإغراق الزوارق الراسية تجاه الحصن، وتمكن من أخذ والدته ونساء القصر، ومضى لا يلوي على شيء في طريقه إلى الجزيرة الخضراء، وعلى الرغم من مبالغته في التكتم، وشدة الحذر والخوف من أن يصل نبأ هذا الحادث إلى أسماع أبيه، تسرب الخبر إلى أبيه من أحد فرسان ولده؛ لأنه لم يرضه هذا العمل، فاقتحم نهر الوادي الكبير سباحة وأبلغه الحادث في الحال.

فأنفذ المعتضد في أثره كتائب من الفرسان، وأرسل رسله إلى حكام حصونه في الوقت المناسب، فأوصدوا أبواب القصور التي في طريقه في وجهه، وخشي إسماعيل من تألب أصحاب القصور عليه، فلجأ إلى واحد منهم اسمه «حصادي» وهو صاحب حصن قائم على ربوة جبل عند حدود قسم شذونة وطلب إليه أن يكون في جواره وحمايته،

فقبل أن يجيره، ولكن شرط عليه أن لا تبرح خيله سفح الجبل، وخرج إليه في جماعة من جنوده، ونصح له بعدم الخلاف على والده، وعرض عليه أن يكون وسيطًا في الصلح بينهما، ولكونه قد فشل في محاولته هذه فشلًا تامًّا، رأى أن ينزل عند رأيه ويعمل بمشورته، وحينئذ أذن له أن يدخل معه الحصن، وعامله بما يليق بمكانته، وأرسل إلى المعتضد كتابًا يذكر فيه أن إسماعيل ثاب إلى رشده، وندم على فعلته تلك، وتوسل إليه أن يقبل وساطته ويصفح عنه، فأرسل إليه يقول: «إنه قد صفح عنه.» فعاد إسماعيل إلى إشبيلية ورد والده إليه جميع أملاكه، ولكنه شدَّدَ عليه الرقابة، وأمر بضرب رقاب أبي عبد الله ومن معه، وعلم إسماعيل بذلك فسقط في يده، وأدرك مبلغ خيانة والده وغدره، ووجد أنه قد وقع في الشرك الذي نصبه له من الصفح المزعوم، فأعمل الحيلة في الخلاص، وكسب بقوة المال الحراس، وطائفة من العبيد، وجمعهم — ذات ليلة — على الشراب ليبعث فيهم الحماس والجرأة، وقلدهم السلاح وتسوَّر بهم ناحية من القصر رأى الوصول إليها هينًا، وكان يقدر أن يصادف والده في هذه الساعة نائمًا، وقد صمَّم في هذه المرة أن يقضي عليه القضاء الأخير، ولكنه سرعان ما ظهر المعتضد فجأة على رأس حاميته، وما هي إلا أن عاينه المتآمرون حتى لاذوا بالفرار، ولكن جنود الحامية تعقبوهم إلى أن جاءوا بهم معتقلين، وكان الغضب قد وصل بالمعتضد إلى أقصى حد، فأخذ ابنه إلى مكان بعيد من القصر، وأرداه بيده قتيلًا بحيث لم يشهد مصرعه أحد، وهاج به هائج الغضب فأخذ يقتل وينكل بشركائه وأصدقائه وخدمه، وحتى بنساء قصره، وكم أمر ببتر أيد وأرجل وجدع أنوف، وقطع رءوس، وقتل في السر وقتل في العلن. وبعد أن شُفي غيظه وسكنت ثورة غضبه، تملكه حزن عميق وتنبه في قرارة نفسه تأنيب شديد، ووخز في الضمير أليم، وما كان يشفع لهذا التأنيب وذلك الألم النفساني الدائم، أن ابنه القتيل كان آثمًا على الحقيقة جديرًا بما حلَّ به من العقوبة، فقد ثار عليه، وحاول قتله في محاولتين فشلتا معًا، وسرق ذخائره وأعلاقه وكنوزه حتى لقد سرق مع ذلك نساءه، وكان لا يفتر لحظة عن التصريح بهذه الشناعات والجرائم التي ارتكبها ابنه، ولا عن التحدث بأنه كان يحبه حبًّا حقيقيًّا، فإنه مع جبروته وقسوته كان يحب أسرته وبخاصة ابنه الذي كان يرى فيه العاقل الرشيد السديد الرأي في المجلس، والقائد المدافع عن حوزة المملكة في ميادين القتال، والعون الوحيد له في شيخوخته، والمتمم لعمله إذا وافاه الأجل المحتوم، وها هو قد حطم بيده تلك الآمال، وقضى بنفسه على كل تلك الأماني.

وحكى بعض وزراء إشبيلية قال:

> في اليوم الثالث لهذه الكائنة المحزنة، والفجيعة الدامية، دخلت أنا وزملائي على المعتضد في مجلسه، وكان وجهه مربدًا تعلوه كآبة الحزن، في منظر موحش فظيع، فعرتنا دهشة، وارتعنا هلعًا وفزعًا، وتقدمنا فحييناه، وهو يجمجم بكلام لم نتبيَّنه، فنظر إلينا نظر استثبات وتفحص، وجعل يصعد فينا بنظره ويصوب، ثم قال في زمجرة كزمجرة الأسد: «ما بالكم لا تنطقون أيها الأشقياء؟ إنه ليسركم في الباطن ما أنا فيه الآن من محنة وبلاء، فاذهبوا بعيدًا عني، واخرجوا من هذا المكان.»

وربما استحال ذلك النشاط الوحشي، وتحولت تلك الإرادة الحديدية الآن إلى ذلة وضعف وفتور وانكسار لأول وهلة، وأصبح ذلك القلب المقدود من الصخر، والذي كان يلوح أنه بمنجاة أن يطعن في الصميم لصلابته وقسوته، قد أصيب بجرح دامٍ يندمل على الزمن شيئًا فشيئًا، ولكن بعد أن يترك أثرًا عميقًا، وفي هذه الفترة ترك جمهورية قرطبة في راحة وطمأنينة، وقد سرتها هذه الطمأنينة المفاجئة على قدر دهشتها بها، وكذلك لم يعد الآن يفكر في خططه الحربية ومشاريعه الواسعة، ثم عادت تلك الأطماع تتحرك في نفسه بصفة غير محسوسة، ثم تنبهت عوامل الجشع والطمع في نفسه، فأخذ يعد الأهبة للاستيلاء على مالقة.[1]

وكان نير باديس قد أثقل كواهل العرب في مالقة منذ سنين، وأخذوا يلعنون أيامه، ويئنون من جبريته وظلمه، وصاروا يعقدون الآمال في الخلاص من هذا الحكم الغاشم على أمير إشبيلية، وهم وإن كانوا على يقين من أنه مثله في الظلم، إلا أنهم كانوا يؤثرونه على باديس لأنه من جنسهم، ولهذا اتفقوا مع المعتضد، ودبروا مؤامرة كان باديس بتهاونه أول مساعد على تحقيقها، لإدمانه على الشراب، وإغفاله شئون دولته إلا في أوقات قليلة نادرة.

وفي اليوم المضروب موعدًا لتنفيذ المؤامرة شبت في العاصمة ثورة، اشترك في إضرامها خمسة وعشرون حصنًا، وتلاحقت في نفس الوقت جيوش إشبيلية بقيادة المعتمد بن المعتضد، فاجتازت الحدود لمساعدة الثائرين، فأخذت البربر على غرة، ولعب السيف في رقابهم ولم ينجُ منهم إلا من تعجل الفرار، وفي أقل من أسبوع من الزمن تم فتح جميع الولاية، إلا حصن مالقة الذي كان به حامية البربر فإنه بقي وحده بدون تسليم، وهو حصن منيع لوقوعه على قمة جبل، ولمناعته كان في استطاعته أن يقاوم مدة طويلة،

وحينئذٍ كان يخشى أن ينتهز باديس الفرصة فيجيء لشد أزر الحامية، وهذا ما حسب له زعماء الثورة ألف حساب، فأشاروا على المعتمد أن يُشدِّد الحصار على مَن في الحصن، وألَّا يثق كثيرًا بجماعات البربر الذين في جيشه، ولم يقدر المعتمد قيمة هذه النصائح الثمينة، ولم تلقَ منه أذنًا صاغية، بل تهاون في الأمر، وآثر الراحة، وأطلق سراح الجند الذين أعجبوا بهذا المسلك الحسن، فعكفوا على الشراب، وأخذوا يبحثون عن النساء، لاعتقادهم أنه لا خطر هناك يتهددهم، وقد غرهم ما قاله رؤساء البربر للمعتمد من أن الحصن عمَّا قليل ستسلم حاميته، وكانت هذه الخديعة من البربر بدافع ميل خفي إلى باديس، وقد جرَّ ذلك كثيرًا من الشؤم على جيوش إشبيلية، فإن أولئك السودان الذين هم في الحصن، وجدوا عندهم متسعًا من الوقت يخبرون فيه باديس بأن الفرصة سانحة لمباغتة عسكر المعتمد والقضاء عليه.

فجدت جنود غرناطة في المسير، وشقت طريقها إلى مالقة بين الجبال والأوعار في سرعة وحذر، ودخلت المدينة على حين غفلة من أهلها، دون أن يكون عند المعتمد قبل دخولهم بلحظة واحدة علم باقترابهم، فلم يستطع أن يجمع الجيش لملاقاة العدو، ولم تكن بين الجيشين معركة، وكل ما في الأمر أن جند غرناطة قاموا بمذبحة في عسكر إشبيلية الذين كانوا عزلًا من السلاح، والذين كان أكثر من نصفهم سكارى، وقد أفلت المعتمد من أيديهم بانسحابه إلى رنده واضطرت ولاية مالقة جميعها أن تخضع من جديد لحكم باديس.

ولنتصور هنا مبلغ حنق المعتضد وغضبه حين نمى إليه خبر هذه الهزيمة، وأن ولده بتهاونه وتضييعه خطة الحزم قد فقد جيشه، وفقد ولاية عظيمة، وكان من نتيجة هذا الغضب أن أصدر أمره باعتقال المعتمد مع مسجوني حصن رنده وقد هَمَّ أن يقضي على ولده الثاني في حياته أيضًا، ناسيًا وخز الضمير الذي أصابه لقتله ولده الأول.

وكان المعتمد يجهل مبلغ ما وصل إليه والده من الغضب والحسرة والندم، ولما استقر في الحصن، وعرف مدى غضب والده بعث إليه بقصيدة تفيض بالمديح والثناء، وتشيد بكرم المعتضد، وتستجلب عطفه وصفحه، وتقتضي فؤاده الرحمة والشفقة، بذل في هذه القصيدة كل ما في استطاعته ليصرف عن والده ما ساوره من حزن، وألَمَّ به من ألَمٍ، وليعزيه عن هذا المصاب وذلك الإخفاق بما أحرزه فيما مضى من انتصارات باهرة، وفتوحات اتسعت بها رقعة المملكة، ومن أجمع الأبيات لهذه المعاني قوله في صدر قصيدته الرائية:

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدرٌ قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتي به القدر
وإن تكن كبوة في الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
كم زفرة في شغاف القلب صاعدة ... وعبرة من شئون العين تنحدر
فوِّض إلى الله ممَّا أنت خائفه ... وثِق بـ«معتضد بالله» يغتفر
ولا ترُعْك خطوب إن عدا زمن ... فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر فإنك من قوم أولي جلد ... إذا أصابتهم مكروهة صبروا
من مثل جدك والملك الهمام أبو ... عمرو أبوك له مجد ومفتخر
سميذع يهب الآلاف معتذرًا ... ويستقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبِّلها ... لولا نداه لقلنا إنها الحجر
يا ضيغمًا يقتل الأبطال مفترسًا ... لا توهنني فإني الناب والظفر
وفارسًا تحذر الأبطال صولته ... صن حدَّ عبدك فهو الصارم الذكر
هو الذي لم تشم يمناك صفحته ... إلا تأتى مراد وانقضى وطر

ثم حاول في قصيدته هذه أن يعتذر عن نفسه، ويلقي التبعة على البربر الخائنين، ويصف بأبدع أسلوب مبلغ الحزن الذي تملكه من جراء غضبه عليه فقال:

لم يأتِ عبدك ذنبًا يستحق به ... عتبًا وها هو قد وافاك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل ... وفى لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشٌّ، وحبهم ... بغض، ونفعهم إن صرفوا ضرر
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا ... ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا
إن يحرق القلبَ نفثٌ من مقالهم ... فإنما ذاك من نار القلى شرر
مولاي! دعوة مظلوم به ظمأ ... بَرْح، وفي راحتيك السلسل الخصِر
أجب نداء أخي قلب تملكه ... أسى، وذي مقلة أودى بها السهر
لم أوتَ من زمني شيئًا أُسَرُّ به ... فلست أعهد ما كأس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر ... ولا سبى خلَدي غنج ولا حور
رضاك راحة نفسي — لا فجعت به — ... فهو العَتاد الذي للدهر أدخر

وهو المُدام التي أسلو بها فإذا ... عدمتها عبثت في قلبي الفكر
ما تركي الخمر من زهد ولا ورع ... فلم يفارق — لعمري — سني الصغر
وإنما أنا ساعٍ في رضاك، فإن ... أخفقت فيه فلا ينسأ لي العمرُ
أجل ولي راحةٌ أخرى أُسَرُّ بها ... نظم الكُلى في القنا والهام تنتثر
كم راحة لي في الأعداء واضحة ... تفنى الليالي ولا تفنى لها الذكر
سارت بها العِيس في الآفاق فانتشرت ... فليس في كل حي غيرها سمر

* * *

لا زلتَ ذا عزة قعساء شامخة ... لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وَزَرٌ من حسن رأيك لي ... آوي إليه، فنعم الكهف والوزر

وقد أثر هذا الشعر — بروعته وسمو معانيه وانسجام عباراته — في نفس المعتضد وأخذ يرق تدريجًا، ويعطف على ولده، كما عطفه عليه رجل معروف بالصلاح والورع من رجال رندة أكثر من التوسلات والشفاعات التي رق لها قلبه، ولان جانبه، فأباح للمعتمد العودة إلى إشبيلية، وصفح عنه، ولكن مالقة قد أفلتت من يده بحيث لا سبيل إلى رجوعها، واستيقظ باديس» من ذلك الحين وأخذ في الأهبة والاستعداد والحيطة حتى لا يحاول المعتضد» مباغتتها والانقضاض عليها مرة أخرى، ومما يقال عن ملك غرناطة أنه كان في ثورة غضبه لا يرحم، وأنه كان ينتقل من مكان إلى مكان للانتقام من الثائرين والزعماء، وهو محاط بجلاديه، وأنه أودى بحياة الآلاف من المساكين الذين ثاروا عليه وأبادهم تقتيلًا وتمثيلًا، وإحراقًا وتنكيلًا، فلم يعد أحد من الثائرين الكارهين لحكمه يرغب في إعادة الكرة عليه ثانية.

ووجد الناقمون عليه في وسط هذه المحنة الشديدة والعذاب المستأصل سبيلًا لإثارة الخواطر حيث آنسوا أن نفوذ اليهود في بلاط غرناطة قد بلغ النهاية، فإنه بعد أن مات إسماعيل خلفه ولده يوسف الذي عني أبوه في حياته بتعليمه كثيرًا من العلوم، وأعدَّه إعدادًا تامًّا للقيام بأعباء الوزارة بعده، وقد اضطلع بمنصب كبير الوزراء في الدولة، ولديه كل المؤهلات العلمية والتثقيفية، إلا أنه كان يعوزه لين الجانب، والتواضع الذي كان يكسب والده — مع سمو المركز — صفح الأمير ورضا الجميع عنه. ولم يكن يوسف على شاكلة أبيه من هذه الناحية، بل كان يظهر بمظهر أميره باديس ممتطيًا جواده إلى

جانبه، وركابه بإزاء ركابه، وشارته في اللبس كشارته، حتى إن الناظر إليهما لا يفرق بين الأمير ووزيره.

بل لقد كان يوسف في الحقيقة ملكًا فوق الملك، وكان هو المسيطر المتسلط على باديس لعكوفه على شرابه، وانغماسه في لهوه وبطالته، ولكي يستمر نفوذه وسلطانه على المملكة كان قد أحاط باديس بجواسيس وعيون من نساء وفتيان قصره، استغلهم بالمال، وغمرهم بالإحسان، فلا يكاد باديس ينبس أو يتنفس إلا وهو يعلم ذلك.

وذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه وأجداده، وأنه كان مستهترًا يحتقر الأديان جميعًا، وقالوا: إنه لم يكن يهوديًّا إلا بالاسم فقط، وكان — في حملاته على الدين الموسوي — لا يكاد يصرح بالطعن، أما الدين المحمدي فكان يجهر بالغض منه، ويعيب أحكامه، هذا إلى أنه كان يحرف كثيرًا من آيات القرآن، يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى العرب والبربر بل واليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه، وآرائه اللادينية وقلة إنصافه، وعدم رعايته العدل، وحام حوله كثير من الشبه والظنون، وأصبحت تعزى إليه تهم وتذاع مخازٍ وفضائح، واستهدف لكثير من الألسنة وحمل كثيرًا من جمهرة المسلمين على معاداته، بينهم الزاهد أبو إسحاق الألبيري الذي ذاعت قصيدته في الإغراء باليهود.

عصف الشباب بهذا الرجل، فسوَّلت له نفسه أن يتطلع لمركز في البلاد يرى نفسه — لمنصبه وسابقته في الزهد والورع — أهلًا للحصول عليه، فخيب يوسف آماله فرحل وهو يحمل في نفسه من الحقد والكراهة له ولليهود ما حفزه على أن ينظم فيهم قصيدته التي يقول في مطلعها:

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مِقَة مشفق	يعد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة	تقَر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرًا	ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخَوْا	وتاهوا، وكانوا من الأرذلين

ومنها:

فكم مسلم راغب راهب   لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم   ولكنَّ منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالأُلى   من القادة الخيرة المتقين[2]
وأنزلهم حيث يستأهلون   وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا   ولم يستطيلوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان:

أباديس[3] أنت امرؤ حاذق   تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفي عنك ما يعبثون   وفي الأرض تضرب منها القرون؟
وكيف تحب فراخ الزنا   وقد بغضوك إلى العالمين؟
وكيف يتم لك المرتقى   إذا كنت تبني وهم يهدمون؟
وكيف استنمت إلى فاسق   وقارنته، وهو بئس القرين؟

ومنها:

وإني حللت بغرناطة   فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها   فمنهم بكل مكان أمين

ومنها:

وهم أمناكم على سركم   وكيف يكون أمين خئون
ويأكل غيرهم درهمًا   فيُقْصَى، ويُدنَوْن إذ يأكلون.
وقد ناهضوكم إلى ربكم   فما يمنعون وما ينكرون!

ومنها:

ورخم قردهم داره   وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده   ونحن على بابه قائمون

ويضحك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون[٤]

***

ولو قلت في ماله إنه كمالك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قُربة وضحِّ به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل عِلق ثمين
وفرق عراهم وخذ مالهم فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبنْ قتلهم غدرة بل الغدر في تركهم يعبثون
فقد نكثوا — عندنا — عهدهم فكيف نُلام على الناكثين
وكيف تكون لنا همَّة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم كأنَّا أسأنا وهم محسنون
فلا ترضَ فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلهك في حزبه فحزب الإله هم المفلحون

وكان أثر هذه القصيدة في نفس باديس الذي أولاه ثقة لا حد لها بالغًا الغاية، كما أنها أثرت تأثيرًا عميقًا في نفوس البربر، فثاروا للانتقام، وحلفوا ليقتُلُنَّه، وأذاع زعماء المؤامرة أن اليهودي انضوى تحت لواء المعتصم أمير المرية وكانت العلاقة بين الغرناطيين وبينه علاقة حرب لا سلم. وقد يتساءل بعض الناس ممن كانوا أقل تصديقًا: ما الفائدة التي يجنيها يوسف من خيانته ملكًا وثق به، وسلم إليه قياده، وجعله صاحب السلطان التام دونه في المملكة؟ لقد أشاعوا حينئذٍ أن اليهودي يريد أن يمكن المعتصم من الاستيلاء على المملكة، ثم يعود هو فيقتل باديس ويتبوأ العرش مكانه، ولسنا في حاجة لأن نبين أن كل هذه الإشاعات من قبيل الأراجيف والوشايات المحضة، وإذا نظرنا إلى الواقع رأينا أن البربر كانوا يودون خلق الأسباب التي تدعو إلى إبعاد اليهودي عن الحكم، والاستيلاء على ما يملكه اليهود من أموال وثروات يحسدونهم عليها، ويتمنَّوْن أن لو كانت في حوزتهم، ولما وجدوا أنهم قد ظفروا بالأسباب التي تبرر الفتك باليهود ثاروا جميعًا، وهاجموا قصر الإمارة مع العامة، ودخلوا في طلب اليهودي، فزعموا أنه اختفى في بيت فحم وسوَّد وجهه، يريد أن يتنكر ويلبس عليهم صورته، فعرفوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة.[٥]

ثم عمدت صنهاجة بعد ذلك إلى قتل سائر اليهود، فقتل في يوم منهم مقتلة عظيمة، ونهبت دورهم، وقد بلغ عدد من قُتل منهم أربعة آلاف يهودي ذهبوا ضحية العداوة الدينية (٣٠ ديسمبر سنة ١٠٦٦).

الفصل الثامن

لم تكن الحال في بقية أنحاء إسبانيا الإسلامية خيرًا منها في البلاد الجنوبية، فقد حمي وطيس النزاع من جرَّاء بقايا الشئون الخلافية، وأخذ سيل الفتن يطغى على وسط الجزيرة وشرقيها وغربيها حتى كاد يجرف أمامه جميع الممالك الإسلامية المنبثة في شبه الجزيرة.

وكان قد مضى على الممالك المسيحية نصف قرن وهم بشئون بلادهم مشغولون عن غزو الممالك الإسلامية، وبدأت الحال في سنة ١٠٥٥م تتحول، فاستطاع «فردينند» ملك قشتالة وليون أن يوجه جميع جيوشه لقتال المسلمين، الذين كانوا — على ما يظهر — لا يستطيعون أن يقاوموا خصومهم مقاومة جدية، وهكذا أصبح الفوز حليف المسيحيين، فقد كان لهم من الروح الحربي، والحَمِيَّة القومية، والغيرة الدينية ما لم يكن عند المسلمين، فكانت حروب «فردينند» سريعة، وانتصاراته متلاحقة، فانتزع من المظفر ملك بَطَلْيَوْس سنة ١٠٥٧م مدينتين وأخذ من ملك «سَرْقُسْطة» جميع الحصون والمعاقل التي تقع في الجنوب، وشن الغارة على المأمون صاحب طليطلة وزحف بجيوشه، ولما كان المأمون أضعف من أن يثبت للعدو، فقد رأى من الحكمة أن يتقدم إلى «فردينند» عند قدومه بالهدايا الثمينة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ويعرض عليه ولاءه، ويؤدي له الجزية كما فعل ذلك من قبل ملِكَا بَطَلْيَوْس وسرقسطة.

وجاء — بعد هؤلاء — دور المعتضد، ففي سنة (١٠٦٥) أحرق «فردينند» قرى إشبيلية، وباتت الممالك الإسلامية جميعها في أشد حالات السوء والضعف مما جعل المعتضد — وهو أقوى ملوك الأندلس — يرى من الحكمة أن يحذو حذو المأمون في إعطاء الإتاوة لفردينند، فمضى إلى معسكره وقدم إليه هدايا ثمينة وتوسل إليه أن يبقيه على ملكه، ولما

رأى من المعتضد جلال الشيخوخة، وتغضُّن الجبين، واشتعال رأسه شيبًا وأنه متهدم القوى، لاح له أنه بمنجاة عن المكر والخبث، وكان المعتضد لما يعد السابعة والأربعين من عمره، ولكن الهموم وشدة الطمع والجشع، وكثرة العمل، وفرط الظلم، وتأنيب الضمير — على ما يُظَنُّ — كل أولئك، قد أحال لونه، وأبدى على معارف وجهه مظاهر الشيخوخة في إبان الكهولة، فلا غرابة إذا رحمه ملك قشتالة وأثرت شيخوخته في نفسه، ولكن هذا لم يرتح إلى دفع الإتاوة، ورأى أن يستشير أهل مملكته ويستفتي فيها الفقهاء، فجمعهم ليرى رأيهم فيما يكون من الشروط، وأن يقرروا من الرأي ما يعرضونه عليه، فاجتمعت كلمتهم على أن يدفع ملك إشبيلية جزية سنوية، وأن يسلم إلى رسل يرسلهم إليه «فردينند» جثمان القديسة «جوست» العذراء التي استشهدت في عصر الاضطهاد الروماني.

فقبل المعتضد الشرطين، وانسحب «فردينند» بعسكره، ولما وصل إلى ليون أوفد إلى إشبيلية «الڤينوس» أسقف العاصمة و«أردو» أسقف «استورقه» وأوجب عليهما أمرين:

الأول: نقل جثمان القديسة.

والثاني: تسوية مسألة الجزية.

وأسف «الڤينوس» — مع زميلين له — حيث لم تسفر أعمال التنقيب التي أجريت للعثور على رفات القديسة عن نتيجة، مما حمل «الڤينوس» أن يقول لرفيقيه: «إنكما أيها الأخوان، تريان أنه إذا لم تسعفنا الرحمة الإلهية فسنعود من هذه الرحلة الشاقة، وقد ضاع كل ما علقناه عليها من أمل، والظاهر أنه لا بد لنا من أن نستلهم المولى سبحانه وتعالى، ونتجه إليه بالصلاة والصيام ثلاثة أيام نسأله فيها الهداية إلى هذا الرفات الدفين، والكنز الثمين، الذي نبحث عنه في خبايا الأرض.» وبناء على هذا العهد الذي عاهدوا الله عليه أمضوا ثلاثة أيام صائمين مصلين داعين حتى أثر ذلك في صحة «الڤينوس» وكانت معتلة، وبخاصة منذ قدم إلى إشبيلية، وفي صبيحة اليوم الرابع جمع الأسقف رفاقه ثانية، وقال لهم: «إن رحمة الله لم تشأ أن نرتد من رحلتنا هذه بالخيبة والفشل، فواجب علينا أيها الرفاق المحبوبون أن نشكر الله من صميم قلوبنا، فقد تم أمره، ونفذ قضاؤه بأنكم ستحملون إلى وطنكم ما لا يقل قدرًا عن رفات القديسة «جوست» التي حرم الله علينا إخراجها من هذه الأرض، ذلك هو جثمان السعيد «إيزيدور» الذي حمل

التاج الأسقفي إلى هذه البلاد، والذي زان — ببلاغته ومنشآته — إسبانيا كلها، وقد كنت اعتزمت أيها الإخوان، أن أقضي الليلة ساهرًا أبتهل وأدعو وأصلي لله، ولكن خانتني قواي، فما كدت أجلس لحظة حتى بلغ مني الإعياء مبلغه، فأخذتني سِنة من النوم، فرأيت كأن شيخًا عليه سمة الرهبان يقول لي: «لقد عرفت ما جئت أنت ورفقاؤك من أجله، وقد أبت الإرادة الإلهية أن تحرم المدينة من رفات القديسة «جوست» فيخيم على ربوعها الحزن، وينتابها الألم، كما أبى اللطف الإلهي إلا أن يهبكم جثماني رحمة بكم حتى لا تعود أنت ورفقاؤك بأيدٍ أصفار من هذه الأمنية التي طالما تكبدتم من أجلها المشاق.»

فقلت: «ومن تكون أنت؟» قال: «أنا بدأت كبير قساوسة هذه المدينة، وانتهيت طبيب إسبانيا كلها، أنا «إيزيدور».» واختفى شبحه عني — على إثر هذه الكلمات — واستيقظت فصليت شاكرًا لله، ودعوته أن يعيد هذه الرؤيا عليَّ مثنى وثلاث إن كانت وحيًا من لدنه، فعاودتني الرؤيا مرتين؛ كان الشيخ في كل منهما يوجه إليَّ نفس عباراته الأولى بعينها، وزاد في المرة الثالثة أن أراني موضع قبره، وقد ضرب عليه بعصا في يده ثلاثًا وهو يقول: «هنا، هنا، هنا، تجد جثماني، ولا يقعن في خلدك أنني شبح يخدعك، وستوقن أن ما أنبأتك به هو الحق، وآية ذلك أن رفاتي لا يكاد ينقل من موضعه حتى ينزل بك داء يستعصي على نطس الأطباء شفاؤه، ثم تموت، وتأتي إلى عالمنا متوَّجًا بتاج البررة الصالحين.»

واختفى بعد أن أتم هذه الكلمات.»

وذهب «القينوس» وزملاؤه إلى قصر المعتضد وقص عليه رؤياه، واستأذنه في نقل رفات «إيزدور» عوضًا عن نقل رفات القديسة «جوست».

وقد ترك كلام الأسقف في نفس المعتضد أثرًا غريبًا، ذلك الرجل المتشكك الساخر الذي لا يدين بغير شيئين اثنين: هما الخمر، والمُلك، ولكنه من باب الدهاء قد أصغى باهتمام إلى كلام الأسقف، وقد قال له بعد أن فرغ من كلامه بلهجة تشف عن حزن عميق: «إني آسف جد الأسف فإني إن أعطيتك رفات «إيزيدور» فماذا يبقى لي بعد ذلك؟ على أني أيها الشيخ الوقور لا أمتنع عن تنفيذ رغباتك، وليكن ما أردت، قم فنقِّب وابحث عن القبر، وانقل رفات الراقد فيه على الرغم ممَّا يساورني بعد ذلك من أجله.»

وكان ذلك العربي الداهية، والثعلب الماكر، يعرف كيف يستفيد من شفقة المسيحيين، ولو أنه كان يسخر من فرط هذه الشفقة إذا خلا مع نفسه.

وقد أحس من نفسه أن عليه جزية واجبة الأداء، فرأى أن يتظاهر بأنه شديد الاهتمام ببقايا «إيزيدور» التي لا يفرط فيها إلا مرغمًا كارهًا، والتي يعدل إخراجها من قصره انتزاع روحه من جسده.

وعول على استغلال هذا الموقف لفائدته، فكان يفعل فعل المدين الذي إذا ما ألح عليه دائنوه وأحرجوه، عرف كيف يدخل في الحساب ذلك الأثر الخالد النادر ويغالي في ثمنه، ويحمل دائنيه على قبوله، وهكذا لعب المعتضد دوره إلى النهاية، فإنه عندما أراد «استورجه» وقد توفي أخيرًا زميله «الڤينوس» أن يأخذ الأهبة لمبارحة إشبيلية وحمل رفات «إيزيدور» في مركب جاء المعتضد ووضع على التابوت غطاء من الديباج المحلى بالنقوش والكتابات العربية البديعة وجعل يصعد الزفرات، ويتصنع الحسرات، وهو يقول: «ها أنت ذا تبرح المدينة يا «إيزيدور» المبجل، وأنت تدري ما بين بلدينا من أوثق روابط المودة والعلائق.»

وكان العام التالي (١٠٦٤) من أسوأ الأعوام وأشدها على المسلمين، فاضطر أحد أمرائهم إلى الاستسلام والنزول على حكم «فردينند» بعد أن شدد عليه الحصار ستة أشهر، وقضت شروط الصلح أن يعطى للظافر خمسة آلاف من المدافعين، وأن يغادر الباقون مساكنهم غير مزودين إلا بما يلزمهم من النقود لسفرهم، وفضلًا عن ذلك فقد أمر جميع المسلمين النازلين بين «دويرو» و«منتاجو» بأن يجلوا عن بلادهم.

ووجَّه «فردينند» بعد ذلك قوته إلى مملكة بلنسية، وعليها ذلك الضعيف المتراخي «عبد الملك المظفر» الذي خلف أباه عبد العزيز سنة (١٠٦١).

وحاصر «القشتاليون» العاصمة، ولكنهم — بعد أن وجدوها منيعة — رأوا أن يلجئوا إلى الحيلة ليخلو العاصمة من الحامية، فتظاهروا بالانسحاب، فخرج البلنسيون في ثياب العيد يتعقبونهم، وهم يظنون أن الانتصار أمر سهل، على أن هذه الجرأة قد كلفتهم ثمنًا باهظًا، فقد باغتهم القشتاليون بالقرب من الطريق المؤدية من بلنسية إلى «مورس» وقتلوا أكثر رجالهم، ونجا ملكهم على ظهر سابح، وكان الاستيلاء على قلعة «باريسترو» وهي من أهم القلاع في الشمال الشرقي بعد نكبة أخرى مروعة.

وقد سقطت هذه القلعة في يد جيش من النورمنديين كان يقوده «غليوم دي منتري» كبير قواد البابا، ويطلق عليه في روايات الفروسية اسم «أوركوني» أي القصير الأنف، وكانت خاتمة المقهورين خاتمة أليمة، فقد سلم جنود الحامية على شريطة الإبقاء

على حياتهم، ولكنهم — حين خرجوا — من الحصن قُتلوا على بكرة أبيهم، ولم يكن حظ العامة أحسن من حظ الجند، فقد أمنوهم أيضًا على حياتهم، وبينما هم يتأهبون للرحيل من المدينة، إذ نظر «غليوم دي منتري» فراعه كثرة عددهم، واستولى عليه القلق والاضطراب، فمنعهم من الخروج وأمر رجاله أن يصفوهم صفوفًا متقاربة، وأعمل فيهم القتل، ولم يكف عن المذبحة إلا بعد أن قتل منهم ستة آلاف رجل، ثم أمر البقية الباقية أن يعود كلٌّ إلى منزله ومعه زوجه وولده، وذهب النورمنديون واقتسموا — فيما بينهم — كل شيء وصلت إليه أيديهم، وأصاب كل فارس لنفسه منزلًا — كما روى ذلك بعض مؤرخي العرب في ذلك العهد — فكان له كل ما في المنزل من أزواج وبنات وأولاد ونقود ومتاع، وكان له بحكم الاستيلاء والأسر أن يفعل برب الدار ما أراد من ضروب القهر، وصنوف التعذيب حتى يضطره للإذعان والاعتراف بما عَساه أن يكون قد أخفاه من مقتنيات وأموال، وكان من الخير الكثير للمسلم أن يقضي نحبه خلال هذا التعذيب؛ لأن حياته كانت مقرونة بما لا يطيق من الألم والتبريح والعذاب المطرد، ومن أشد ما كان يفعله هؤلاء من النكاية والعار والفضيحة للمسلمين أنهم كانوا يهتكون أعراض الزوجات والبنات أمام أزواجهن وآبائهم وإخوتهم وعلى مرأى منهم، وهم موثقون بالسلاسل والأغلال ليكرهوهم على شهود هذه المناظر الفاضحة المخزية، وكان أولئك الأسرى المساكين لا يملكون بإزاء هذه الحالة المخزية المحزنة غير صياحهم وإسبال دموعهم الغزيرة هلعًا وتأثرًا من تلك المناظر التي كانت تتحطم بإزائها قلوبهم، وتنشق لها مرائرهم.

ولم تدم هذه الحوادث طويلًا، فقد كان من حسن حظ المسلمين أن غادر «غليوم» وجنوده إسبانيا عائدين إلى بلادهم، حيث ينعمون بما أصابوه من مغانم وأموال، ولم يبقَ في المدينة غير حامية ضعيفة، وقد أمكنت الفرصة المنذر ملك سرقسطة من الاستيلاء عليها حيث أمده المعتضد بخمس مئة فارس فاستولى عليها في ربيع السنة التالية.

وكان «فرديننند» يواصل جهوده للاستيلاء على بلنسية؛ ولذلك كان مركز صاحب هذه المدينة في نهاية الحرج والخطورة بالرغم من أن صهره المأمون أمدَّه بما في استطاعته من المدد الكافي، ولكن الذي نفَّس عنه هذا الضيق مرض «فردينند» واضطراره للعودة إلى ليون، على أنه — بعد سفر عدوه المفاجئ — لم يدُم سروره، ولم يسكن فزعه، ولم يهدأ روعه، فقد خلعه صهره من المملكة، وأدمجها في مملكته بعد أن اعتقله بعض حصونه،

ولم يمض على هذا العاهل المريض والعدو المفزع الرهيب غير برهة من الزمن يسيرة ثم قضى نحبه، فتنفس المسلمون بموته الصعداء، وقد كان «فرديناند» مثالًا حسنًا، وقدوة صالحة لغيره من الملوك في البسالة والإقدام والتقوى وسلامة الضمير ونقاء الجيب، وختمت حياته الحافلة الرائعة، بخاتمة حسنة رائعة، وذلك أنه حين أسرع بالعودة إلى بلاده وصل إلى ليون يوم السبت ٢٤ ديسمبر فذهب — من فوره — إلى الكنيسة، وصلى فيها صلوات وهبها إلى روح القديس «إيزيدور»، ودخل قصره فلبث فيه بضع ساعات، وبدأ يشعر إلى درجة اليقين أن حينه قد حان، وأن ساعته الأخيرة قد دنت، فعاد — حين أرخى الليل سدوله — إلى الكنيسة حيث كان القساوسة يحيون ليلة عيد الميلاد بترتيلاتهم وأنغامهم الشجية، وبينما كانوا يرتلون الصلاة الأخيرة في سحر تلك الليلة، على نظام الطقوس في طليطلة حسبما كان متبعًا في ذلك الحين، شارك «فرديناند» القساوسة في صلواتهم، ومزج صوته الضعيف بأصواتهم، وطلب إليهم — عند طلوع الفجر — أن يُسمعوه «القداس»، وبعد أن نال سر القربان المقدس خارت قواه، فأقيم إلى سريره، وهو يمشي غير مستمسك معتمدًا على بعض رجال الحاشية، وفي صبيحة اليوم التالي ارتدى ملابسه الملكية، وأخذ إلى الكنيسة فخلع المعطف الملكي والتاج، وجثا على ركبتيه أمام المذبح، وقال بصوت واضح: «لك القوة والملك يا رب، أنت ملك الملوك، لك ملك السموات والأرض، إنني رادٌّ إليك ما أعطيتني من الملك الذي وليته ما شاءت إرادتك، ضارع إليك أن تدخل في وسيع رحمتك روحي الذي طهرته وخلصته من أدران هذا العالم.»

ثم سجد على الأحجار يجأر بالبكاء، ويستغفر من ذنوبه، وأَمَرَّ عليه يده أحد القساوسة فنال المسحة الأخيرة، وسجي بالمسوح، وغطي رأسه برماد، وأخذ يرتقب الموت وهو مملوء إيمانًا ويقينًا وطمأنينة.

وفي الغد «الثلاثاء» أسلم الروح، أو رقد الرقدة الأخيرة الهادئة فكانت تعلو محياه ابتسامة وادعة مشرقة.

وأعقبت هذه الوفاة وفاة أخرى هي بطبيعة الحال أقل شأنًا من الأولى،[١] فقد مات المعتضد يوم السبت ٢٨ فبراير سنة (١٠٦٩) وكان قبل عامين من وفاته قد أدمج قرمونة في مملكته، واقترف جريمة قتل جديدة، إذ طعن بخنجر في يده رجلًا من إشبيلية يُدعى أبا حفص.

وما كان يدور بخلد المعتضد أن أيدي القشتاليين ستمتد يومًا إلى ذلك التاج الذي وضعه على رأسه بقوة الحيلة والخيانة والغدر.

وفي آخر سني حياته امتلأت رأسه بالمخاوف، والأفكار السوداء، وقد تحققت نبوءة بعض الناظرين في ميلاده من المنجمين، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا، وهي النبوءة القائلة إن ناسًا يولدون خارج البلاد يثلون عرش مملكته، وكانت فكرته متجهة دائمًا إلى أن أولئك الذين سيقضون عليها هم البرازلة من البربر المقيمين بجواره، وما زال بهم حتى أفناهم جميعًا، وخيل إليه أنه قهر حكم الكواكب، وتغلب على مخاوف التنجيم، ولكنه بدأ يرى أنه كان مخدوعًا في وهمه هذا، ففي العدوة المقابلة لبر الأندلس على المضيق نزحت طائفة من البربر من الصحراء، وزحفوا على إفريقية فاتحين في سرعة مدهشة، وفي شدة بأس تشبه ما كان عليه سلف الأمة في فتوحاتهم، هؤلاء هم البربر الذين أطلق عليهم اسم المرابطين، وهم الذين كان يتنبأ بظهورهم المعتضد ويتوقع أنهم الفاتحون لإسبانيا في المستقبل، وكانت تساوره المخاوف من جانب أولئك الأقوام، ولا يستطيع بحال من الأحوال أن يمحص الفكرة أو يبدد الأوهام التي كانت تنتابه من جهتهم.

وورد عليه ذات يوم كتاب من «سقوت» صاحب سبتة يقول له فيه: «إن طلائع المرابطين عسكرت في رحبة مراكش فاهتم لهذا النبأ حتى قال له أحد وزرائه: «كيف يزعجك يا مولاي هذا النبأ ويقلقك وبيننا وبينهم المهامه الغبر وأمواج البحر الخضر.»

فقال المعتضد بصوت مختنق حزين: «إني على يقين من أنهم سيصلون إلينا يومًا ما، وربما تشهد بنفسك هول ذلك اليوم، فاكتب من فورك إلى حاكم الجزيرة، ومُرْهُ أن يزيد في تحصين جبل طارق، وأن يكون شديد اليقظة، وعلى تمام الأهبة والاستعداد، وأن يراقب عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من وراء المجاز.»

ثم أخذ يصعد بنظره في بنيه ويصوب ويقول: «ليت شعري من منا ستحل به النكبة أنتم أم أنا؟» فقال ولده المعتمد: «لا بل أنا — جعلني الله فداك — الذي أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت.»

وقبل موته بخمسة أيام ساءت حاله، وأخذ المرض يدب في جسمه، والضعف يتسرب إلى عقله، فاستدعى أحد مغنيه وكان من الصقلب، وأمره أن يغنيه بما شاء من الأبيات، وكان يرمي إلى التفاؤل بما يختاره المغني، ويتفق مع توقيع النغم، فأخذ هذا يوقع ألحانًا تجمع إلى الطرب الحزن والألم في آنٍ واحد، واللغة العربية من أغنى اللغات بهذا النوع.

وكان الشعر الذي اتفق للمغني أن يوقع عليه الغناء يدور حول معنى أن الحياة وأوقات السرور سريعة الزوال، وأنها إلى نهاية وشيكة عاجلة، وأنه ينبغي أن نحتسي المدام، ونمزج ابنة الكرم بابنة المزن.

وكانت القطعة التي لحنها المغني تتألف من خمسة أبيات، ومن غريب الاتفاق أن عدد هذه الأبيات، هو بعينه عدد الأيام التي عاشها المعتضد بعد سماعها، يضاف إلى ذلك أنه بعد مرور يومين على سماعها أي في يوم الخميس ٢٦ فبراير جرح المعتضد في عاطفته البنوية جرحًا داميًا، وقد كان — على قساوة قلبه — شديد الحب لبنيه، فرُزِئ بموت ابنته التي كان يحبها إلى درجة العبادة، وشيعها إلى قبرها يوم الجمعة، وقلبه يتسعَّر حزنًا.[٢]

وبعد أن ووريت التراب وعاد من الجنازة شكا وجعًا في رأسه أليمًا، ودخل القصر وفيه اعتراه نزيف دموي كاد يودي بحياته، وأشار عليه طبيبه بالفصد ولكن المعتضد تمرَّد على طبيبه فأرجأ الفصد إلى الغد، فكان هذا من الأسباب التي عجلت بوفاته حيث اشتد النزيف في اليوم الثاني فانحبس لسانه، ثم لفظ النفس الأخير.

وخلفه ابنه المعتمد الذي سنقدمه للقارئ في الفصل التالي!

الفصل التاسع

ولد المعتمد عام (١٠٤٠) وقلده أبوه بعض الولايات الصغيرة وهو في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وبعد برهة يسيرة ولَّاه قيادة جيش إشبيلية فحاصر «شلب» وفيما هو محاصر لها اتصل به فتى أفاق كانت سنه لا تعلو عن سن المعتمد بأزيد من تسع سنين، وقد واتاه الحظ باتصاله به، ونبه شأنه فيما بعد، ذلك الفتى هو ابن عمار كان مولده في قرية من أعمال «شلب» في بيت خامل الذكر، لا حظَّ له في الرياسة من قديم الدهر، نشأ في مدينة «شلب» هذه صغيرًا، وتعلم فنون الأدب على جماعة من أهلها، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها، وبرع في صناعة الشعر، وما برح يجوب أنحاء الأندلس يتكسب بالشعر، وينظم قصائد المدح، يسترفد بها كل من يتوسم فيه الأريحية والعطاء، لا يخص بشعره الملوك دون السوقة، كما يفعل النابهون من شعراء عصره الذين يرون من الزراية عليهم أن ينظموا الشعر في غير الملوك والنابهين من العظماء.

كان هذا الشاب الناشئ والشاعر المغمور، بنزعته هذه ورثاثة ملبسه وبما يلبسه من جبة صوف طويلة وقلنسوة صغيرة، يهش له ويبش في وجهه أناس، ويعطف عليه ويرثي لحاله آخرون.

وكان يعد من السعادة أن يظفر بسري من أولئك الذين أوتوا حظًّا من الغنى، ونالوا نصيبًا من الثراء، ليعطيه مقابل ما يمدحه به من شعره الذي له قيمته وخطره، فضلة ممَّا أوتي من المال يقنع بها، ولا يزهد فيها.

ومن ظريف ما حدث له في بعض سفراته: أنه ورد «شلب» في وقت مسَّه فيه الضيق، وأجهده الضنك، وهو لا يملك سوى دابته التي لم يجد علفها، والتي مسَّها الجوع، وشفَّها الضنى مثله، فماذا يصنع في أمر ذلك الرفيق الأمين الذي يلازمه في رحله وأسفاره، ويشاركه في آلامه وشدائده، لم ير بدًّا من أن يبعث بشعره إلى رجل من وجوه

أهل السوق بالمدينة، لا حظَّ له من الأدب، ولا علم له بصناعة الشعر، فكانت منزلة شعره عند ذلك التاجر أن ملأ له المخلاة شعيرًا، ووجه بها إليه، والرجل وإن لم يتذوق ما في القصيدة من حلاوة الشعر، فإنه كان مزهوًّا بها، إذ رأى نفسه قد مُدِحَ على لسان أحد الشعراء، وكذلك ابن عمار رأى أن ما وصله به من أَجَلِّ الصلات.

بعد هذه الحالة التي تبين إسفاف ابن عمار في المنزلة وسقوطه إلى هذا الحد، ساعده الحظ وانتهى به صعود الجد إلى أن جعله المعتمد — حين صار الأمر إليه — واليًا على «شلب» وأعمالها، فدخلها يومئذٍ في موكب ضخم وعبيد وحشم.

لم تمح من ذاكرة المعتمد تلك الإقامة الساحرة، والأيام الجميلة والأوقات المرحة التي قضاها بشلب حيث كان معظم أهلها يقرضون الشعر، وحيث كانت تلك المدينة وما زالت تعرف حتى الآن بفردوس البرتغال.

في تلك الآونة لم يكن قلب المعتمد قد تفتَّح للحب بعد، وقد وقعت له بعض وساوس وتخيلات غرامية لم تلبث أن تلاشت دون أن تدع في قلبه مجالًا للاسترسال فيها، وإلى جانب هذا كان يحتفظ بعهد الصداقة الملتهبة التي بينه وبين وزيره ابن عمار ويستسلم لهذه العاطفة القاهرة التي لم يزاحمها أي ميل آخر إلى آخر لحظة.

لم يَنشأ ابن عمار نشأة الأمير في بحبوحة الترف، وغضارة العيش، ونضارة السعادة، وفخامة الملك، بل نشأ على النقيض من ذلك — منذ فجر حياته — تكافحه الأيام وتقل من غربه، وتثبط من همته وعزمه، وترميه الظروف القاسية بخيبة الآمال، ورِقَّة الحال، فكان لهذا أقل مرحًا، وأقل سرورًا وضحكًا، وأقل فتوة وشبابًا، ولكنه فوق هذا كان شاكًّا مرتابًا ساخرًا في بعض نواحيه.

حدث أن الصديقين ذهبَا إلى المسجد يوم الجمعة، والمؤذن يعلن الناس بحضورهم وقت الصلاة، فطرح المعتمد على صديقه شطرًا من الشعر فأجازه، وثانيًا فأجازه، وثالثًا فأجازه، وكانت معاني الشعر تدور حول أن المعتمد يرجو للمؤذن المغفرة لإقراره بالشهادة وتصديقه بالرسالة، وابن عمار يسخر في شعره من المؤذن، ويشك في مطابقة إقراره باللسان، لما ينطوي عليه الجنان.

إن هذا يعد من ابن عمار غريبًا، وهو يفسر لنا مبلغ شكِّه، وعدم ثقته بالناس حيث عرفهم وخبرهم، ولهذا كان يشك حتى في الصداقة الحميمة البالغة التي يكنها له الأمير الشاب في نفسه، والتي لم تنفع كل المحاولات التي كان يحاول بها الأمير أن يزيل ما علق بنفس صديقه من شكوك وريب، وخاصة في مجالس الأنس والأوقات التي تتطلب المرح والسرور فإنه كان يرى فيها يائسًا حزينًا.

ويروون في هذا الصدد حادثة عجيبة، ونادرة غريبة، حرِيَّة بالتحقيق والتمحيص، ولكن يظهر — على كل حال — أن لها ظلًّا من الحقيقة، لأن هذه القصة تقوم على صحتها الشهادات القيمة التي تروى عن المعتمد وابن عمار[١] أنفسهما.

قيل إن المعتمد دعا ابن عمار ليسمر معه ذات ليلة، وبالغ في إكرامه وملاطفته فوق العادة، فإنه لما ارفض المجلس استبقاه المعتمد واستحلفه أن ينام معه تلك الليلة على وساد واحد، وألح عليه في ذلك، فقبل مكرهًا واستسلم نزولًا على إرادته، ولكنه ما عتَّم أن نام حتى سمع هاتفًا يقول له: أيها التعس! إن هذا الذي تنام معه على فراش واحد لا محالة قاتلك. فهب من نومه فزعًا وقد تملكه الرعب، ولكنه قاوم هذا الحلم المروِّع، وطارد تلك الفكرة السوداء وعزاها إلى تأثير النبيذ، ثم رقد ثانية، فعاوده ذلك الحلم المشئوم مرة ثانية وثالثة.

ولما لم يستطع تكذيب هذه الأحلام المتكررة أيقن أن هذا نذير سوء، وأنه وحي سماوي فوق الطبيعة، فنهض من مرقده برفق دون أن يُحدث حركة، وذهب بعيدًا، وأدرج نفسه في حصير، ونام في دهليز القصر عاقدًا النية على اللياذ بالهرب حينما تُفتح في الصباح أبواب القصر، واعتزم أن يركب من أول ثغر ليبحر منه إلى إفريقية.

واستيقظ المعتمد فلم يجد صاحبه إلى جانبه، فصاح بالخدم، فوافاه جميع خدم القصر، وأخذوا يبحثون عنه في كل جانب من جوانب القصر، والمعتمد يتقدمهم بين يديه مصباح، وجاز إلى باب القصر يريد أن يفتحه لينظر هل خرج منه أحد؟ وفي نفس تلك اللحظة التي كان يمر فيها تحرك ابن عمار حركة قسرية، فرأى المعتمد كأن شيئًا يتحرك، فصاح: «ما هذا الذي يتحرك في داخل الحصير.»

فسارع الخدم إليه فأخرجوه من داخل الحصير وهو في حالة يُرثى لها ليس عليه من ملابسه غير سروال، فوقف ترتجف أعضاؤه، وقد احمرَّ وجهه خجلًا، وأطرق برأسه إلى الأرض، فأجهش المعتمد بالبكاء، وقال: «ما الذي حملك أن تزعجنا هكذا يا أبا بكر؟!»

وأراد المعتمد أن يتبين من صديقه سر هذا المسلك الغريب، وأخذه برفق إلى مجلسه الخاص، وأعضاؤه ما زالت ترتجف، ولبث مدة طويلة يحاول كشف هذا السر فلم ينجح.

أما ابن عمار فقد اضطربت أعصابه اضطرابًا شديدًا، وخجل أشد الخجل لبلوغه إلى هذا الحد من الإسفاف والسخرية، وقد تملكه مع هذا الخوف، واستولى عليه الرعب، فكان مرة يضحك، وتارة يبكي.

ولما هدأت أعصابه، وسكن اضطرابه، أفضى إلى المعتمد بسر المسألة تفصيلًا، فتبسم ضاحكًا، وأمسك بيده وضغط عليها متحبِّبًا متوددًا وقال: «إن ما حصل لك لم يكُ إلا

بتأثير الخمر — أيها الصديق العزيز — ومن فِعل أبخرة الخمر المتصاعدة إلى المخ فقد أسلمتك بتأثيرها إلى أن ترى ما سبَّب لك الانزعاج، وما هي في الحقيقة إلا أضغاث أحلام، وهذا كل ما في الأمر، وهل يدور في خلدك أن نفسي تحدثني بأن أقتلك يومًا ما، إني — إن فعلت ذلك — فإنما أنتزع روحي، وأطفئ مصباح حياتي، ثق أني إن قتلتك فإنما أقتل نفسي، والآن يجب أن تزيل هذه الأفكار السوداء، وتمحو أثر هذه الوساوس السيئة، والأحلام الشيطانية من نفسك، فلا تعود تتحدث بها فيما بعد.»

وقد قال بعض مؤرخي العرب المسلمين: وعمل ابن عمار منذ ذلك الحين على أن يتناسى هذه الحادثة فنسيها، ومرت الأيام والليالي على ذلك إلى أن بدأت الرؤيا تتحقق، ووقع ما سنقصه عليك فيما يلي:

جرت عادة هذين الصديقين أنهما يجتمعان في «شلب» لا يفترقان منها إلا إذا غادراها إلى إشبيلية حيث يتوافر لهما في العاصمة الأنيقة الظريفة كل أنواع السرور والمرح واللهو، فإذا خرجا إليها خرجا في زي لا ينم عليهما، وكثيرًا ما كانا يختلفان إلى «مرج القطة» على ضفاف الوادي الكبير للتنزه والتلهي برؤية الناس رجالًا ونساء في ذلك المكان النزه الأفيح، وهنالك وقع المعتمد لأول وهلة في شَرك تلك التي قدر أن تكون شريكته في الحياة، وذلك أنه بينما كان هو وصديقه يستريضان في «مرج القطة» — على عادتهما — إذ مر النسيم على متن الماء فتجعَّد واطرد فارتجل المعتمد هذين البيتين:

تجعد النهر بتر قيص النسيم واطَّرد
سابغة أحكمها داود نسجًا وسرد[٢]

ولم يستطع ابن عمار أن يجيز البيتين، وكانت على مقربة منهما جارية تسمع حديثهما فأجازت البيتين بقولها:

تصلح في يوم الوغى لو أنها ماء جمد
تحسبها قد نسجت من حلق ومن زرد[٣]

فعجب المعتمد إذ رأى فتاة تفوق — في سرعة الخاطر وموهبة ارتجال الشعر — شاعرًا ذائع الصيت كابن عمار، والتفت إليها وحدق بها ناظريه، فراعهُ جمالها الفاتن، ومنظرها الساحر، وطلب إليها في رفق أن تذهب مع أحد الخصيان إلى القصر، فقبلت ولم يلبث أن سارع بالعودة إلى القصر ليستطلع طلع تلك الفتاة الحسناء.

وحضرت الفتاة فسألها المعتمد: «من أنت؟ وإلى مَن تنتسبين؟» فأجابت: «أنا أيها الأمير، جاريتك اعتماد وإن جرت العادة بأن ينادوني باسم «روميكيا» لأنني مملوكة «روميك»»، وأنا بحكم عملي بدالة.»

– «خبريني، هل أنت متزوجة؟»

– «كلا يا مليكي.»

– «هذا حسن لأنني أريد أن أشتريك من مولاك، بل وأقترن بك.»

ومن هذا الوقت أحبها المعتمد حبًّا ثابتًا متواصلًا لم يطرأ عليه تغيير، ولم يعتره نقص أو زوال، وقد أضافت إلى محاسنها كل ما يعجبه من أدب وظرف ورقة، وكانوا يضعونها أحيانًا في صف «ولَّادة القرطبية» أديبة ذلك العصر، وقد تكون المقارنة بينها وبين ولَّادة صحيحة من بعض الوجوه، وغير صحيحة من بعض الوجوه الأخرى، فهي وإن لم تسمُ في المعرفة والأدب إلى درجة «ولادة» التي كانت تُساجل أدباء عصرها، وتتفوق على الكثير منهم، فإنها لم تكن دونها في لطف المحادثة والذكاء، والتندر، وسرعة الخاطر، وحضور الجواب، بل ربما فاقت عليها في محاسنها الذاتية، لصغر سنها إلى حد الطفولة، وسذاجة طبعها إلى حد الغرارة.

هذا إلى ما هي عليه من مرح ونشاط ولباقة، وكانت سعادته بعد أن أصبحت له زوجة في موافقة ميولها وأهوائها — كلَّفه ذلك ما كلَّفه من ثمن — وكان لا ييأس من عمل ما يوافق مرضاتها، وإشباع نزعاتها وميولها، فإنه يعلم أن أيَّ خاطر يمر بقلبها، أو فكرة تستقر برأسها، لا يمكن أن تتحول عنها أو تنفذ.

حدث في يوم من أيام شهر فبراير أنها كانت تطل من خلال شرفات القصر بقرطبة فنظرت إلى قطع الثلج تتساقط مع المطر، وهذا منظر نادر في تلك المدينة التي يندر فيها مشاهدة الثلج، فأخذت دموعها تتساقط على خديها تساقط حب الغمام على الورد الناضر، فسألها المعتمد في لهفة: «ماذا بك أيتها الحبيبة المودودة؟»

فأجابت وهي تنتحب: «تسألني ما الذي بي؟ الذي بي أنك قاسٍ لا ترحم، ظالم غشوم وحشي الطبع، انظر إلى قطع الثلج الناصعة اللينة العالقة بغصُون الأشجار، الواقفة كالدمع الحائر في جفون الأزهار، كم هي بديعة وكم هي رائعة؟ متى يلين فؤادك، وتخلق لي أسباب الطمأنينة والسعادة، وتتركني أذهب في كل شتاء إلى بلد يكثر فيه سقوط الثلج، لتوفر علي التمتع بمجالي الطبيعة الساحرة، ومباهجها الفاتنة؟»

فقال لها: «لا تحزني يا ربيع حياتي، ويا مصدر هنائي وسعادتي، سيكون هذا المنظر أمامك في الشتاء القادم، بل أعدك وعدًا صادقًا أنك ستسرين بمشاهدته هنا في نفس هذا المكان.»

وأصدر أمره في الحال أن تغرس أشجار اللوز في الحدائق المُحدقة بقصر قرطبة، وقدَّر أن تزدهر في فصل الجليد فتبدو زهراتها البيضاء في عين اعتماد كقطع من الثلج تجلل أغصان الشجر، وهو الذي يعجبها وتميل إليه.

ورأت مرة نسوة من المتهنات قد وضعن أرجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن، فدفعها هذا إلى البكاء، فأثَّر ذلك في نفس المعتمد وسألها: «وما الذي يبكيك؟»

فقالت له: «آه إني لتعسة، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحة أيام أن كنت أنعم بكوخي الحقير وأنا سجينة هذا القصر العابس، أسيرة الحياة المقطبة، مثقلة بسلاسل التقاليد، وعادات القصر المملة، انظر إلى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ النهر، وانظر إلى أرجلهن منتعلات بالطين، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن أعجن الطين، وليتني حرمت الغنى والسلطان، وأعطيت الحرية التي أستطيع بها أن أفعل ما أريد.»

فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة: «بل إنك عمَّا قليل ستستطيعين.»

ونزل في اللحظة نفسها إلى فناء القصر، وأمر بإحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الأعطار، ووضع ذلك كله في معجن، وأمر أن يمزج بماء الورد، ويداف ويسحق، إلى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كُنَّ يضربن اللبن، ولما تهيأ له كل ما أراد من ذلك صعد إلى اعتماد وقال لها: «لتتفضلي بالنزول إلى فناء القصر، أنت وجواريك، فإن معجن الطين في انتظارك.»

فنزلت الأميرة إلى ساحة القصر، وخلعت هي وجواريها نعالهن، وصرن يعجن بأقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهُنَّ في مرح وسرور.

وممَّا لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كلَّف المعتمد ثمنًا باهظًا وأموالًا طائلة، وقد كان في استطاعته أن يغضي عن هذه الحادثة، لولا أن زوجته لا تنتهي أهواؤها وميولها عند حد، ولا ترضى بغير تنفيذ رغباتها، وقد حدث ذات يوم أن طلبت شيئًا لم يكن في استطاعة الملك تنفيذه، فغضبت، وصاحت قائلة: «آه! إني جديرة بكل شفقة ورحمة، وإنني بلا ريب أتعس النساء حظًّا، ويشهد الله أنك لم تفعل معي البتة أي شيء فيه إرضائي.»

فقال لها بصوت فيه معنى الحب والرقة والعذوبة: «ولا يوم الطين؟»

فعلت وجنتيها حمرة الخجل ولم تحر جوابا.

وأراني مضطرًّا أن أضيف إلى ما أسلفت أن رجال الدين كانوا يمقتون اسم هذه الأميرة النزقة السريعة الحركة، ولا يجرونه على ألسنتهم إلا مصحوبًا باشمئزاز وكره ديني، وكانوا يعدونها الحائل الوحيد الذي يحول بين الصلاح والهداية وبين زوجها، والعامل الفذ الذي يدفعه بدون انقطاع وراء عاصفة من السرور واللذات تكاد تطوح بالملكة، وكانوا كلما رأوا المساجد خالية من المصلين يوم الجمعة، ألقوا التبعة على لهو المعتمد وفتنته بها، وكانت اعتماد بحكم صباها الطائش، وشبابها النزق، تسخر من صيحة أولئك الشيوخ، ولا تكترث لجلبتهم، وما كانت تقدر في روعها أن أولئك الفقهاء سيصبحون رهيبين يومًا ما.

ولم يكن حب المعتمد لها ليشغله عن صديقه ابن عمار الذي حلَّ من قلبه محلًّا كبيرًا.

واتفق مرة أن نأى عنها، وانصرف للتنزه مع صديقه كالمعتاد، فحداه الشوق أن يرسل إليها رسالة ضمنها الأبيات الستة الآتية:

ا أغائبة الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفؤادِ
ع عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشئون وقدر السهاد
ت تملكت مني صعب المرام	وصادفت ودي سهل القياد
م مرادي لقياك في كل حين	فيا ليت أني أُعطى مرادي
ا أقيمي على العهد ما بيننا	ولا تستحيلي لطول البعاد
د دسستُ اسمك الحلو في طيه	وألَّفت فيه حروف اعتماد

وقد ختم هذه الأبيات الستة التي طرز فيها اسم اعتماد بذكر اسمها في البيت الأخير.[٤]

ثم ختم كتابه إليها بقوله: «سأعود إليك على عجل لأتملَّى برؤيتك إن شاء الله وشاء ابن عمار. فلما سمع ابن عمار الجملة الأخيرة من كتاب المعتمد إلى اعتماد، كتب إليه أبياتًا في المعنى الآتي: «ليس لي مأرب في غير مرضاة مولاي، ولن أحيد عن أمره، ولست إلا كالساري يهتدي بضوئه اللامع، فمرني بما تشاء أطع.»

ولما كان قلب الأمير الشاب متوزعًا بين الصداقة والحب، فإنه لهذا كان يشعر بحياة لذيذة ناعمة، إلا أن صفوها لم يدُم طويلًا، وقد ترنَّقت سريعًا؛ لأن المعتضد رأى ابن عمار

قد استولى على ابنه المعتمد فقضى بالتفرقة بينهما، وحكم بنفي ابن عمار، وقد انقض هذا النبأ على الصديقين كليهما انقضاض الصاعقة ولم يدرِ كل منهما ماذا يصنع، وقد علما أن المعتضد إذا أمضى أمرًا لا يمكن رجوعه فيه، ولا سبيل إلى عُدوله عنه، وعلى ذلك نُفي ابن عمار، وقضى أعوام نفيه المحزنة متنقلًا في مدن الشمال، وبخاصة سرقسطة إلى أن خلف المعتمد على الحكم أباه، وكان في التاسعة والعشرين من عمره.[٥]

فسارع إلى صاحبه وصديقه القديم الذي صحبه من أول عهد الشباب فاستدعاه، وترك إليه اختيار ما يريده من مناصب الدولة المختلفة.

فطلب ابن عمار أن يكون واليًا على «شلب»، ذلك الإقليم الذي ولد فيه ونشأ به، فلم يسعه إلا أن يلبي طلبه ويعطيه هذه الولاية بالرغم من أنه في هذه الحالة سيكون بعيدًا عنه، وبعد أن ودَّع صديقه الحميم جاشت بنفسه ذكريات تلك الأيام المحبوبة التي قضياها معًا في «شلب» وجالت بخاطره خلجات جعلته يتمثل آثارها ومعاهدها البديعة، فقال يخاطب ابن عمار، وقد توجَّه إلى مقر عمله الجديد:

ألا حيِّ أوطاني بشِلْب أبا بكر — وسلهنَّ هل عهدُ الوصال كما أدري

وسلم على قصر «الشراجيب» عن فتى — له أبدًا شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد، وبيض نواعم — فناهيك من غيل، وناهيك من خِدر

وكم ليلة قد بِتُّ أنعم جنحها — بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتي — فعال الصفاح البيض والأسل السمر

وليل بسدِّ النهر لهوًا قطعتُه — بذات سوار مثل منعطف البدر

نضت بُردها عن غصن بانٍ منعم — نضير كما انشقَّ الكِمَامُ عن الزهر

وقصر الشراجيب هذا متناهٍ في الحسن، مشرق الساحات، مباهٍ بمحاسنه غيره من القصور الشامخات.

ودخل ابن عمار «شلب» في موكب فخم يحفُّ به عبيد وحشم وبلغ موكبه من الأبهة والجلال ما لم يبلغه موكب المعتمد نفسه أيام أن كان واليًا عليها، ولكنه خفَّض من غلوائه، وطامن من كبريائه، وأتى بعمل يدل على النبل، وحسن التقدير، والاعتراف بالجميل، فإنه وقت دخوله المدينة سأل عن التاجر الذي واساه في أيام محنته، وأعطاه علف بغلته، أحَيٌّ هو؟ فقالوا: إنه حيٌّ، وكان ابن عمار قد احتفظ بتلك المخلاة عينها

التي كان التاجر قد ملأها شعيرًا لعلف بغلته، فملأها هو دراهم وبعث بها إلى التاجر وقال لرسوله، قل له: «لو كنت ملأتها برًّا، لكنَّا ملأناها لك تبرًا.»

وبقي واليًا عليها مدة لم تطل؛ لأن المعتمد لم يستطع البقاء دونه فاستدعاه ليقيم بقصره، وعيَّنه كبير وزرائه.

الفصل العاشر

كان المعتمد ووزيره مفتونين بالشعر، فأصبح قصر إشبيلية ملتقى الشعراء الفحول، ولم يكن للمتشاعرين مجال في هذا الميدان، ولا حَظَّ لهم في رفد الخليفة أو مكافأته، فقد كان الخليفة نقَّادًا بارع الملاحظة دقيق الحس، خصب الشاعرية، وكان يتذوق الأسلوب تذوق الشاعر الصادق الشعور، وكان رأيه فيصلًا في الحكم على الشعراء وتعرف موقع كل لفظ في قصيدهم، فإذا ظفر الخليفة بشاعر موهوب أقبل عليه وأدناه من مجلسه وأغرقه بكرمه إغراقًا.

ولقد سمع — ذات يوم — هذين البيتين:

قلَّ الوفاء فما تلفيه في أحد ... ولا يمر لإنسان على بال
كأنه عندهم عنقاء مغربة ... أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فسأل المعتمد: «لمن هذان البيتان؟»

فأجابوه: «هما لعبد الجليل بن وهبون.»[1]

فصاح المعتمد: كيف أن شاعرًا من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء والخدمة، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافة، وبادر في الحال بإعطاء عبد الجليل مئة مثقال. وحدث مرة أخرى أن أحد الظرفاء من الصقالبة، وفد على قصره بعد أن غلب على البلاد «روچيه» النورمندي وصادف أن جيء لديه بقطع ذهبية من مسكوكات دار الضرب، فنفح منها الصقلبي بدرتين، ويظهر أن هذه المنحة على ضخامتها لم تكفه، فحفزته الرغبة وحركه الطمع أن يمد عينيه إلى تمثال نادر مصنوع من الرخام على صورة جمل صغير مطعوم بالجواهر الثمينة، وأراد ذلك الصقلي أن ينفذ رغبته الملحة

فقال: «إنك أيها الملك، قد نفحتني بهذه المنحة العظيمة التي أعجز عن شكرها، ولا أقوى على حملها، وأجدني لعظمها في حاجة إلى جمل يحملها إلى داري.»

فقال له المعتمد وقد أعجبته هذه المحاولة الطريفة: «دونك الجمل، وشأنك به وما تريد.»

ومن المحقق الذي لا يرتاب المرء فيه أن المعتمد يهتز أريحية، ويفيض إعجابًا بكل حاضر البديهة ذكي الفؤاد شاعرًا كان أو غيره، ولو كان لصًّا من قطاع الطريق، وممَّا يقوم دليلًا على صحة ذلك حكاية البازي السنجابي، والبازي السنجابي — وقد حدثوني عنه بهذا اللقب — ما برح مدة طويلة أكبر لص في عصره، وكان بلاء عظيمًا قد أوقع الرعب والرهبة في سكان البوادي إلى أن أوقعه القدر المتاح في قبضة العدالة، فقضى عليه المعتمد أن يصلب على مرأى من الفلاحين في الطريق الأعظم، ليشهدوا ما حلَّ به من خزي ونكال، ولما كان اليوم الذي حكم عليه فيه بالصلب قائظًا، والحرارة خانقة، فقد قل مرور الناس بالطريق، وكان قد وقف بأسفل الخشبة التي صلب عليها اللص زوجته وبناته يبكينه بدموع حارة ويقلن صارخات: «يا أبتاه على من تتركنا إذا نفذ فيك سهم القضاء، إننا بلا شك سنموت بعدك جوعًا.» وكان البازي السنجابي — على وحشيته وفظاعته — غاية في الشفقة والحنو على أسرته، فتوزعت نفسه فكرة مصيرها إلى الشقاء، وصيرورتها إلى الفاقة والمتربة.

ومر عليه في هذه اللحظة تاجر غريب الدار يحمل على بغل عدلين من القماش وبعض بضائع أخرى جاء ليبيعها في القرية القريبة فاستوقفه، وقال له: «إني أيها السيد، كما ترى في موقف من أسوأ المواقف، وفي حالة يرثى لها، وفي وسعك أن تقوم لي بخدمة جليلة تعود عليك قبل غيرك بأجدى الفوائد، وأجزل العوائد.»

فسأله التاجر: «وما عسى أن تكون تلك الخدمة التي أقوم لك بها؟»

– «هل تعرف ذلك الجب البعيد هناك؟»

– «نعم أعرفه.»

– «حسن جدًّا، فاعلم أني في اللحظة التي استولت عليَّ فيها الغفلة وتركت نفسي أقع في قبضة أولئك الشرطة الملعونين، ألقيت مئة مثقال من الذهب في ذلك الجب، فإذا سمحت نفسك ورضيت أن تنطلق، وتبذل كل ما في وسعك في استخراجها، فإني أهبك نصفها متى ظفرت بها، وها هي زوجتي وبناتي يقمن على حراسة بغلك حتى تفرغ من هذا العمل الذي فيه إنقاذ أسرة من مخالب الجوع.»

واستهوت التاجر شهوة الحصول على الربح، فمضى سريعًا، وربط عند حافة الجب حبلًا، ودلى نفسه فيه حتى وصل إلى قاعه، ولما اختفى في البئر أسرع البازي السنجابي وقال لزوجته: «أسرعي واقطعي الحبل، وخذي البغل وخفي مسرعة أنت والبنات، واهربن جميعًا واختفين عن الأنظار.»

وتمَّ كل هذا في أقل من لمح البصر، وطلع التاجر من البئر بخفي حنين فوجد بضاعته قد استقلت المرأة وبناتها معها، وأدرك أنه لا يستطيع اللحاق بهن، فجعل يصيح كالمأخوذ، ولكون صيحاته ذهبت هباء في ذلك الجب العميق، وفي بسيط من الأرض لا أنيس به ولا مغيث، فقد مضى وقت طويل دون أن يجد أحدًا يتقدم لإنقاذه، وبعد لأي خرج من سجنه، وتلاحق الناس لإنقاذه من ذلك القرار البعيد الغور في طبقات الجب السفلية وهم يسألونه في دهشة عن سبب تدليه في ذلك الجب، وهو يشكو سوء الطالع، ويندب حظه المشئوم، ويرسل في إثر بضاعته الضائعة دموعه الغزيرة الحارة، ويصب جام غضبه ولعناته المتتابعة على ذلك اللص المصلوب البالغ النهاية في الخبث والدناءة والمكر والخديعة، وسرعان ما ذاع الخبر وتناقله الناس في المدينة حتى بلغ أسماع المعتمد نفسه الذي أصدر أمره في الحال بإنزال البازي السنجابي من فوق خشبة الصلب، والإتيان به في حضرته.

ولما مثل بين يدي المعتمد صوب فيه بنظره وصعد ثم قال: «من المحقق الذي لا ريب فيه أنك أكبر محتال، وأدهى ماكر خبيث عرف حتى الآن، إذ إن ترقب الموت الذي لا محالة واقع بك، لم يصدك على الالتجاء في هذا الوقت الرهيب إلى المكر السيئ، والإيقاع بذلك التاجر المسكين في حبالتك.»

فأجابه اللص: «عفوًا يا مولاي الملك! إنك لو علمت أية لذة تلك التي يشعر بها الإنسان عندما يكون لصًّا، لوضعت هذا التاج عن رأسك، وألقيت معطفك هذا الملكي عن منكبيك، ولما كنت إلا لصًّا مثلي.»

فأغرب الملك في الضحك، وقال: «ألا لعنة الله عليك من لص داهٍ خبيث، ولكن أَصِخْ إليَّ بسمعك لأتحدث إليك مليًّا، وسأكون في حديثي معك جادًّا لا هازلًا، هب أني وهبتك الحياة، ورددت إليك حريتك السليبة، وهيأت لزوجك وبناتك أسباب العيش من طريق شريف، وأجريت عليك راتبًا يكون لك ولعيالك سدادًا من عوز أكنت تصلح من نفسك، وتثوب إلى عقلك ورشدك، وتعدل عن هذه المهنة الخطرة الحقيرة الممقوتة؟»

فقال: «إن الإنسان — في سبيل إنقاذ حياته — يفعل كل ما في استطاعته فعله، وإذا كان إنقاذ حياتي — وهي أثمن شيء عندي — متوقفًا على استقامتي وصلاحي

وابتعادي عن الشرور والمفاسد، فإني أعدك أيها الملك، وعدًا صادقًا أن أكون عند ظنك بي، فهل يسرك مني هذا؟»

وقد بر البازي السنجابي بوعده حين عينه المعتمد رئيس شرطته، وأوقع الرهبة والرعب في نفوس أولئك اللصوص الذين كانوا زملاءه بالأمس، وبدل الخوف الذي كان ينتاب الفلاحين من قبلُ أمنًا.

ثم مضى المعتمد في حياة الترف والمرح والسرور، لا يصرف في مهام الدولة إلا القليل من وقته، وقد كان يقول — في بعض شعره — ما معناه: «إن الإنسان إذا غالط نفسه، وأراد أن يكون عاقلًا فلن يكونه.»

وكان السماط الممدود، والولائم الكثيرة تستنفدان كثيرًا من وقته وماله، وكان يصرف ما بقي من وقته داخل قصره مع القيان، والغيد الحسان، وهذا ما كان يجعله دائمًا يظهر بمظهر أهل الظرف والخلاعة والعشق، وليس معنى هذا أنه زهد في حب اعتماد فقد كان على العكس من ذلك مفتونًا بها مدلهًا بحبها.

ولكن تبعًا للقانون الغريب الذي يخضع له الحب في البيئات الإسلامية يستطيع الرجل — إذا أراد ألَّا يُرمى بالخيانة عند حظيته — أن يغضي لهذا الغرض عن بعض ميوله الغرامية، وأن يتصل بعشيقاته الفينة بعد الفينة، دون أن تجد ما تقوله أو توجه إليه فيه لومًا، وهي مع هذا موقنة بأنها وحدها الحظية عند زوجها المهيمنة على قلبه.

وقد كانت زوجه الرومية المحبوبة الحسناء فاتنة بديعة، وكان إذا شرب معها وجد للنبيذ رائحة ونكهة لذيذة لم تجرِ العادة بها مع غيرها.

وكانت «لونان» تجلس إليه إذا فرغ من مجالس لهوه، وتفرَّغ لمطالعة أشعار المتقدمين أو أراد أن يقرض هو شعرًا، فإذا أرسلت الشمس أشعتها من النافذة، قامت لتحول بينه وبين الشمس لعلمها — كما يقول الملك — «إنه لا يكسف الشمس من بين الكواكب غير القمر.»

ولما كانت هذه اللؤلؤة الثمينة، والحسناء الفريدة، صعبة المراس، شرسة الطبع، فقد كانت كثيرًا ما تغضب ويتحمل المعتمد كل عناء في تسكين غضبها بتحقيق ما يوافق هواها، ويتفق مع مرامها، ومن ذلك أنها غضبت عليه مرة، فكتب يعتذر إليها، فردت عليه ردًّا حسنًا ولكنها لم تضع اسمها في صدر الكتاب، كما يقضي به رسم الكتابة، فأسف المعتمد لذلك، وحكم بأنها لم تصفح بعد، وإلا لكانت بدأت الكتاب باسمها، طبقًا لما هو معروف في العادة، وقال: إنها تعرف أنني أعبد اسمها، وأتعشق كل حرف من

حروفه، فما بالها لم تصدر به جوابها إليَّ؟ إنها إذن لا تزال غاضبة عليَّ، وقد قدرت في نفسها أنه سيقبل الاسم بمجرد رؤيته على الطرس، فاستحسنت ألا يراه؛ لأن في تقبيله شفاءه من سقم أَلَمَّ به، وما أظرف أن تكون هذه الشيطانة الساحرة والغادة المحبوبة هي سبب الداء والدواء معًا، فقد توجه الملك إلى مولاه بالدعاء، يرجوه أن يتفضل عليه بنعمة يعدها من أسبغ النعم، وهي أن يطيل سقمه، حتى يرى دائمًا عند سريره هذه الظبية الموردة الخدين، الأرجوانية الشفتين.

(وبعد) فقد يكون مخدوعًا من يخيل إليه أن المعتمد قد أغمض عينيه عن إتمام أعمال أبيه وجده؛ لأنه وإن لم يكن عنده من الأطماع ما عندهما، فقد عمل هو على الأقل ما حاولا عبثًا أن يعملاه ففشلا، فمن ذلك أنه في السنة الثانية من حكمه، ضم قرطبة إلى مملكته، ولا ننكر أن والده هو الذي مهد له الطريق، وأن الظروف قد ساعدته كثيرًا، ففي سنة (١٠٦٤) أي فيما قبل ذلك بست سنوات تنازل رئيس الجمهورية أبو الوليد بن جهور — لشيخوخته — عن الرياسة لولديه عبد الرحمن وعبد الملك وعهد لولده الأكبر بكل ما يتعلق بالشئون المالية والإدارية، وعهد إلى ولده الثاني — الذي كان يعده ضعيفًا — بالقيادة العامة، وقد نهج كل شيء منهجًا حسنًا طوال وزارة الوزير الماهر ابن السقا، فقد كان هذا الوزير رجل المملكة لهذا العهد، وكانت شخصيته تبعث الرهبة والاحترام في نفوس جميع أعداء الجمهورية الألداء، سواء أكانوا ظاهرين أم كانوا يعملون في الخفاء، وفي مقدمتهم المعتمد نفسه، الذي أدرك أنه لكي يصل إلى تحقيق غرضه يجب أولًا أن يبدأ بإسقاط هذا الوزير.

فسعى بينه وبين عبد الملك بن جهور بأن جعله موضع ريبة يحول حوله كثير من التهم والشكوك، وقد نجح في هذه السعاية التي أفضت في النهاية بالقضاء على ابن السقا بالموت، وقد كان لهذا الحادث أسوأ الأثر، وأوخم العواقب على الجمهورية، حيث انفرط عقدها بخروج الموالين لابن السقا، من القواد والجند من الجيش، وأصبح عبد الملك ممقوتًا عند الرعية، بغيضًا إليهم لفظاعته وقسوته وتهاونه، وبقي يحتفظ بما بقي من نظم الجمهورية قائمًا على قديمه، إلى أن تزعزعت أركان سلطته فجاء المأمون صاحب طليطلة وحاصر قرطبة في خريف سنة (١٠٧٠).

ولَمَّا لم يجد عبد الملك ما يدافع به عن نفسه لأنه أصبح بلا جيش، ولم يبقَ عنده سوى مئتي فارس في حالة سيئة للغاية، عمد إلى المعتمد يطلب نجدته، فحقق رغبته،

وأرسل إليه نجدات كبيرة، اضطر معها جيش طليطلة للانسحاب، ولم يكن انسحاب عدوه فوزًا، بل بالعكس كان خذلانًا، فان رؤساء جند إشبيلية أخذوا يعملون في الخفاء على تنفيذ الخطط السرية التي أفضى المعتمد بها إليهم، وتم الاتفاق فيما بينهم وبين القرطبيين على خلع عبد الملك والاعتراف بسيادة ملك إشبيلية، واستمرت المؤامرة في طي الكتمان، وعبد الملك لا يدري ما بيَّته الجند له إلى أن حدث في صبيحة اليوم السابع من ارتداد المأمون بعسكره، وإعلان عسكر إشبيلية أنهم عائدون إلى بلادهم، أن تصاعدت صيحات الجنود وهم على أهبة الرحيل منذرة بالعصيان، وطرقت أذنيه لأول وهلة بوادر الشر، ونظر فإذا الجند الذين جاءوا لنجدته، قد أحاطوا هم وعامة الشعب بقصره، وفي أسرع من ارتداد الطرف قبضوا عليه وعلى أبيه، وسائر أفراد أسرته، ونادوا بالمعتمد ملكًا على قرطبة وأخذ آل جهور أسرى، واعتقلوا في جزيرة «شلطيش» ولم يبقَ أبو الوليد الشيخ على قيد الحياة بعد هذه النكبة سوى أربعين يومًا.

وقد تحدَّث الملك الشاعر عن هذا الفتح بحديث ملك شأي الملوك الصيد، وخطب قرطبة الحسناء بالبيض والأسل فلم تمتنع عليه كما امتنعت على غيره، وذلك حيث يقول:

من للملوك بشأوِ الأصيد البطل	هيهات جاءتكمُ مهدية الدول
خطبتُ قرطبة الحسناء — إذا منعت	من جاء يخطبها — بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلًا حتى عرضت لها	فأصبحت في سريِّ الحلي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس	كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم	هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولم ير المأمون أن ما وقع يعد هزيمة، وذلك لأنه كان مصممًا على الاستيلاء على قرطبة في فرصة أخرى مهما كلفه ذلك من ثمن.[٢]

ولم يمض قليل من الزمن حتى جاء برفقة حليفه الأذفونش السادس فخرب بسيط المدينة وما حولها، ولكنَّ عبادًا حاكم المدينة الشاب أحد أبناء المعتمد من حظيته الرومية الحسناء كان غافلًا عمَّا يدبر من الدسائس للاستيلاء عليها، فقد أخذ ابن عكاشة على عهدته أن يضمن للمأمون أخذ المدينة التي ينشدها، وابن عكاشة هذا رجل فظيع فاتك سفاح، وكان قبل ذلك من اللصوص المتحرمين بالوعر والجبل، وهو مع هذا فارس ذكي

حديد القلب، نابه الشأن وفوق ذلك فإنه قد خبر قرطبة وعرفها معرفة جيدة؛ لأنه لعب فيها دورًا هامًّا فيما سبق.

فلما عين حاكمًا لبعض الحصون، بدأ يخلق الدسائس وينشئ المؤامرات لقرطبة، ولم يكن من الهين السهل عليه أن يغامر في مخاطرة جريئة مثل هذه، لولا أن الكثير من المواطنين كانوا مستائين من سير الأعمال، ومن الخطط الرديئة العوجاء الملتوية.

وفي الحق أن الأمير عبادًا كانت تبدو عليه مخايل البشر، ويحدوه الأمل، ولكنه في هذه السن الصغيرة لم يكن في استطاعته أن يتولى بنفسه أزِمَّةَ الحكم، ويضطلع وحده بأعباء المملكة، لذلك كانت السلطة في يد رئيس الحامية محمد بن مارتن الذي يظهر أنه من أصل مسيحي، كان هذا الرجل جنديًّا باسلًا، وفاتكًا دمويًّا قاسيًا، مما حمل القرطبيين أن يمقتوه ويبغضوه، وقد حامت الشكوك والريب حول الكثير من سكان قرطبة في أن تكون لهم علاقة بابن عكاشة، واتصال بمحاولاته الخفية.

على أن هذا الأخير لم ينجح نجاحًا تامًّا في إلقاء الستار على أعماله وتدبيراته الخفية، فقد لاحَظَ أحد حراس المدينة أن هذا الرجل الذي له سابقة في اللصوصية، كان كثيرًا ما يتردد على أبواب المدينة ليلًا ويحادث بعض جنود الحامية؛ ممَّا حمل على الريبة، وجعل الشبهة القوية تحوم حوله، وقد سارع هذا الحرسي وأبلغ عبادًا الحادث، ولكن الأمير لم يُعْنَ كثيرًا بالأمر ولم يأبه للحادث، وأحال المبلغ على رئيس الحامية محمد بن مارتن وهذا أحاله على حرسي صغير دون درجته، والنتيجة أنهم تواكلوا، فكان كل واحد يلقي المسألة على عاتق الآخر لاتخاذ الحيطة والتدبير، ولم يقم أحد بواجبه، ولم يُتخذ في المسألة تدبير حازم.

ونشط ابن عكاشة للتجسس في كل ليلة، ولم يكف عن التربص وتحين الفرص إلى أن أمكنته الفرصة، في يناير سنة (١٠٧٥) من دخول المدينة هو ورجاله في ليلة شاتية حالكة الظلام، شديدة الرياح والعواصف، وبادر قصر عباد وقد غاب عنه الحراس، وكان على وشك أن يقتحم عليه باب القصر، لولا أن الحرسي الموكل بالباب أسرع إلى إيقاظ الأمير فنهض ونفر شرذمة قليلة العدد من السودان والعبيد، وخرج بنفسه على صغر سنة لملاقاة عدوه والوقوف في وجهه، ودافع دفاع الأبطال ببسالة وبأس حتى أكره المهاجمين أن يجلوا عن دهليز القصر، وأخذ يطاردهم، وهنا زلت به قدمه فابتدره أحد رجال العصابة، وانقض عليه فقتله، وبقيت جثته في الطريق العام عارية بالعراء، لأنه

حين أوقظ من نومه بغتة، لم يجد من الوقت ما يكفي لارتداء ثيابه، وانفتل ابن عكاشة برجاله يقصد دار رئيس الحامية، ولم يدر في خلد هذا الرجل، ولا كان عنده كبير ظن في أنه يُعتدى عليه ويهاجم في مثل تلك اللحظة التي اقتحموا عليه فيها داره وهو بين شدو القيان، ورقص الغيد الحسان، وكان دون عباد ذلك الأمير الحدث شجاعة، فلم يكد يسمع صلصلة السيوف في فناء داره، حتى سارع إلى مخبأ اختبأ فيه، ولكنه سرعان ما عرف حين كشف فقبض عليه، وقتل في المساء.

وفي غلس الصبح قبل إسفار الفجر بينما كان ابن عكاشة يطوف بأنحاء المدينة على دور العظماء والنبلاء يدعوهم للانضمام إليه كان بعض الأئمة ذاهبًا لتأدية الصلاة في المسجد، فرأى جثة عباد وقد فارق الحياة ملقاة على الأرض بين الطين والوحل، فرحم مصرعه، ونزع ثيابه ورماها على جسمه العاري، ولم يكد الشيخ يمضي لسبيله حتى جاء ابن عكاشة بين صيحات الفرح والسرور على نحو ما يحدث في المدن الكبرى في إبان الثورات، وما وقف على عباد وهو بهذه الحالة حتى أمر بفصل رأسه من عنقه وأن ترفع على رمح، ويطاف بها في أنحاء المدينة، ولم ير ذلك جنود الحامية حتى ألقوا السلاح، وركنوا إلى الفرار، وجدوا في الهرب.

ثم جمع ابن عكاشة أهل قرطبة بالمسجد الجامع، وبدأ يأخذ البيعة للمأمون، وكان كثير منهم لا يزال متعلقًا بالمعتمد يكن له الإخلاص والوفاء، ولما كان الخوف عظيمًا وشاملًا لم يستطع أحد أن يتخلف عن البيعة.[٣]

ومرت أيام ثم جاء المأمون بنفسه ودخل قرطبة وهو يتظاهر بمنتهى الإعجاب والتقدير لابن عكاشة ويبالغ في إكرامه والحفاوة به، والثناء على حسن بلائه، حتى ليظن من رآه أنه قد أولاه ثقة لا حد لها، وهو في الواقع يمقته كل المقت، ويرى فيه اللص القديم، والقاسي المجرم الأثيم، والفاتك الذي لا يرضيه من خصمه غير سفك دمه، وأن يسقيه كأس الحمام بيده، كما فعل في ذبح عباد الحدث؛ لهذا كله أخذ المأمون يبحث عن سبب يتعلل به، أو حيلة يتذرع بها للقضاء على خصمه الخطر خلسة من غير أن يحدث في المملكة ضجة، ولكنه لم يجعل ذلك حديثًا مكتتمًا في نفسه، بل كان كثيرًا ما يكاشف بهذا الرأي خواصه وجلساءه، حتى إن ابن عكاشة انصرف من مجلسه ذات يوم، وجعل هذا يصعد الزفرات، ويتبعه بنظرات حادة من عينين يتطاير منهما الشرر، ويجمجم بكلمات أعقبت شؤمًا ونحسًا، وأراد بعض الموالين لابن عكاشة أن يدافع عنه، ويصفه بحسن الفعال، وجميل الخلال، فقال المأمون: دع عنك هذه الكلمات الجوفاء،

فإن رجلًا لا يحتفظ بالجميل، ولا يرى حياة الملوك في نظره إلا رخيصة، غير خليق أن ينال ثقتهم، أو يبقى في خدمتهم.

ولم يمضِ على دخول المأمون قرطبة ستة شهور حتى قُتِلَ مسمومًا أي بعد انقضاء شهر يونيو سنة (١٠٧٥) وقد اتهم بقتله أحد المترددين على مجلسه، ولكن هل يمكن ألَّا تكون لابن عكاشة يد في هذه الجريمة؟ هذا ما لا يكاد يصدقه العقل.

ولنترك الآن حديث الاستيلاء على قرطبة وما أعقبه من الحوادث، وننتقل إلى قصر إشبيلية، ولنتصور مبلغ ما وصلت إليه حال المعتمد حين نمى إليه ذلك الخبر المشئوم المزدوج: سقوط قرطبة، وموت ابنه عباد المرزوق له من سريته الرومية الحسناء التي أولع بحبها ولعًا شديدًا، ومع أن نزعة الانتقام، والأخذ بثأر ابنه المقتول كانت تجيش بصدره، فقد كان إلى جانب هذا الشعور شعور آخر، وهو تقدير يحسه في أعماق نفسه لذلك الشيخ الفقيه الذي مر على عباد مقتولًا فنزع بدافع العاطفة النبيلة رداءه، وألقاه على جثمانه العاري، وهو يأسف إذ لم تُتَحْ له فرصة مكافأة ذلك الشيخ النبيل على حسن صنيعه، وكثيرًا ما كانت تتحرك في نفسه هذه الذكرى الأليمة فيقول:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... سوى أنه قد سل عن ماجدٍ محض

ومضت ثلاث سنين ضاع فيها ذلك المجهود العظيم الذي بذله ليسترد قرطبة وليثأر لولده المقتول من ابن عكاشة إلى أن قيض الله له الاستيلاء عليها عنوة في يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر سنة (١٠٧٨)، وفي الوقت الذي دخل فيه المعتمد من باب قرطبة كان ابن عكاشة قد بارحها من الباب الآخر، ولم يتركه المعتمد يفلت من يده بل بعث في الحال خيالة في أثره تمكنوا من اللحاق به، ولما أدركه الطلب، وأيقن أنه لا مطمع له في الصفح من ملك موتور بقتل ابنه، أراد على الأقل ألَّا يبيع حياته رخيصة، فكَرَّ على أعدائه وقاتلهم قتال المستميت، إلى أن ذهب ضحية وفرة العدد، وأمر المعتمد بجثته فصلبت على خشبة وإلى جانبها كلب.

وأعقب غزو وفتح قرطبة فتح كورة طليطلة وأراضيها الممتدة بين الوادي الكبير ووادي آنه، وهذا في الحقيقة يعد نجاحًا كبيرًا باهرًا، ونحن لو حاولنا أن نقارن بين المعتمد وغيره لرأيناه أقوى ملوك الطوائف، وأكثرهم نفوذًا وامتداد سلطان، ولكنه مع هذا لم يكن أكثر منهم استقلالًا، إذ كان هو عليه أيضًا أن يؤدي الإتاوة، فأما أولًا فكان يدفعها «لغرسية» ثالث أولاد «فردينند»، وأما ثانيًا فكان يدفعها لملك غالسيا،

وأما ثالثًا فكان يدفعها للأذفونش السادس، من حين أن استولى على مملكة الشقيقين «سانكو» و«غرسية» وكان الأذفونش ملكًا مزعجًا متعبًا في طلب الإتاوة، إذ هو لا يقنع بما يتقاضاه من إتاوة سنوية فحسب، بل كان في الفينة بعد الفينة يفرض ضرائب على الممالك التي يدفع لها أبناء ملوك العرب جزية، فإن لم يؤدوها، وإلا هددهم بالاستيلاء على بلادهم.

وحدث مرة أنه جمع جيشًا قويًّا، وتقدم به لغزو بلاد إشبيلية فاستولى على المسلمين الرعب، وشملهم حزن يفوق الوصف، وذلك لما كانوا عليه من الضعف البالغ الغاية، بحيث كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وكان كبير الوزراء ابن عمار هو رجل الدهاء الوحيد الذي لا يتسرب اليأس إلى قلبه، وكان يعلم أن جمع جيش إشبيلي لملاقاة الجيوش المسيحية، وردهم عن البلاد، وهم باطل، وحلم كاذب.

ولكنه رأى أن الأذفونش يعرفه لأنه كثيرًا ما كان يتردد على خيمته، وأن من السهل عليه لما عرف عنه من الطمع والميول الخاصة أن يتغلب عليه بقوة الحيلة والدهاء، وعلى هذه الناحية عوَّل ابن عمار ولم يشأ أن يضيع الوقت في التسلح، وأخذ الأهبة للحرب والقتال، وأخذ يتردد على معسكر العدو، ومعه رقعة شطرنج غاية في الإتقان والفخامة لا يوجد لها نظير عند الملوك، وكانت صورها من الآبنوس والعود والصندل، وأرضيتها غاية في الإبداع مموهة بالذهب، وذاع خبر الشطرنج حتى وصل إلى أسماع الأذفونش على لسان نبيل من المقربين إليه، فطلب الأذفونش ابن عمار وسأله:

– هل تجيد لعب الشطرنج؟

فأجابه ابن عمار وكان طبقة فيه:

– اشتهر عني بين أصدقائي أني أجيد لعبة الشطرنج.

– قيل لي إن عندك شطرنجًا بديعًا معدوم النظير.

– نعم هو ذاك.

– هل يمكن أن أراه؟

– لا مانع من ذلك، ولكن على شريطة أن نلعب معًا، فإذا غلبتني كان الشطرنج لك، وإذا غلبتك فلي حكمي، وبعد مراجعة وحوار بينه وبين خاصته قبِل الشرط، وجيء بالشطرنج فكان موضع إعجاب الأذفونش ودهشته لجماله ودقة صنعه، وصاح من فرط دهشته وصلَّب إكبارًا له واستحسانًا لصنعه، وقال: «واللهِ ما خطر ببالي قط أن في وسع إنسان أن يبدع في صنع شطرنج بمثل هذه الدقة الفنية العجيبة.»

وظل ينعم النظر، وقد اشتد إعجابه بالشطرنج ثم قال لابن عمار: «أعد عليَّ ما قلت، واذكر ما اشترطته علي.» فأعاد ابن عمار عبارته الأولى فقال الأذفونش: «إني لا ألعب على شرط مجهول، إنك تستطيع أن تسألني أمرًا ليس في استطاعتي أن أجيبك إليه.»

فأجابه ابن عمار بفتور وطوى رقعة الشطرنج وأمر أن تحمل إلى خيمته وقال: «شأنك أيها الملك وما تريد، أنا لا ألعب إلا على هذا الشرط.» وانفصل الاثنان دون اتفاق ولم يدرك ابن عمار الملل، ولم يحل اليأس بينه وبين الوصول إلى إتمام هذه الحيلة السياسية، فقد عمد إلى بعض نبلاء القشتاليين، وأَسَرَّ إليهم بأنه إذا ربح الدور لا يطلب مستحيلًا، ووعدهم بمبالغ طائلة إذا هونوا على الأذفونش الأمر، وكانوا في عونه، فاستهوتهم هذه الوعود البراقة، وخلب ألبابهم بريق الذهب، واستوثقوا من الوزير المسلم، وقطعوا على أنفسهم عهدًا بأن يكونوا في صفه، وكان الأذفونش شديد الميل إلى اللعب لثقته من نفسه يتحرق رغبة في الحصول على الشطرنج، فحسنوا له أن يلعب معه، وقالوا له: ماذا عسى أن يطلب هذا مهما اشتط في الطلب؟! وأنت ملك ملوك النصارى فلا ينبغي أن تظهر أمام هؤلاء بمظهر العجز، ومتى غلبته وفزت عليه ظفرت بشطرنج يحسدك عليه الملوك، وهب أنك خسرت واشتط في الطلب فإنا نرده إلى صوابه.

وما زالوا به حتى اقتنع بما أشاروا به عليه، فبعث إلى ابن عمار يبلغه أنه على استعداد لملاعبته، ولما حضر قال له: «قد قبلت شرطك فهيا نلعب»، فقال: حسن، ولكن ليحضر فلان وفلان لرجال سماهم من نبلاء القشتاليين، ليكونوا بمثابة شهود على اللعب، فقبل الملك وأخذا يلعبان إلى أن انتهى الدور بِغَلَب ابن عمار غلبًا ظاهرًا لا مطعن فيه لأحد، فالتفت ابن عمار إلى الملك وقال: «الآن لي أن أطلب حسب الشرط ما أريد.»

فأجابه الملك: «بلا شك، فماذا تطلب؟» قال: «أطلب أن تعود إلى مملكتك، وتكف عن القتال.»

فهاج هائج الأذفونش وأخذ يذهب ويجيء في خيمته، وهو يخطو خطوات واسعة، ثم جلس، ثم نهض قائمًا، وهو في أشد حالات الهياج والقلق، ثم قال لجماعة النبلاء من القشتاليين الذين غرروا به: «ها أنا ذا قد وقعت في الشرك، وأنتم كنتم السبب، وهذا أخوف ما كنت أخافه من طلبات هذا الرجل، لولا أنكم طمأنتموني، وأنا الآن أجني ثمرة مشورتكم المقوتة.»

وبعد صمت دام لحظات قال: «وما الذي يعنيني من شرط التزمت به لهذا الرجل، أنا لا أحفل بأمر مثل هذا البتة، وسأواصل زحفي.»

فقال القشتاليون: «إن في هذا رجوعًا عمَّا قطعته من العهد على نفسك، ومساسًا بالشرف، وهل تحب أن يتحدث الناس عنك — وأنت ملك ملوك النصارى — أنك نقضت عهدك، ورجعت في قولك؟»

وبعد لأيٍ هدأت ثائرة الأذفونش وسمحت نفسه في النهاية أن يقول لهم: «سأفي بمضمون الشرط، وأنجز ما وعدت به، ولكني لا أرجع بجنودي إلا بعد أن آخذ الجزية عن هذا العام مرتين.»

فقال ابن عمار: «سيكون أيها الملك ما تريد.»

وبادر ابن عمار فحمل إليه مبلغ الجزيتين، وهكذا نجى الله المسلمين من الخوف بتدبير هذا الوزير الكبير ومهارته.

الفصل الحادي عشر

لم يقنع ابن عمار بما وفق إليه من إنقاذ مملكة إشبيلية من مخالب الأذفونش ورد عادية هذا الطاغية عنها، بل رغب في أن تمتد حدود المملكة وتتسع رقعتها، واتجهت أطماعه إلى ولاية مرسية التي كانت من قبل قسمًا من مملكة زهير ثم من مملكة بلنسية ولكنها كانت مستقلة في العصر الذي نتحدث عنه الآن، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ملكها، والمدبر لشئونها، وهو من أصل عربي ينتسب إلى قبيلة قيس، وكان ملكًا طائل الغنى، ضخم الثروة، قد دخل في حوزته نصف المملكة، وكان — مع غناه الطائل — مثقفًا خصب الذهن، حصيف الرأي، ولكنه مع كل هذه المزايا لم يكن كثير الخيل والجند، ممَّا جعل الاستيلاء على بلاده ميسورًا وسهلًا، وقد لاحظ ذلك ابن عمار.

وفي سنة (١٠٧٨) مر بمرسية لمقابلة «الكونت دي برشلونة ريمون بيرنجيه» الثاني المعروف باسم «كاب دي توب» وإنما سمي كذلك نظرًا لغزاره شعره، وإنما عرج على هذا الكونت ليخفي السبب الحقيقي الذي من أجله مر بهذه الجهة، ولكي يهتبل هذه الفرصة ارتبط بروابط الصداقة مع بعض أعيان مملكة مرسية الذين علم أنهم كانوا في حالة استياء من ابن طاهر أو أنهم على استعداد للخيانة والانقلاب متى اشترى ضمائرهم بالمال.

ولما كان في حضرة «ريمون» عرض عليه عشرة آلاف مثقال ذهبًا لقاء مساعدته بجنود من عنده لفتح مرسية فقبل الكونت الاقتراح، وتعاقد معه على أن يكون ابن المعتمد الذي يتولى قيادة جيش إشبيلية رهينة عنده، حتى يصله المبلغ المتفق عليه، وسلم الكونت ابن أخيه لابن عمار كرهينة وضمان لتنفيذ شروط المعاهدة، وكان المعتمد يجهل نص الاتفاق الذي يجعل ابنه رهينة عند الكونت، وضمانًا لوصول المبلغ، وابن عمار كان

على يقين من وصول المبلغ في الوقت المعين، فلا محل للخوف من تطبيق هذا النص، وليس ثمة ما يوجب بقاءه رهينة عند «ريمون» ما دام المبلغ يصل في الوقت المحدد.

وتم الاتفاق، واجتمعت جنود إشبيلية بجنود «ريمون» وزحف الجيش المتحد لمهاجمة ولاية مرسية المستقلة، ولما كان من عادة المعتمد التهاون، ترك الأجل المضروب موعدًا للدفع يمر دون أن يصل المبلغ في موعده، فترجح عند الكونت أن ابن عمار خدعه، فاستشاط غضبًا، وأمر بإلقاء القبض على ابن عمار وابن المعتمد قائد جيش إشبيلية وحاول جيش إشبيلية إنقاذهما، فهُزم واضطر إلى الاندحار.

وكان المعتمد لا يزال في طريقه إلى مرسية مع ابن أخي الكونت وحاشيته، وقد أبطأ به السفر، فلم يكن قد جاوز بعد ضفاف «الوادي اليانع» وكان النهر في إبان فيضانه فلم يكن قد عبره، وثمة صادفه بعض فلول جيشه على الضفة الأخرى للنهر، ومعهم فارسان يحملان إليه رسالة من ابن عمار فاقتحما بجواديهما النهر، وأبلغا المعتمد اعتقال «ريمون» لابنه ولوزيره، وأن هذا الأخير بعثهما إليه يريد منه أن يتعجل خلاص السجينين، وإطلاق سراحهما، بتنفيذ شروط الاتفاق، وأشار إليه أن يبقى حيث هو، فلم يقو فؤاده على احتمال هذه الكارثة ولم يطق صبرًا، وقلق على مصير ولده، ووضع ابن شقيق «ريمون» في السلاسل والأغلال.

ومضى على هذه الحال عشرة أيام، دخل فيها ابن عمار في جوار «جاين» فأطلق سراحه، وجاء إلى المعتمد ولكنه لم يستطع المثول بين يديه تفاديًا من غضبه، وتلطف فأرسل إليه يقول:

أأسلك قصدًا أم أعوج عن الركب ... فقد صرت من أمري على مركب صعب
وأصبحت لا أدري أفي البعد راحتي ... فأجعله حظي أم الحظ في القرب
إذا انقدت في أمري مشيت مع الهوى ... وإن أتعقَّبْه نكصت على عقبي
على أنني أدري بأنك مؤثر ... على كل حال ما يزحزح من كربي
أهابك للحق الذي لك في دمي ... وأرجوك للحب الذي لك في قلبي
أيظلم في وجهي لذا قمر الدجى ... وتنبو بكفي صفحة الصارم العضب
حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه ... وليس له — غير انتصاحك — من حَسْبِ
وما جئت شيئًا فيه بَغْيٌ لطالب ... يضاف به رأي إلى العجز والعجب
سوى أنني أسلمتني لملمة ... فللت بها حدِّي وكسرت من غربي

وما أغرب الأيام فيما قضت به ... تريني بعدي عنك آنس من قربي
أما إنه لولا عوارفك التي ... جرت جريان الماء في الغصُن الرطب
لما سمت نفسي ما أسوم من الأذى ... ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبي
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة ... وأسأل سقيَا من تجاوزك العذب
فإن نفحتني من سمائك حَرْجَفٌ ... سأهتف: «يا برد النسيم على قلبي!»

ولما كان المعتمد يشعر أنه هو الذي جرَّ على ابن عمار وابنه الراشد ما وقعا فيه، لم يسترسل في غضبه، واحتفظ بصداقة ابن عمار ورق له ورد عليه بهذه الأبيات:[١]

لدي لك العتبى تراح من العتب ... وسعيك عندي لا يُضاف إلى ذنبي
وأعزز علينا أن تصيبك وحشة ... وأنسك ما ندريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بي، وتعدَّه ... إلى غيره فهو الممكن في القلب
قريضك قد أبدى توحُّش جانب ... فراجعت تأنيسًا وعلمك بي حسبي
تكلفته أبغي به لك سلوة ... وكيف يعاني الشعر مشترك اللب

واطمأنَّ ابن عمار لهذه الأبيات، وأهوى إلى قدمَي الملك يريد تقبيلهما، ورجاه أن يقدم للكونت ابن أخيه والعشرة الآلاف ذهبًا، حسب الاتفاق في نظير أن يطلق سراح ابنه الراشد، ولكن «ريمون» طمع في أكثر من المبلغ المتفق عليه، فاشتط في الطلب، ولم يقبل عشرة الآلاف المشروطة، بل طلب ثلاثين ألفًا ذهبًا.

ولم يكن المعتمد يحمل كل المبلغ المطلوب، فأمر بضرب مسكوكات أدخل في تركيبها عناصر زائفة، ولحسن حظه لم يدرك «ريمون» مبلغ ما فيها من الغش فقبلها، وأطلق سراح الراشد ابن المعتمد.

وما زال ابن عمار — على الرغم من نجاحه الشبيه بالخذلان، ومحاولته الأولى المنطوية على الإخفاق — متطلعًا إلى مرسية طامعًا في أخذها، وقد زعم أن كتبًا تواردت عليه من كبار زعماء مرسية تبعث عنده عظيم الأمل في النجاح المحقق، وأخذ يحسن للمعتمد غزوها حتى سمح له أن يذهب على رأس جيش إشبيلي لحصارها، وعند وصوله إلى قرطبة بقي فيها أربعًا وعشرين ساعة حتى ينضم إليه الخيالة من جند المدينة، وأمسى ليلة وجوده بها في قصر ابن المعتمد الحاكم على المدينة، وبات يحادثه ليلته كلها، والأمير

مسرور بحديثه، معجب بوفرة ذكائه، شاعر بجاذبية قوية نحوه إلى أن انبثق الفجر، فجاء أحد الخصيان يعلن بطلوع الفجر، فنظر إليه وارتجل ما معناه: «هذه ليلة قد أمضيناها مع الأمير في سرور، وقطعناها في حبور، وقد دامت وضاءة الجبين مشرقة المحيا، بطلعته البهية، وغرته المضية، فهي ليلة كلها بالأمير صبح، فماذا تعني بالفجر أيها الأحمق؟»

واستأنف السير في الصباح إلى أن وصل إلى حصن بلج أطلقوا على هذا الحصن اسم زعيم من عرب الشام الذين نزلوا في هذا المكان في القرن الثامن للميلاد، وكان على الحصن رجل عربي من قبيلة بلج يدعى ابن رشيق فبادر إلى استقباله، ودعاه للنزول بقصره، فقبل الدعوة، ورأى من الحفاوة والفخامة وأسباب المرح والسرور، ما جعله يواليه ثقة بالغة لم يسئ الرجل وضعها، بل سار مع صديقه الجديد إلى أن وصل الجيش إلى مرسية وضرب الحصار على «مولا»، ولم يدم الحصار طويلًا حتى سلمت وكانت طريق وصول المؤن إلى أهل مرسية، فكان سقوطها خسارة فادحة لهم مما جعل ابن عمار لا يشك في أنها على وشك التسليم، وقد ترك «مولا» في حراسة كتيبة من الفرسان بقيادة ابن رشيق وعاد بسائر الجيش إلى إشبيلية.

ولم يكد يلقي بها عصا التسيار حتى وردت عليه كتب عضده ومساعده ابن رشيق يخبره فيها أن المجاعة قد أضرت بأهل مرسية ضررًا بليغًا، وأن طائفة من أهلها من ذوي النفوذ والجاه قبلوا أن يساعدوا المحاصرين لقاء الحصول على مراكز مهمة في الدولة، وعلى هدايا نادرة نافعة، فقال ابن عمار حينئذٍ: «سترد إلينا الأخبار غدًا أو بعد غد مبشرة بأن حامية مرسية قد سلمت.» وقد صدقت نبوءته، وتحققت أمنيته، فإن فريقًا من الخونة من أهل المدينة قد فتحوا أبوابها، فدخل ابن رشيق وتسلمها واعتقل ابن طاهر وأخذ بيعة جميع الأهالي للمعتمد.

وبلغ ابن عمار ما تم على يد ابن رشيق فامتلأ قلبه سرورًا، وطلب إلى المعتمد أن يأذن له في اللحاق بمرسية، فلم يتردد في الإذن له بذلك، واعتزم أن يغمر جماعة من المرسيين بالهدايا، فصحب معه عددًا من الخيل بسروجها ولجمها أخذها من الإصطبلات الملكية، وأضاف إليها عددًا من البغال حملها صناديق ملئت بالحلل النفسية والثياب، وقد بلغ عدد الأفراس والبغال زهاء مئتين، وسار في طريقه إلى مرسية في موكب حافل بين دق الطبول، وخفق الإعلام، وكان يعرج على كل مدينة يمر بها، ويدع فيها من الصناديق الملكية ما هو برسم أهلها.

ودخل مرسية في يوم وصوله إليها بمظهر عادي، وفي الغد أجري له استقبال فخم برز فيه لأهل المدينة بروز الملوك الفاتحين، وقد وضع على رأسه تاجًا مشرفًا مثل الذي يلبسه عادة مولاه في الحفلات الكبرى، وقد بدأ يستبد بأمر المملكة، فكان يوقع على رقاع الشكوى بتوقيع خاص به، ويغفل اسم المعتمد.

إن هذا المسلك الشاذ الدال على الزهو والإعجاب والاعتداد بالنفس والاستبداد بشئون المملكة الجديدة جعل ابن عمار كثائر على مولاه، وهذا رأي المعتمد واعتقاده فيه، ولكنه لم يظهر بمظهر الغاضب الحانق عليه، بل استسلم ليأس وحزن كامن في النفس، وبدأ يشعر أن حلم الصداقة اللذيذ الذي يرجع ابتداء عهده إلى خمس وعشرين سنة قد تلاشى الآن، وأنه كان مخدوعًا في ذلك الميل القلبي الكاذب؛ فصداقة ابن عمار القديمة، وظهوره دائمًا بمظهر الخل الوفي، والصديق الحميم الذي لا يفصم عُرا صداقته تطاول الأيام، والصاحب المخلص النزيه المجرد من العلل والغايات، كل أولئك إذن لم يكن سوى كذب ورياء وخبث ونفاق.

ولعل المعتمد كان واهمًا في تأثيم ابن عمار وتجريحه وإساءة الظن به إلى هذا الحد، ومما لا ريب فيه أن الفكرة الخاطئة الأثيمة فكرة الثورة على مولاه وولي نعمته لم تكن لتمر بخاطره البتة، والذي جعل الريب والشكوك تحوم حوله من جانب المعتمد هو زهوه المفرط الذي بلغ به إلى حد الجنون، ولم يكن من ضعف الخلق، وفتور المودة، وعدم الشعور بأثر النعمة، بحيث يدفع صداقة المعتمد وينسى ما له عنده من يدٍ، وما طوَّقه به من جميل، بل الواقع الذي لا يرتاب فيه أحد أنه كان يحب مليكه حبًّا صادقًا يدل عليه ما نظمه فيه بعد تغيره عليه من أشعار تفيض بالحب والإخلاص والولاء.

وقد نطقت أشعاره الكثيرة، وقصائده التي كان يدفع بها هذه التهم والظنون عن نفسه، بأن ولاءه لم يتغير، وأن طبعه لم يتحول، وأن حبه لأعز الأشياء عليه، ومنها نفسه التي بين جنبيه، أقل بكثير في قوة التأثير، وصدق الشعور، من حبه الصادق القوي للمعتمد.

وما يدرينا لعل ظروفًا غير هذه الظروف لو كانت هيأت لهما الاجتماع ساعة يتحدث كل منهما فيها إلى صاحبه، ويفضي إليه بدخيلة نفسه، ويتناجى فيها قلبان طالما ائتلفا، ما يدرينا لعل هذه الساعة لو أتيحت لكانت كافية، للتوفيق بين هذين الروحين المتمازجين، والقضاء على تلك الوساوس والمخاوف التي أوغرت صدر الملك على

وزيره؟ إن من بواعث الأسف أن تتسع مسافة الخُلف بينهما وأن يحمل الحقد والحسد جماعة من الإشبيليين للإيقاع بابن عمار والسعاية والدس له، وتأويل كل عمل وكل كلام وكل حركة تصدر عنه تأويلًا ينطوي على الخبث والوقيعة، وإظهاره دائمًا بالمظهر البشع الشنيع.

هؤلاء الحسدة الجبناء استولوا على لب المعتمد وعقله، وهم الذين يذكرهم في شعره كثيرًا، وينسب إليهم تغيير قلب مليكه عليه، ومن بينهم وزيره ابن الشاعر الكبير أبي الوليد بن زيدون الذي كان له أكبر نفوذ في القصر، والذي يرجع إليه السبب الأكبر في إيغار صدر المعتمد عليه، وإحاطته بكل أنواع الشكوك والريب من حين دخل مرسية بإذنه، وتمكن هذا من خلق أسباب القطيعة بينهما، وهناك خصم آخر ليس أقل من هذا خطرًا، وهو ابن عبد العزيز ملك بلنسية وصديق ابن طاهر وقد كان ابن عمار على أثر دخوله مرسية يحاول أن يصطنع ابن طاهر صاحب مرسية المخلوع ويستميله إليه بكل أنواع الحفاوة والتكريم، وقد أرسل رسولًا عرض عليه كثيرًا من الحلل الفاخرة ليختار منها ما يروقه ويعجبه، وكان ابن طاهر — لحدة طبعه، ومزاجه الناري — قد هزل جسمه من جراء فقد ولايته، فلما جاءه الرسول قال: «ارجع إلى سيدك ومولاك ابن عمار وقل له: إنني لا أقبل من هداياه سوى جبة الصوف الطويلة، والقلنسوة الصغيرة الحقيرة.» وقد بلغته هذه الرسالة وهو بين خواصه وحاشيته، فسقط في يده، وأخذ يعض بنان الندم أسفًا وغمًّا، وأدرك ابن عمار مغزى ما يقوله ابن طاهر وأنه يرمي بكلامه هذا إلى زيه المضحك المزري الذي كان يلبسه أيام بؤسه وخموله، وأيام أن كان ينشده أشعاره يبغي بها التكسب، وقد أسرَّها ابن عمار في نفسه ولم يغتفرها له، وأصر على أن ينتقم لنفسه من هذه الضربة الأليمة التي ثلمت شرفه، وخفضت من غلوائه، وغضت من زهوه، وقد أحفظته هذه الجرأة من ابن طاهر وتحولت نواياه من جهته، وأمر به فسجن في قلعة «منتاجو».

وأخذ ابن عبد العزيز يراسل المعتمد في شأن ابن طاهر وإخراجه من السجن، فقبل رجاءه، وبعث إلى وزيره الأكبر في إطلاق سراحه، فأهمل ابن عمار أمر المعتمد وأبى أن يفك اعتقاله، وساعد ابن عبد العزيز على إخراجه من السجن، وتمكن من الفرار، ومضى إلى بلنسية ليقيم بها في حماية ابن عبد العزيز، فغاظ ذلك ابن عمار وغمَّه ونظم في هذه

المناسبة شعرًا يحرض فيه أهل بلنسية على الثورة والخلاف على ملكهم ابن عبد العزيز ويحثهم فيه على خلع نيره، والاستعاضة عنه بملك آخر، أي ملك كان يرفع عنهم ما نزل بهم من حيف، وحل بهم من ظلم، وظل يهجوه فيه هجوًا مقذعًا، ويرمي حرمه بأشنع السباب، وأفظع القذف، ويغريهم في آخر القصيدة بهدم قصور بني عبد العزيز وسلب أموالهم وكنوزهم، وترك خرائبها آثارًا ناطقة بخزي الدهر، وعار الأبد.

واتصلت هذه الأشعار بالمعتمد فضاعفت حنقه عليه، وحفزته لأن ينظم في ابن عمار شعرًا هازئًا صاخبًا يذكر فيه أوليته، ويقارن بين حاله في أيام بؤسه وخموله، وحاله الآن وقد وصل إلى درجة ينازع فيها ولي نعمته السلطان، وسر بنو عبد العزيز بهذه القصيدة سرورًا لا يقدر، أما ابن عمار فاغتم لذلك غمًّا شديدًا، وبدأ من فوره ينظم شعرًا يناقض فيه شعر المعتمد حشاه بالهجاء والمثالب وعرض فيه لشأن المعتمد مع اعتماد وقذف زوجاته، وكشف عن عيوبه وفضائحه، ولم يطلع أحدًا على هذه القصيدة التي نظمها وهو في ثورة غضبه سوى نفر من أصدقائه الذين يثق بهم ومن بينهم يهودي يتجسس لابن عبد العزيز كان يثق به أيضًا، ولم يكن متهمًا عنده.

وقد حصل اليهودي بأيسر كلفة وأقل عناء على نسخة من القصيدة مكتوبة بنفس خط ابن عمار وقدمها للأمير صاحب بلنسية وهذا كتب في الحال كتابًا إلى المعتمد من طيه القصيدة، وأرسله إليه بواسطة الحمام الزاجل.

ومن هذه اللحظة التي اطلع فيها المعتمد على الرسالة والقصيدة أصبح التوفيق بينهما أمرًا مستحيلًا، فلا المعتمد ولا اعتماد ولا بنوهما في مكنتهم جميعًا أن يغتفروا لابن عمار هذه السقطة التي كبا فيها كبوة لا قيام له بعدها، وعثر عثرة لا يقيله منها أحد، ومن ذا الذي يستطيع أن يمحو عار ذلك السباب الجارح، والعهر الفاحش، وقد حان حين ابن عمار وجاء وقت الاقتصاص منه، وليس المعتمد هو الذي يباشر الاقتصاص منه بنفسه، بل هناك آخرون قد تعهدوا له بذلك وهم له بالمرصاد.

وانصرف ابن عمار إلى مباهجه ولذاته، ولم يكن ليكترث للأمر أو يفطن لما يدور حوله، أو يقدر في حسابه أن ابن رشيق سيقلب له ظهر المجن، ويخونه بمساعدة خصمه العنيف ملك بلنسية وقد ثاب إلى رشده وفطن للأمر، ولكن بعد أن فاتت الفرصة، ومضى الوقت، فلم يشعر إلا والجند — بتحريض ابن رشيق — جاءوا في حال هياج وثورة وصخب مطالبين بأعطياتهم المتأخرة، ولم يكن في استطاعة ابن عمار في هذا الظرف أن

يشبع نهمتهم، أو يجيبهم إلى ما طلبوه، فتوعدوه بتسليمه إلى المعتمد إذا هو عجز عن الوفاء لهم بما يطلبون، وهنا عرته رجفة، وأيقن بالهلاك، ولم ير بدًّا أمام هذا التهديد والوعيد إلا أن يفلت من أيديهم، ويسارع إلى اللياذ بالفرار.

والتجأ — بعد فراره — إلى الأذفونش ليحتمي به، وليجد منه عونًا على فتح بلنسية وقد ظهر له أنه كان واهمًا فيما قدره، بعد أن خيب الأذفونش أمله، وجعل كلامه دبر أذنه، وبان له أن ميله إلى جانب ابن رشيق كان لقاء الأموال والهدايا التي قدَّمها له، وقد كاشفه الأذفونش بقوله: «أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص، فاللص الأول قد سرق، وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرقه، وجاء الثالث فسلب من الثاني ما سرقه من الأول.»

لم يَرَ ابن عمار أن أمله يتحقق في ليون فتحول إلى سرقسطة وهناك اتصل بخدمة صاحبها المقتدر ولكنه لم ير في قصره — من الروعة وأبهة الملك — ما كان يراه في قصر إشبيلية فأنف من البقاء هناك، وزهد في عمل يغض من مركزه السياسي، ويحط من قيمته الاجتماعية، فمضى إلى «لاردة» حيث يقوم على الحكم المظفر شقيق المقتدر فقوبل بحفاوة بالغة، ثم بدا له أنه سيكون في «لاردة» أكثر عزلة وانقطاعًا عن العالم الخارجي، فعاد إلى سرقسطة حيث خلف المؤتمن أباه المقتدر على عرش المملكة.

هذا الاضطراب والتقلقل أورث ابن عمار كثيرًا من الملل والسآمة، وجعله يشعر بالفشل، وخيبة الأمل، وتركه ينظر إلى حاضره ومستقبله، وقد جلله سوء الطالع بسحابة سوداء مظلمة، فكان يتلمس — في تضاعيف هذه الأوقات المنكودة، والساعات المنحوسة — لحظة مريحة يطرد بها عن نفسه الفتور والألم، ويزايل فيها الكسل والملل، وعرف أن أحد أصحاب الحصون امتنع في حصنه، وتمرد على المؤتمن فطلب منه أن يعهد إليه في إخضاعه وقهره فخرج في سرية قليلة من الفرسان، ووصل إلى الحصن، وكان منيعًا لقيامه على قمة جبل، فراسل صاحب الحصن، ورجاه أن يسمح له بدخول الحصن هو ورجلان من خدمه، ولم يشك صاحب الحصن في حسن نيته، ولم يسئ به الظن، وكان ابن عمار قد أوعز إلى تابعيه أنهما إذا عاينا صاحب القصر يصافحه ويماشيه جنبًا لجنب، سارعا إليه فأغمدا في صدره سيفيهما، وتمت الحيلة وقتل صاحب القصر، وسلم الجناة من إلقاء التبعة عليهم، وسر المؤتمن من ذلك سرورًا لا يقدر، وأراد ابن عمار

أن يضيف إلى هذه الفتكة فتكة أخرى، يجدد فيها حمى نشاطه السياسي، فظن أنه بنفس هذا الأسلوب الوحشي المنطوي على الختل والغدر يكفل للمؤتمن أن يستولي على «شقورة».

وكانت هذه القلعة أشد مناعة من سابقتها، لقيامها على قمة جبل يتعذر تسلقه، ولمناعتها، وتوعر طريق الوصول إليها، احتفظت باستقلالها، بينما نرى المقتدر قد استولى على دانية التي امتلكها سراج الدولة ردحًا من الزمن، ولما قضى نحبه أراد بنو سهيل وهم الأوصياء على بنيه، أن يساوموا في «شقورة» ويعطوها لبعض الملوك المجاورين، فعهد ابن عمار إلى المؤتمن أن يستخلصها له بنفس الطريقة التي استخلص بها الحصن المتقدم، ولتنفيذ هذه الخطة الخطرة سار هو وثلة من الجند إلى بني سهيل، وطلب منهم أن يسمحوا بمقابلته، ولكن عوضًا عن أن يوقعهم في الشرك الذي نصبه لهم، فقد قدر له أن يقع هو نفسه في ذلك الشرك، وذلك لأن أولئك النفر ممن أساء إليهم ابن عمار في مرسية وناصبهم وقومهم العداء.

وطريق الوصول إلى هذا الحصن المنيع كان كثير الوعورة والتعرج، وإذا بلغه أحد فلا بد أن يستعين على الوصول إليه، والاستقرار في داخله بقوة ساعديه، وقد وصل ابن عامر وشريكاه في المغامرة الأولى إلى ذلك المكان الرهيب الخطر، وفي أقل من ارتداد الطرف جذبوه إلى أعلى الحصن، وما كادت تستقر قدماه على الأرض حتى أحاط به الجند، وصاحوا بزميليه أن يجدا في الهرب، وإلا قتلهما الرماة بالسهم، فانحدرا مسرعين، وطفقا يعدوان حتى أتيا سرقسطة وأبلغا الجند أن ابن عمار وقع أسيرًا، فركبوا يبغون نجدته، ولكنهم وجدوا المكان صعب المرتقى، ورأوا الحصن أمنع من عقاب الجو، فعادوا من حيث أتوا، بعد أن أيقنوا أنه لا سبيل إلى نجدته وإنقاذه من مخالب أعدائه بني سهيل الذين اعتقلوه في الحصن، وأودعوه في غيابات سجن لا خلاص له منه، وبقي على سوم الشراء لديهم حتى يبذل في فك اعتقاله من ملوك وقته من يدفع أغلى ثمن، وكان المعتمد هو الذي غالى في دفع ثمنه، وتمت له الصفقة فيه، فأرسل ابنه الراضي في جماعة من الحرس لأخذه من صاحب «شقورة» وأمرهم أن يبالغوا في الاحتياط حتى لا يفلت من أيديهم، وجاءوا به إلى قرطبة أسيرًا، ودخلها الوزير التاعس مكبلًا بالسلاسل والأغلال حاسر الرأس منزوع العمامة، وقد أركبوه بغلًا بين عدلي تبن، وبعد أن طافوا به في أنحاء المدينة على هذه الحال من التعاسة والسخرية، أدخلوه القصر حيث مثل بين يدي المعتمد فانهال عليه لومًا وتقريعًا، وإقذاعًا وسبًّا، وأخذ يعدد أياديه عليه، ويحصي

عليه جرائمه وهو مطرق الرأس، لا ينبس ببنت شفة، إلى أن فرغ المعتمد من كلامه، فكان من جواب ابن عمار أن قال: «لا أنكر شيئًا مما يقوله مولاي، ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات، فضلًا عمن ينطق، ولكن عثرت فأقل، وزللت فاصفح.»

فقال المعتمد: «هيهات! إنها عثرة لا تقال، وزلة لا تُمحى.»

وجعل نساء القصر يعبثن به، ويرمينه بكل لفظ شائن، وسباب جارح، وإنما نلن منه بسبب تلك القصيدة التي هجا بها اعتماد وغيرها من أميرات القصر، ثم أمر به فأحضر إلى إشبيلية بين هزء الجمهور وسبابهم وسخريتهم ولعناتهم، وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف «بالمبارك» طال فيه حبسه واعتقاله، ومع كل هذا فقد مرت عليه ظروف كان يؤمل فيها أن ينال عفو المعتمد والراشد ابنه هو الذي كان يفتح أمامه طريق الأمل، وقد رق له هذا الأمير وعطف عليه لكثرة ما كان يبعثه إليه من قصائد يحشوها بالتنصل والاعتذار، وكثيرًا ما كانت ترد الرسائل إلى المعتمد من الراشد وغيره من رجال الدولة في طلب العفو عنه، وهو الذي كان يحفزهم بما كان يكتبه إليهم وهو في سجنه، إلى أن ثقل على المعتمد كثرة ما يرد عليه من الرسائل، فأمر أن يمنع عنه ما يتمكن به من الكتابة، وقد أعطي — بأمر المعتمد — ورقتين كان طلبهما، كتب في إحداهما قصيدته المشهورة التي يتوسل بها إليه، وقد رفعت إليه في المساء عقب الانتهاء من وليمة، ولما أنشدت بين يديه أدركته عليه رقة، فأمر به فأتي به إليه ليلًا وهو في بعض مجالس أنسه، فجاء يرسف في قيوده، فجعل يعدد عليه مننه ويعيب عليه من جديد إنكار الجميل، وجحود النعمة، فما كان جوابه إلا البكاء، وهملان الدمع، واجتلاب كل ألفاظ الرقة، وكل ما يمكن أن يزرع في قلب المعتمد الرأفة والحنان، فما زال به يستعطفه حتى عطفته عليه سابقته، وما كان بينهما من قديم الصداقة والصحبة، وخاطبه بكلام يدل على الصفح تلويحًا، ولا يدل عليه تصريحًا، فاطمأن بعض الشيء، ولم يدرِ أنه كان مخدوعًا في شعور المعتمد نحوه، فهو وإن كان محتفظًا ببعض الذكريات القديمة التي تعطفه عليه، وتجعله يرثي لحاله إلا أن هناك مسافة بعيدة بين ما هو ميل وعطف، وبين ما هو عفو وصفح، وقوي عنده الظن خطأ في أن الحظ سيواتيه، وأن السعادة ستعاوده، ولم يستطع أن يكتم سروره، فبعث بكتاب إلى الراضي يخبره فيه أن المعتمد قد وعده بالخلاص.

وكان بحضرة الراضي — حين وصل إليه الكتاب — قوم يكرهون ابن عمار ويضمرون له الشر، وسرعان ما ذاع الخبر في المدينة، وعرفه ابن عيسى وابن زيدون من وزراء المعتمد وكثر المرجفون وابن زيدون واجم مشرد الفكر، قد بات ليلته تلك ضيق الصدر، يخشى أن يتحقق الخبر، فتسقط منزلته ويكون لابن عمار المحل الأول من الاعتبار، لا بل هو الموت عنده، وفي صباح ليلته هذه لم يستطع أن يذهب إلى القصر كعادته في الوقت المحدد، إلى أن أرسل إليه المعتمد فدخل القصر، واستقبل أحسن استقبال، فسري عنه حين علم أن المعتمد لا يزال ناقمًا على ابن عمار وأن موقفه بإزائه لم يتغير، وقد كثر الإرجاف، وتوالت الإشاعات حول ما دار بين المعتمد وابن عمار ونشروه في المدينة أقبح نشر، وعلقوا عليه بزيادات قبيحة أحفظت المعتمد، فأرسل لابن عمار، وقال له: «هل أخبرت أحدًا بما كان بيني وبينك البارحة؟»

فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد لأحد خصيانه: اذهب إليه، وقل له: «الحديث الذي دار بيني وبينك أمس كان بيننًا سرًّا مكتتمًا، فما الذي أذاعه في الخارج؟»

فذهب إليه الخصي وعاد يقول: «يصر ابن عمار على إنكاره، ويقول إنه لم يقل لأحد شيئًا.» فقال المعتمد: عُد إليه، وقل له: «الورقتان اللتان طلبتهما أمس كتبت في إحداهما القصيدة، فماذا صنعت بالأخرى؟»

فعاد الخصي وقال: «يقول: إنه سوَّد فيها القصيدة.»

فقال المعتمد: «عليَّ بالمسودة إذن!»

وهنا لم يستطع ابن عمار أن يتمادى في إنكاره، بل قال بصوت متهدج تخنقه العبرة: «الورقة الأخرى كتبت فيها إلى مولاي الراضي أذكر له فيها ما وعدني به مولانا الملك من الإفراج عني.»

وعلى أثر هذا الاعتراف الرهيب غلا الدم في عروق المعتمد، وقام مغضبًا، وصعد إليه وبيده أداة قاتلة من آلات الحرب كان أهداها له الأذفونش فلما عاينه ابن عمار على هذه الحال من الغضب والثورة العصبية أيقن أنه لا شك قاتله، فزحف وقيوده تثقله إلى أن ارتمى على قدمي المعتمد يقبلهما، ويبللهما بدموعه.

ولم تكن الشفقة لتعرف إلى قلبه سبيلًا، فعلاه بالسلاح في يده، ولم يزل يضربه حتى برد.

هذه هي الفاجعة الأليمة التي ختمت بها حياة ابن عمار وقد أثرت هذه الكائنة المحزنة أثرها في إسبانيا العربية.

ولم تطل مدة المعتمد بعده، فإن الحوادث الخطيرة التي وقعت في طليطلة والانتصارات المتوالية التي أحرزتها جيوش القشتاليين حولت دفة السياسة إلى مجرى آخر.[٢]

الفصل الثاني عشر

اعتزم الأذفونش السادس ملك ليون وقشتالة و«غاليسيا» و«ناڤار» عزمًا قاطعًا لا تردد فيه أن يفتح شبه الجزيرة، وقد كان من القوة وخصومه من الضعف بحيث يستطيع إتمام ما اعتزمه من ذلك، ولم يتعجل الفتح بل آثر الانتظار، ريثما يجمع من الإتاوات والجزى التي كان يفرضها على ملوك الأندلس أموالًا كثيرة يدخرها عنده لتكون عدة للحرب، ووسيلة لإدراك أطماعه الكثيرة التي توجهت إليها أنظاره.

وعلى هذا أراد أولًا أن يضع الملوك المسلمين تحت الآلة العاصرة، ولم يكن همه أن يعتصر بهذه الآلة شراب التفاح والنبيذ، بل أراد أن يأخذ من عصارة أولئك الملوك بعد سحقهم سائل الفضة والذهب.

وربما كان أضعف الملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية «القادر» ملك طليطلة فقد أضر بهذا الملك ترف الحياة، ونعيم القصر حتى أصبح ألعوبة الخصيان، وأضحوكة الجيران الذين كان ينافس الواحد منهم الآخر في سلبه وتجريده، والأذفونش وحده هو الذي كان يظهر بمظهر من يحميه ويدافع عنه.

ولفداحة ما كان يرهق به رعيته من الظلم والمغارم لم يسلس له قيادهم، فلجأ إلى الأذفونش يشكو إليه أنه لا يستطيع أن يملك زمامهم، فوعده أن يبعث إليه بجنود لتأييده وحمايته مقابل مبلغ طائل من المال، وأراد القادر أن يجمع هذا المال من كبار رجال المملكة فدعاهم لهذا الغرض وكاشفهم بالأمر، فأبوا أن يعطوه شيئًا، فأقسم لتدفعن المال، أو لتُكرهن غدًا على دفع أبنائكم رهائن عند الأذفونش فأجابوه: «إننا حينئذٍ نخلعك قبل أن تتمكن من ذلك.»

وسلم الطليطليون من ذلك الحين قيادهم للمتوكل ملك بطليوس واضطر القادر للهرب ليلًا، والتجأ من جديد إلى الأذفونش يخطب وده، ويطلب مساعدته، فاتفق معه

على أن يذهب لحصار طليطلة ويعيد إليه ملكه، ووجد أن ما حمله إليه من المال قليل، فلم يقبله، واشترط أن يعطيه بعض الحصون، ثم يطالبه فيما بعد بأزيد من هذا القدر الذي معه، فالتزم القادر بكل هذه الأشياء، وبدأت الحرب سنة (١٠٨٠) ودامت سنتين، وبعث الإمبراطور كعادته رسله إلى المعتمد يطالبه بدفع الجزية السنوية، وكانت البعثة مؤلَّفَة من جماعة من الفرسان عهد إلى يهودي من بين الجماعة اسمه ابن شبيب بالسفارة بينه وبين المعتمد؛ وذلك لأن اليهود لذلك العهد كانوا وسطاء بين المسلمين والنصارى، وضربت البعثة خيامها بظاهر المدينة، وأرسل المعتمد رسله إليهم وعلى رأسهم ذو الوزارتين أبو بكر بن زيدون يحمل الإتاوة المطلوبة، وكانت أقل ممَّا يجب دفعه، لسوء الحالة في ذلك الوقت على الرغم من أن المعتمد قد فرض على رعيته لسداد المبلغ ضرائب فوق العادة، فلم يقبل اليهودي ما دفعه إليه الوزير، وقال له: «أتراني من البلاهة والغباء بحيث أقبل هذه النقود الزائفة؟ إني لا أتسلم دون المبلغ المطلوب، ولا أتسلمه إلا ذهبًا عينًا، وسيكون المدفوع في العام المقبل حصونًا ومدنًا لا مالًا زائفًا.»

واتصل بالمعتمد ما فاه به اليهودي أمام سفرائه، وكبار رجاله، فاستشاط غضبًا وأمر أن يحمل وصحبه إلى القصر، وما حصلوا عنده حتى أمر بالرسل من النصارى فأودعهم السجن، وباليهودي أن يُصلب، فارتعدت فرائص اليهودي الذي كان قبل برهة يتيه على المعتمد ورجاله صلفًا وكبرًا، وقال: «عفوًا يا مولاي! إني أفتدي حياتي منك بوزن جسمي ذهبًا.»

فقال المعتمد: «والله لو جئتني بإسبانيا كلها على أن تفتدي نفسك ما قبلت منك فداء.»

وهكذا تم صلب اليهودي.

وبلغ الأذفونش ما حل بفرسانه، فأقسم بإلهه وبأرواح القديسين لينتقمن لهم من عدوه انتقامًا مروعًا، وليغزونه في إشبيلية وليحصرنه في عقر داره، وكان الإسبانيون لهذا العهد قد اهتبلوا الغرة بما كان من تفرق كلمة المسلمين فتكالبوا عليهم واستولوا على حصونهم، وسار الأذفونش بجيوشه يفتح المعاقل ويخرب القرى حتى بلغ فرضة المجاز من طريف على جبل طارق، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى، وفي مقدمتهم المعتمد كان يؤديها له — وهو صاغر — إلى أن طلب منه المعتاد في كل سنة على يد أولئك الفرسان ومعهم وزيره اليهودي، فصلب المعتمد اليهودي منكسًا، وأودع أولئك الفرسان

في غيابات السجن، ولم يكن الأذفونش ليترك فرسانه القشتاليين وهم زهاء الخمسين، يعذبون في السجن على حساب خطئهم، دون أن يعمل على خلاصهم، ويتلطف في طلب الإفراج عنهم خوفًا على حياتهم، فأرسل إلى المعتمد في ذلك، فاشترط أن يرد إليه حصن المدور في نظير إطلاق سراحهم، فقبل الشرط ورد الحصن إليه، وأطلقهم، وما عاد جماعة الفرسان المسيحيين حتى قام الأذفونش بتنفيذ وعيده، وإمضاء تهديده، وسار في طريقه لحصار إشبيلية فغنم وأحرق القرى، وقتل وأسر من المسلمين من لم يتسع لهم الوقت للالتجاء إلى الحصون المنيعة، وحاصر إشبيلية ثلاثة أيام، وخرب إقليم شذونة وما زال يزحف بجيوشه حتى وطئ الرمال وبلغ طريف ومس بحوافر فرسه أمواج البحر وهو يقول: «نحن الآن في أرض المجاز وبها قد وصلنا إلى آخر حدود إسبانيا.»

وبر بقسمه، وأرضى طماعيته، ووجه بجيوشه إلى طليطلة مقر مملكة القادر وتسلمها منه، وكان اتفق معه على أن يظاهره على أهل بلنسية، فاضطر المتوكل أن يفر من وجه القادر ويتخلى له على بلنسية، ففتح أهلها أبوابها له على الرغم منهم عام (١٠٨٤) فجمع منهم أموالًا طائلة، وقدمها للأذفونش فلم يرتَضِها الإمبراطور، وقال له بفتور وامتعاض: «هذا لا يكفي.»

فأضاف إليها فوق ذلك ما ورثه من الكنوز والنفائس عن أبيه وجده، فقال أيضًا: «هذا لا يكفي.» فرجاه أن يعطيه مهلة ريثما يجمع له ما يكفيه من المال، فقال له الأذفونش: «كلا حتى تعطيني حصونًا أخرى أرتهنها كضمان لما هو مطلوب.» وهكذا سلم القادر في كل ما يملك، وأضاع طارفه وتليده، ومزَّق ثروته وميراثه، وبدد حصونه حصنًا حصنًا، وذهبه دينارًا دينارًا، وهو مستسلم مرغم، وإلا فماذا عساه أن يصنع؟ إن سيف الأذفونش المصلت يتهدده بالقتل، وأقل حركة تبدر منه تدل على عدم الطاعة والإذعان تجعله يهوي به على رأسه، فلم ير بدًّا من أن يستنزف أموال الرعية، ويرهقها بأنواع المظالم والمغارم ويأتي على الثمالة الباقية في أيديها، ورأى أهل بلنسية أنه لا قِبَل لهم بسدِّ هذه المغارم الفادحة، ففروا من وجه هذا الظلم الصارخ زرافات ووحدانًا، وهاجروا إلى أرض سرقسطة وكان موقف القادر أمامه شاذًّا وغريبًا، فإنه كلما حمل إليه قدرًا من المال ظنًّا منه أن ذلك يجدي في مرضاته، كان ذلك سببًا في تزايد طلباته الملحة، إلى أن نضب معين المال، ولم يجد ما يقدمه إليه، وأقسم له أن ليس قبله شيء، فقام من فوره، وخرب بسيط المدينة وما حولها، كل هذا والقادر متعلق بعرشه بعد أن نخر في قوائمه السوس، وتداعى للانحلال والسقوط، ولكنه عدل في النهاية عن هذا التعلق الكاذب.

وحدث مرة أن حضر الأذفونش وكان هو في استقباله، فصرح له بأنه مضطر أن يتخلى له عن طليطلة وأنه متنازل عن العرش، فوضع الأذفونش الشروط التالية:

- يتولى الإمبراطور حفظ حياة الطليطليين وحراسة المملكة، وللسكان حرية البقاء أو الهجرة إلى أي جهة شاءوا.
- لا يطالبهم إلا بدفع الجزية المفروضة عليهم بشرط أن يعطوها مقدمًا.
- يترك لهم القيام على شئون المسجد.
- يتعهد للقادر بأن يكون ملكًا على بلنسية.

وتم الاتفاق على هذه الشروط، وقبلها الإمبراطور، وفي يوم ٢٥ مايو سنة (١٠٨٥) دخل عاصمة مملكة القوط القديمة،[١] ومن ذلك الحين بلغ في الأبهة والعظمة والكبرياء مبلغًا كان يقابله من الناحية الأخرى اتضاع ملوك المسلمين واستكانتهم إذ لم يبقَ منهم أحد إلا بادر بإيفاد الوفود إليه يهنئونه ويحملون إليه الطرف والهدايا، وصرحوا له بأنهم يكونون داخل حدود سلطانه كجباة للأموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزى، وكان الأذفونش — وهو ملك ملوك الديانتين الإسلامية والنصرانية — لا يعيرهم أدنى اهتمام لهوانهم عليه، حتى لقد كان يعلن الاستهانة بهم، ولا يخفي احتقاره لهم، ومن ذلك أن حسام الدولة ملك البرزاليين وفد عليه ليقدم إليه بنفسه هدية فاخرة، وصادف في اللحظة التي دخل عليه فيها أن كان أمامه قرد يرقصه رائضه لتسليته بتنزيته وألاعيبه، فقال له الأذفونش بلهجة هي غاية في الزراية عليه والسخرية منه: «دونك هذا القرد فخذه من هديتك عوضًا.» وكان الأمير المسلم بعيدًا عن الإحساس بهذه الإهانة، ورأى في القرد لهذه المناسبة ذريعة إلى اكتساب الصداقة، ودليلًا على أن الأذفونش لا يريد أخذ بلاده.

وبعد طليطلة جاء دور بلنسية وكان ابنا عبد العزيز[٢] يتنازعان الملك، وكل منهما له شيعة وأنصار، وهناك فريق ثالث كان يعمل على إعطاء بلنسية لملك سرقسطة، وفريق رابع يريد أن تعطى للقادر، وكان الفوز حليف الفريق الأخير دون هؤلاء جميعًا، ولم يكن القادر حائزًا على الصفات المطلوبة، وكان خلفه جيش قشتالي بقيادة أحد رجال الأذفونش لا يعوزه إلا أن يقوم أهل بلنسية بتقديم الطعام لجنوده، ممَّا يكلفهم في اليوم الواحد ست مئة قطعة ذهبية نقدًا، وحاولوا عبثًا أن يقنعوا القادر بأنه ليس في حاجة إلى هذا الجيش ما داموا يشدون أزره ويقومون بنصرته بكل أمانة.

ولكن القادر لم يكن من السذاجة بحيث يثِق بهذه الوعود، وهو يعلم أنهم يمقتونه ويبغضونه، وأن الأحزاب القديمة لم تنسَ بعد أمانيها، ولهذا عول على إبقاء الجيش القشتالي، ولكي يقوم بتوفير نفقات هذا الجيش أثقل كاهل المدينة، والقسم الذي تقع فيه بضريبة فوق العادة، وأخذ من النبلاء والعظماء مبالغ طائلة، وعلى الرغم من أعمال الاضطهاد والإرهاق الفظيعة جاءه قائد الجيش القشتالي، وطالبه — تحت تأثير ضغط شديد — أن يعطيه المتأخر من أعطيات الجند، ولم يكن في استطاعته أن يقوم بتحقيق هذا الطلب، فاقترح حينئذٍ أن يظل القشتاليون مقيمين داخل حدود المملكة في بسيط من الأرض يقطعه لهم، فقبلوا ذلك، وأخذوا يزرعون ما أقطعه لهم من هذه الأراضي الواسعة بواسطة العبيد، ثم دأبوا بعد ذلك على الغارة على البلاد المجاورة، واكتفوا بالغزو والسلب عن الزراعة واستنبات الأرض، وازداد عدد جنودهم بمن انضم إليهم من شذاذ العرب وحثالتهم، وبمن انضوى تحت لوائهم من جماعات الأرقاء والفسدة، ومعتادي الإجرام، وارتد الكثير منهم عن دينه، واعتنقوا الدين المسيحي، ولم يمض على هذه العصابات وقت طويل حتى اشتهرت بالفظاعة والقسوة شهرة تبعث على الأسف والحزن، فمن فظاعة هذه العصابات أنهم كانوا يقتلون الرجال، ويعتدون على أعراض النساء، وكثيرًا ما كانوا يبيعون الأسير المسلم برغيف من الخبز، أو بجرعة من النبيذ، أو بشواء من السمك، وكانوا يمثلون بالأسير الذي لا يستطيع أن يفتدي نفسه بالمال تمثيلًا فظيعًا؛ فربما سلوا لسانه أو سملوا عينيه، أو أطلقوا عليه الكلاب الضارية فمزقت جسمه.

وكانت بلنسية في الحقيقة تحت سلطان ونفوذ الأذفونش ولم يكن للقادر سوى أن يحمل لقب ملك، مع أن قسمًا كبيرًا من أرض المملكة كان ملكًا للقشتاليين، وكان ضم هذه المملكة إلى ممالكه رهن كلمة واحدة ينطق بها فمه.

ويظهر أن سرقسطة أيضًا أصبحت على شفا التسليم، فإن الإمبراطور حاصر هذه المدينة وأقسم ليستولين عليها.

وكان في الطرف الآخر من إسبانيا قائد من قواد الأذفونش اسمه «غرسية» مقيم في حصن لا يبعد كثيرًا عن «لورقة» وهو يواصل غاراته على مملكة المرية ولم يغفل غزو غرناطة أيضًا، بدليل زحف عسكر القشتاليين في ربيع عام (١٠٨٥) حتى أصبحوا على بعد ميل من شرقي غرناطة وقد أجروا معارك مع المسلمين هناك، وأيًّا كان ذلك فإن الخطر كان عظيمًا، والبلاء كان محيقًا، والقوة المعنوية عند المسلمين كانت تلاشت وذهبت، ولا يمكن أن يتكافئوا مع المسيحيين حتى ولا بنسبة خمسة من المسلمين إلى

واحد منهم، ومن أمثلة ذلك أن كتيبة من عسكر المرية مؤلفة من أربع مئة جندي من صفوة الجند، ولوا الأدبار أمام ثمانين جنديًّا من جنود القشتاليين.

ومما لا ريب فيه أن عرب إسبانيا لو تركوا وشأنهم — مع ما وصلوا إليه من التفكك والضعف — لدار أمرهم بين أن يختاروا أحد أمرين: إما الخضوع للإمبراطور خضوعًا يفقدون به كل شيء، وإما الهجرة من البلاد طوائف وجماعات، وكان الرأي السائد في الواقع الهجرة من البلاد فرارًا بالشرف والعرض والدين، وقد حرض على ذلك كثير من شعرائهم ونظموا القصائد في حض الناس على مغادرة البلاد وتحذيرهم أخطار البقاء، وما يعرضهم له من الهلاك الذي لا يرضاه لنفسه عاقل حصيف.

وكانت الهجرة هي آخر حيلة يلجئون إليها بعد أن سُدَّت في وجوههم أبواب الحيل.

على أن يأسهم هذا لم يكن ثمة داع إليه، فقد كان هناك بصيص من نور الأمل في الخلاص من ظلمة الخيبة والفشل، وكشف هذه الغمة الحالكة، وكان في وسعهم أن يلتمسوا النجدة والغوث من إفريقية، وقد فكروا في ذلك، ورأوا فيه الأمل الوحيد الباقي لنجاتهم على يد أولئك البواسل الشجعان ذوي الطباع السليمة والعزائم القوية التي لم يفسدها الخور والهوان.

على أنهم لم يكادوا يسمعون هذا الاقتراح حتى عارضوه، وخشوا عواقبه الوخيمة؛ لأنهم كانوا يعرفون من وحشية أولئك العرب ما ينسيهم بسالتهم وشجاعتهم، وقد خشوا أن يلجئوا إلى سلب أموالهم ونهب دورهم قبل أن يفكروا في مناوأة المسيحيين وقتالهم.

وثمة عدلوا عن إنفاذ هذا الرأي الخاطئ، واتجه أملهم ورجاؤهم إلى المرابطين، وهم جماعة من بربر الصحراء الذين قاموا بتمثيل أول دور على مسرح هذه البلاد.

وقد كان أولئك المرابطون حديثي العهد بالإسلام، وقد بث فيهم الدعوة إلى هذا الدين الجديد أحد دعاة الإسلام وهو من سجلماسة فدانوا له وتحمسوا معه، ووهبوا نفوسهم لطاعته، وأقبلوا على الجهاد فتمت لهم الفتوحات في أسرع وقت، وأصبح ملكهم الفسيح، في هذا العصر الذي نتحدث عنه يترامى من السنغال إلى بلاد الجزائر.

وكانت فكرة استدعائهم إلى إسبانيا تفتر عن ثغور البشر لا سيما لرجال الدين، أما الملوك والأمراء فكانوا على عكس ذلك، فقد ترددوا في هذا الأمر طويلًا، على أن القليل منهم مثل المعتمد والمتوكل كانا قد دخلا في مكاتبات وعلاقات مع يوسف بن تاشفين ملك المرابطين، ورجواه غير مرة أن يساعدهما على مناوأة المسيحيين، على أن ملوك الأندلس بلا استثناء، وفي ضمنهم المعتمد والمتوكل كانوا قليلي الميل إلى دخول هؤلاء القساة القتلة

المتعصبين من سكان الصحراء جزيرتهم، وكانوا يرون في (ابن تاشفين) منافسًا خطيرًا أكثر منه عونًا وظهيرًا.

وأصبح خطر النصرانية يتفاقم ويتزايد يومًا عن يوم، وصار استدعاء المرابطين والالتجاء إلى هذه الوسيلة الوحيدة لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة أمرًا لا مناص منه، ولا معدى عنه، فمال المعتمد إلى هذا الرأي، وذهب إليه، بالرغم من أن ابنه الراشد أبان له ما هو مستهدف له من الخطر إذا هم شركوه في بلاده وظاهروه على عدوه، فأراه أنه لا يجهل هذه الحقيقة، وقال له: أنا بقطع النظر عن أي أمر آخر لا أريد أن تتهمني الأجيال المقبلة بأني تركت الأندلس غنيمة في أيدي الكفار، ولا أحب أن يُلعن اسمي على منابر المسلمين، ولو ترك لي الخيار لآثرت من كل قلبي أن أكون جمَّالًا في بلاد إفريقية على أن أكون راعي خنازير في قشتالة.[٣]

ولما أبرم خطته أفضى بها إلى جاريه المتوكل ملك بَطَلْيَوْس وعبد الله ملك غرناطة، ورجاهما أن يَشْرَكاه في إنفاذ هذا الاقتراح، وطلب منهما أن يرسلا قاضييهما إلى إشبيلية فأوفد المتوكل قاضي بطليوس أبا إسحاق بن مقانا، وأوفد عبد الله[٤] قاضي غرناطة أبا جعفر، وانضم إليهما ابن أدهم وانضم إلى هؤلاء جميعًا الوزير أبو بكر بن زيدون.

وأبحر هؤلاء جميعًا إلى بر العدوة، وذهبوا لمفاوضة يوسف ودعوته على لسان ملوكهم للعبور إلى إسبانيا على رأس جيش، وكان عليهم أن يعرضوا عليه شروطًا، ويقطعوا عليه بذلك عهدًا، إلا أن ذلك بقي عندنا مجهولًا، كما كان واجبًا أن يعين المكان الذي سينزل فيه يوسف من البحر، فاقترح أبو بكر أن يكون المكان الذي ينزل فيه بعسكره جبل طارق، وآثر يوسف أن يكون نزوله في الجزيرة الخضراء بعد أن يتخلى له عنها، ولم يرُقْ في نظر وزير المعتمد هذا الطلب، الذي لم يكن مخولًا إليه حق الاتفاق عليه، وعلى أثر ذلك كان يوسف يعامل أولئك السفراء بفتور، فكان يراوغهم ويجيبهم أجوبة مبهمة، ولذلك عادوا إلى بلادهم وهم يجهلون تحديد المسائل التي وقع عليها الاتفاق واستقر عليها الرأي، فهو لم يقطع عهدًا بالاتفاق على دخول إسبانيا، كما أنه لم يصرح بعدم الدخول.

وكذلك صار ملوك الأندلس يشكُّون في نواياه، ويرتابون في مقاصده، وقد خرجوا من هذا المشكل بحالة تستنكرها دولهم، وتستنكفها رعاياهم، على أن ارتيابهم في الأمر كان قائمًا على أساس.[٥]

وكان من عادة يوسف ألا يقدم على عمل إلا بعد مشورة الفقهاء ورجال الدين، فاستشارهم فيما يجب عمله، فأشاروا عليه أن يبدأ أولًا بقتال القشتاليين، وإن كان

يعوزه في هذا السبيل أن يُخلوا له الجزيرة الخضراء، وإن أبوا أن يخلوها له كان له الحق في أخذها، ولما تزود للأمر بهذه الفتوى أمر عدة من جيوشه بالإبحار من مدينة سبتة على بعض السفن، والعبور إلى الجزيرة وأن تكون مكتنفة بجيش كثيف من جنوده، ورسم أن تقدم المؤن وما يحتاج إليه الجيش من نفس المدينة، وكان الراضي حاكمًا على الجزيرة، فوقع في حيرة وارتباك لا قبل له باحتمالها، لأن الحالة التي تواجهه الآن لم يكن يتوقعها، ولم يمتنع من تقديم ما يحتاجه جيش المرابطين من المؤن، ولكنه كان على استعداد لدفاع القوة بالقوة متى دعت الحال لذلك.

وعدا ذلك فقد كتب إلى والده رسالة ربطها في جناح حمامة، وأطلقها صوب إشبيلية وتربص ريثما يتلقى منه الأوامر، فورد إليه جواب أبيه على جناح السرعة، وقد بَتَّ في الأمر بلا تردد ولا إمهال، ورأى أنه مهما يكن مسلك يوسف جافًّا ومثيرًا، فإنه يشعر بأنه قد أمعن في المضي، حتى لا يستطيع أن ينكص على عقبيه، ولم يبقَ إلا أن تقابل هذه اللعبة السيئة الجريئة بمظاهر الارتياح والاطمئنان، وما هو إلا أن أصدر في الحال أمره إلى ولده بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى رندة.

وتلاحقت الجنود بالجزيرة، ووصلها يوسف نفسه أخيرًا، فعني أولًا بتحصين المدينة حتى صارت في حالة حسنة، وزودها بالمؤن والذخائر، وترك فيها حامية كافية، ثم سار في معظم جيوشه إلى إشبيلية وجاء المعتمد لاستقباله تحفُّ به أعاظم رجال مملكته، ولما تلاقيا، هَمَّ المعتمد أن يقبل يده فأبى وتعانقا عناقًا تجلت فيه كل عواطف الإخلاص والحب والسرور، بلقاء العدو المشترك، ولم يغفل المعتمد العادات الملكية المتبعة في مثل هذه الظروف من تقديم هدايا فاخرة تليق بمقام ضيفه الكريم ورجال دولته، وقد تقبلها شاكرًا مغتبطًا، ووزعها على جنوده المرابطين، ولم يخامره شك على أثر ما قدم إليه من سني الهدايا أن إسبانيا في الذروة، من تزايد الغنى، ووفور الثروة.

فوقف الملكان على مقربة من إشبيلية وقد وافاهما هناك ابنا باديس عبد الملك ملك غرناطة وتميم ملك مالقة وانضما إلى المرابطين، وكان مع الأول ثلاث مئة فارس، ومع ثانيهما مئتان، وأرسل المعتصم ملك المرية كتيبة من الفرسان، واعتذر عن مجيئه بنفسه لمجاورة نصارى البدو له، وبعد مضي ثمانية أيام زحف الجيش عن طريق بطليوس حيث التقى بالمتوكل وجيوشه، ثم زحفوا إلى طليطلة ولم يتقدموا قليلًا إلا وقد فاجأهم العدو.

وكان الأذفونش لا يزال محاصرًا سرقسطة في ذلك الوقت الذي علم فيه بدخول المرابطين إسبانيا وقد خيل إليه أن ملك هذه المدينة المحاصرة يجهل حادث دخول

المرابطين إلى هذه البلاد، فبعث إليه يطلب منه أموالًا كثيرة ليرفع عنه الحصار، ولكن المستعين كان قد وقف على هذا النبأ العظيم مثله، فلم يعطه درهمًا واحدًا.

ثم عاد الأذفونش إلى طليطلة بعد أن أرسل إلى إيڤارو وإلى مساعديه الآخرين أن يجيئوا بجيوشهم لينضموا إلى جيشه، ولما تجمعت وحدات الجيش الذي كان به كثير من الفرسان الفرنسيين زحف، إذ كان يريد أن تدور رحى القتال في بلاد العدو، والتقى بالمرابطين وحلفائهم في مكان لا يبعد عن بطليوس واقع بالقرب من مكان يعرف عند المسلمين «بالزلاقة» وعند المسيحيين باسم «سكر الياس».

ولم يكن قد انتهى من ضرب خيامه حتى وافاه كتاب من يوسف يدعوه فيه إلى إحدى خصال ثلاث: إما الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، فاستاء جد الاستياء من هذا الكتاب، وكلف أحد كتابه من العرب أن يرد عليه بكتاب يقول فيه: إني ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطونني الجزية منذ سنين مضت، أن يعرضوا علي مثل هذه الاقتراحات الجارحة، ومع هذا فإن لديَّ جيشًا في استطاعته أن يُنزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء.

ولما وصل الكتاب اشتغل بالرد عليه أحد الكتاب الأندلسيين، ولما سمعه يوسف رآه مطولًا فاكتفى بأن يكتب في حاشية كتاب الإمبراطور هذه العبارة: «الذي يكون ستراه.» وبعث بهذا الرد إليه.[٦]

ولم يبق بعد هذا إلا تحديد وقت المعركة، وبذلك كانت تقضي العادة في ذلك العهد، وقد ضربوا لها موعدًا يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة (١٠٨٦) ولكن الأذفونش أرسل في نفس اليوم إلى المسلمين يقول: «غدًا الجمعة وهو يوم عيدكم، والأحد عيدنا، فأقترح إذن أن تكون المعركة يوم الاثنين.» فقبل يوسف هذا الاقتراح، ولكن المعتمد رأى فيه حيلة سياسية.

وكان الأندلسيون في مقدمة الجيش معرضين للهجمات الأولى، أما المرابطون فكانوا في المؤخرة تسترهم الجبال، فلم يكن بدٌّ من أن تتخذ مقدمة الجيش الحيطة والحذر حتى لا يباغتها العدو، وأخذت طلائع المسلمين ترقب حركات العدو، وكانت الأفكار والخواطر في قلق وانزعاج، والمعتمد لا ينفك يستشير منجميه، وأصبح الوقت حرجًا ودنت الساعة الحاسمة التي ستدور فيها رحى المعركة الفاصلة التي يتوقف على نتيجتها مستقبل إسبانيا، وكانت جيوش القشتاليين أوفر عددًا إذ كانت تتراوح — على ما يظن — بين خمسين إلى ستين ألفًا، بينما جيوش خصومهم المسلمين لا تعدو عشرين ألفًا.

ومع طلوع الفجر بدأت مخاوف المعتمد تتحقق، فقد أبلغه بعض طلائعه أن الجيش المسيحي يقترب، وعلى هذا يصبح مركزه على شفا الخطر، ويستهدف جيشه لأن يسحق قبل أن يقترب المرابطون من ساحة القتال، فبعث إلى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيوشه على عجل، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافي، وقد كان يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها، فلم يبادر إلى تلبية طلبه، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسيين، وقد صاح لهذه المناسبة قائلًا: «وماذا يهمني إذا كان نصيب هؤلاء جميعًا الهلاك، إنهم جميعًا أعداء.»

ولم يسع الأندلسيين إلا الفرار حيث وجدوا أنفسهم وحدهم، أما الإشبيليون، فقد كانوا — على غرار ملكهم الذي جرح في وجهه ويده — مثلًا للشجاعة والبسالة والإقدام، فصمدوا للعدو، وقاوموا صدماته العنيفة، إلى أن وصلت لمساعدتهم نجدة من عسكر المرابطين، وحينئذٍ صارت المعركة أقل توازنًا، وقد دهش الإشبيليون أشد دهشة حين رأوا العدو يقاتل متقهقرًا؛ لأن المدد الذي وصل لم يكن من الكثرة بحيث يزهى على سائر الجيش بأن يكون صاحب الفضل في الانتصار على الأعداء، والحقيقة أن الفضل في تقهقر الجيش لم يكن لمجرد وصول المدد.

وإليك ما وقع: لما رأى يوسف أن الجيش القشتالي التحم بالأندلسيين بدأ ينفذ خطة وضعها، وهي مباغتته من الخلف، ولذلك لم يرسل إلى المعتمد إلا المدد القليل الكافي حتى لا يسحقه الأعداء، ثم وفق إلى تنفيذ هذه الخطة الحربية حين زحف بأكبر جزء من جيشه على معسكر الأذفونش وأجرى مذبحة هائلة في الجنود الموكلين بحراسة المعسكر، وأشعل النار فيه فاحترق، وانقض على ظهر القشتاليين، وهو يحتوش أمامه الجنود الفارين.

وإذ قد وجد الأذفونش نفسه بين نارين، ورأى أن الجيش الذي باغته من الخلف، أضخم عديدًا من الجيش الذي في مواجهته، اضطر أن يحول قوته الرئيسية إليه، وحمي وطيس المعركة، وكانت الحرب سجالًا بين الفريقين المتحاربين، وكان يوسف يجول على صهوة جواده بين صفوف المقاتلة من المسلمين، وهو يهيب بهم: «أن تشجعوا أيها المسلمون، أعداء الله أمامكم، والجنة تنتظركم، وطوبى لمن أحرز الشهادة.»

وسرعان ما عاد الأندلسيون الفارون فنظموا صفوفهم، وأخذوا أمكنتهم من ميدان القتال لشد أزر المعتمد، ثم جرد يوسف حرسه الاحتياطي من السودان فحملوا على القشتاليين من ناحية أخرى حملة منكرة أتوا فيها بالعجائب.

وتمكن زنجي من الدنو من الأذفونش وطعنه بخنجر في يده فجرحه في فخذه، وأقبل الليل، والفريقان المتحاربان يتنازعان المعركة التي حمي وطيسها، ثم كان النصر في النهاية حليف المسلمين، وكان الفريق الأعظم من المسيحيين ملقًى في ميدان القتال بين قتيل وجريح، ولاذ الباقون بالفرار، وتمكن الأذفونش نفسه من الفرار مع كبير عناء يحيط به خمس مئة فارس من جنده (٥) أكتوبر سنة (١٠٨٦).

وكان يوسف معتزمًا أن يتعقب الفارِّين، ويزحف بجيوشه إلى بلاد الأعداء ليجني ثمرات انتصاره، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نبأ وفاة ابنه الأكبر، وعاد إلى إفريقية مع عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشًا من المرابطين مؤلفًا من ثلاثة آلاف جندي.

ملوك الطوائف وعواصمهم

إشبيلية (بنو عباد)

- أبو القاسم محمد بن إسماعيل (القاضي) (١٠٢٣–١٠٤٢)
- أبو عَمْرو عباد بن محمد: المعتضد (١٠٤٢–١٠٦٩)
- أبو القاسم محمد بن عباد: المعتمد (١٠٦٩–١٠٩١)

قرطبة (بنو جهور)

- أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور (١٠٣١ (ديسمبر)–١٠٤٣)
- أبو الوليد محمد بن جهور (١٠٤٣–١٠٦٤)
- عبد الملك (١٠٦٤–١٠٧٠)

ثم ضمت قرطبة إلى حكم ملوك إشبيلية.

مالقة (بنو حمود)

- إدريس الأول (١٠٣٥–١٠٣٩)
- يحيى بن إدريس الأول (١٠٣٩)
- حسن بن الخليفة يحيى بن علي (١٠٣٩–١٠٤١)
- الصقلبي: نجاء (١٠٤١–١٠٤٣)
- إدريس الثاني (١٠٤٣–١٠٤٧)
- محمد الأول الابن الثاني لإدريس الأول (١٠٤٧–١٠٥٣)

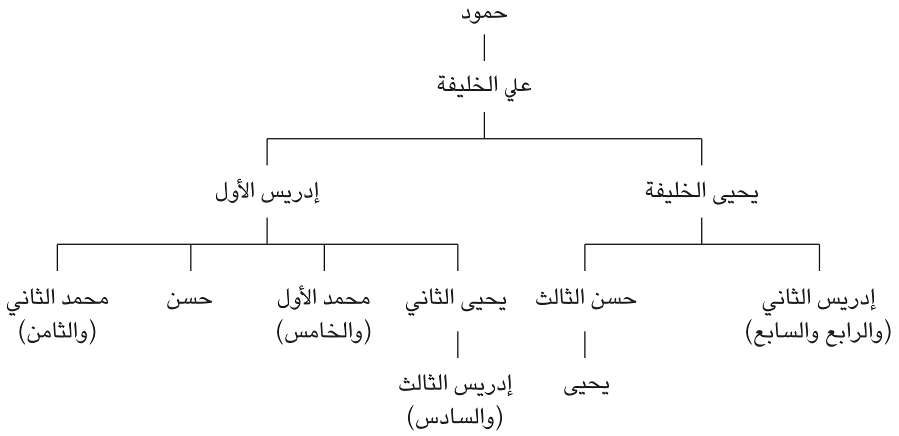

- إدريس الثالث (١٠٥٣)
- إدريس الثاني (للمرة الثانية) (١٠٥٣–١٠٥٥)
- محمد الثاني (رابع أنجال إدريس الأول) (١٠٥٥–١٠٥٧)

ثم ضمت مالقة إلى مملكة غرناطة.

الجزيرة (بنو حمود)

- محمد بن الخليفة القاسم بن حمود (١٠٣٥–١٠٤٨ (٩))
- القاسم ابنه (١٠٤٨ (٩)–١٠٥٨)

ثم ضمت «الجزيرة» إلى مملكة إشبيلية.

غرناطة (بنو زيري)

- زاوي بن زيري (حتى سنة ١٠١٩)
- حبوس (١٠١٩–١٠٣٨)

- باديس (١٠٣٨–١٠٧٣)
- عبد الله (١٠٧٣–١٠٩٠)

قرمونة (بنو برزال)

أسماء الملوك تبعًا لابن خلدون (عباد ج٢ ص٢١٦) هي كما يلي:

- إسحاق
- عبد الله ابنه
- محمد بن عبد الله (حتى سنة ١٠٤٢ (٣))
- العزيز المستظهر (١٠٤٢ (٣)–١٠٦٧)

عن ابن حيان وابن بسام:

ابن عبد الله أي محمد بن عبد الله، حكم قرمونة في العهد الذي كان فيه هشام الثالث متوليًا قرطبة ١٠٢٩–١٠٣١ وعلى ما يقول المؤلف نفسه الذي كان أهلًا للثقة أكثر من ابن خلدون وكان خليفته محمد بن عبد الله.

ابنه إسحاق الذي حكم سنة ١٠٥٠.

ويظهر أن ابن الأبَّار «في أبحاثي ص٢٨٦ الطبعة الأولى» قد أخطأ إذ قال: إن محمد بن عبد الله، كان لا يزال حيًّا سنة ١٠٥١.

رُندة

- أبو نور بن أبي قرَّة (١٠١٤ (٥)–١٠٥٣)
- أبو النصر (ولده) (١٠٥٣)

ثم ضمت «رُندة» إلى مملكة إشبيلية.

مورور

- نوح (١٠١٣ (٤)–١٠٤١ (٢))
- أبو مناد محمد وابنه (١٠٤١ (٢)–١٠٥٣)

ثم ضمت «مورو» إلى مملكة إشبيلية.

أركش

- ابن خزرون (حتى سنة ١٠٥٣)

ثم ضمت أركش إلى مملكة إشبيلية.

ولبة

- أبو زيد محمد بن أيوب (من سنة ١٠١١ (٢))
- أبو المصعب عبد العزيز (إلى سنة ١٠٥١)

ثم ضمت «ولبة» إلى مملكة إشبيلية.

نبلة

- أبو العباس أحمد بن يحيى اليعقوبي (١٠٢٣–١٠٤١(٢))
- محمد، شقيقه
- فتح بن خلف بن يحيى بن أخي السابقين (حتى سنة ١٠٥١)

ثم ضمت نبلة إلى مملكة إشبيلية.

«شلب» (بنو مزين)

- أبو بكر بن سعيد بن مزين (١٠٢٨–١٠٥٠)
- أبو الاصباغ عيسى (إلى سنة ١٠٥١(٢))

وقد ضمت «شلب» إلى مملكة إشبيلية.

شنتمَرية

- أبو عثمان سعيد بن هارون (١٠١٦–١٠٤٣)

- محمد (ولده) (١٠٤٣–١٠٥٢)

ثم ضمت شنتمرية إلى مملكة إشبيلية.

مرتلة

- ابن طيفور (إلى سنة ١٠٤٤)

ثم ضمت مرتلة إلى مملكة إشبيلية.

بَطلْيَوْس

- سابور

وبعدئذ بنو الأفطس:

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور الأول
- أبو بكر محمد المظفر (حتى سنة ١٠٦٨)
- يحيى المنصور الثاني
- عمر المتوكل (حتى سنة ١٠٩٤)

طليطلة

- يعيش بن محمد بن يعيش (حتى سنة ١٠٣٦)

وبعدئذٍ بنو ذي النون:

- إسماعيل الظافر (١٠٣٦–١٠٣٨)
- أبو الحسن يحيى المأمون (١٠٣٨–١٠٧٥)
- يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر (١٠٧٥–١٠٨٥)

سَرَقُسْطَة

- المنذر بن يحيى[١] (حتى سنة ١٠٣٩)

وبعدهم بنو هود:

- أبو أيوب سليمان بن محمد المستعين الأول (١٠٣٩–١٠٤٦ (٧))
- أحمد المقتدر (١٠٤٦ (٧)–١٠٨١)
- يوسف المؤتمن (١٠٨١–١٠٨٥)
- أحمد المستعين الثاني (١٠٨٥–١١١٠)
- عبد الملك عماد الدولة (١١١٠)

السهلة (بنو رزين)

- أبو محمد هذيل الأول بن خلف بن رزين (من سنة ١٠١١)
- أبو مروان عبد الملك الأول بن خلف، شقيقه
- أبو محمد هذيل الثاني عز الدولة نجل السابق
- أبو مروان عبد الملك الثاني حسام الدولة يحيى (إلى سنة ١١٠٣)

الفُنْت (بنو قاسم)

- عبد الله الأول بن قاسم الفهري نظام الدولة (إلى سنة ١٠٣٠)
- محمد يُمن الدولة
- أحمد عضد الدولة (إلى سنة ١٠٤٨ (٩))
- عبد الله الثاني جناح الدولة، شقيق السابق (١٠٤٨ (٩)–١٠٩٢)

بلنسية

- الصقلبيان: مبارك، والمظفر
- الصقلبي لبيب صاحب «طُرطُوشة»
- عبد العزيز المنصور (١٠٢١–١٠٦١)
- عبد الملك المظفر (١٠٦١–١٠٦٥)

ثم ضمت بلنسية لمملكة طليطلة.

- المأمون (طليطلة) (١٠٦٥–١٠٧٥)

ثم انفصلت بلنسية عن طليطلة.

- أبو بكر بن عبد العزيز (١٠٧٥–١٠٨٥)
- القاضي عثمان (ولده) (١٠٨٥)
- القادر (ملك طليطلة سابقًا) (١٠٨٥–١٠٩٢)
- ثم صارت بلنسية جمهورية رئيسها ابن جحاف (١٠٩٢–١٠٩٤)

دانية

- أبو الجيش مجاهد موفق (إلى سنة ١٠٤٤ (٥))
- علي إقبال الدولة (١٠٤٤ (٥)–١٠٧٦)

خلعه المقتدر صاحب سرقسطة وضمت دانية إلى مملكة سرقسطة.

- المقتدر (سرقسطة) (١٠٧٦–١٠٨١)

المقتدر يقسم مملكته بين ولديه، فكان نصيب الحاجب منذر: لاردة، وطرطوشة، ودانية.

- الحاجب المنذر (١٠٨١–١٠٩١)
- ولده تحت وصاية بني بطير

مرسية

- خيران (المرية) (١٠١٦ (٧)–١٠٢٨)
- زهير (المرية) (١٠٢٨–١٠٣٨)
- عبد العزيز المنصور بلنسية (١٠٣٨–١٠٦١)
- عبد الملك المظفر بلنسية (١٠٦١–١٠٦٥)
- كان أبو بكر أحمد بن طاهر حاكمًا لمرسية في عهد هؤلاء الملوك الثلاثة وتوفي سنة ١٠٦٣ وخلفه ولده أبو عبد الرحمن محمد (١٠٦٣–١٠٧٨)
- المعتمد (إشبيلية)
- ابن عمار
- ابن رشيق (إلى سنة ١٠٩٠)

المرية

- خيران (إلى سنة ١٠٢٨)
- زهير (١٠٢٨–١٠٣٨)
- عبد العزيز المنصور (بلنسية) (١٠٣٨–١٠٤١)

وبعدهم بنو صمادح:

- أبو الأحوص (١٠٤١–١٠٥١)
- محمد المعتصم (١٠٥١–١٠٩١)
- عز الدولة (١٠٩١)

الهوامش

الفصل الأول

(١) نشأت ملوك الطوائف بعد أن اضمحل أمر الخلافة الأموية بالأندلس، فقد استبد بالأمر المنصور بن أبي عامر وأعقابه، وأسسوا الدولة العامرية، وحالفوا بربر صنهاجة واستعانوا بهم في مواقفهم من دون العرب، ثم ثارت الفتنة بعد ذلك فانقرضت دولة العامريين وانتهب الثائرون دورهم وأديل لبني أمية ثانية، ثم تدهور بنو حمود وثبَّ الأمراء والموالي والوزراء وكبار العرب وأعيان البربر وقام كل واحد منهم بأمر في ناحية. وما زال حبل الأمن في اضطراب حتى ولي الأمر أبو محمد جهور بن محمد بن جهور في قرطبة، وانطوى بساط الدولة الأموية وصار الأمر إلى رؤساء البلاد، وولي بنو عباد إشبيلية وغرب الأندلس.

وقد اشتغل ملوك الطوائف بتغلب بعضهم على بعض والتجئوا إلى ملوك الفرنجة مستنصرين بهم حتى جاءهم يوسف بن تاشفين وأقام في بلاد الأندلس دولة المرابطين.

(٢) تفرقت إمبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة «دويلات» أنشأتها الظروف والمصادفات — كما يقول الأستاذ «نيكلسون» — وكان يحكمها بعض القادة المظفرين.

وقد أصاب «نيكلسون» في تشبيه إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر، فقد كان وجه الشبه — كما يقول — كبيرًا جدًّا بينهما.

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم "Condottieri" وكان من بينهم ملوك بني عباد الذين قطنوا إشبيلية. وهم أقوى الملوك الذين أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم: «ملوك الطوائف».

وعلى أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسي، وعلى أن إسبانيا كانت تشكو عجز مواردها الاقتصادية، فقد وصل المجتمع في تلك الأيام إلى مستوى لم يصل إلى مثله من قبل.

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذي قطعته الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذي يعد أزهى عصور الاحتلال الإسلامي في أوروبا.

فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم، إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق — في الغرب — حتى انعكست الآية تمامًا.

ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف من المسيحيين من كل جهة فتحوها، وقد عاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين، وأحسنت الحكومة معاملتهم، ومنحتهم الحرية الدينية، وكثيرًا ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك، فاعتنق كثير منهم الحضارة الإسلامية وافتتن بها افتتانًا.

حتى رأينا الفارو — كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد — يولول في أوائل ذلك العصر، شاكيًا من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتي المسلمين وفلاسفتهم، وهم لا يقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رائع صحيح. وكان الفارو يتساءل قائلًا: «أنى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل واحدًا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة؟ ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين؟

وا حسرتاه: إن كل الشبان ذوي المواهب لا يعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منتهاها، كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكاتبهم، وإنك لتراهم — حيثما وجدوا — يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالإعجاب.

فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم وأجابوك بازدراء: «إنها أسفار تافهة لا خطر لها ولا قيمة.»

وا حسرتاه عليهم! لقد نسي المسيحيون أنفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منهم على فرد واحد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب مقبول، على حين ترى جمهرتهم قادرة على الإبانة عما في نفوسهم بأسلوب عربي رائع، وعلى حين ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم.»

ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من إغراق، فمما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الإسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الإسبان، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التي أنشئوها بلغتهم وبلغة أبناء عمهم العرب.

أما المولدون والصابئون من الإسبانيين الذين دانوا بالإسلام فقد استعربوا تمامًا — بعد أجيال قليلة — ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربي.

وقد كان للشعر العربي — في أوروبا — على الإجمال نفس الخصائص التي رأيناها في الشعر المعاصر له في الشرق.

فإن الأوزان المصطلح عليها والقيود التي لم يستطع أساطين بغداد أن يحرروا أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هي — في قرطبة وإشبيلية.

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالآداب الفارسية، فقد تأثر في إسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئًا فشيئًا.

فكان ذلك سببًا في إدخال عناصر جديدة ظهرت في آدابهم بعد، ولعل أمتع ميزات الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب، والذي ظهر كثيرًا في أغانيهم عن الحب، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساسًا جديدًا بمحاسن الطبيعة التي جملته.

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي. انظر كتاب «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» للمترجم.

(٣) استولى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور على مقاليد الحكم، وكان رئيس الجماعة بها أيام فتنة بني أمية.

قالوا: ولما خلع الجند آخر خلفاء بني أمية بالأندلس استبد جهور بالأمر واستولى على المملكة بقرطبة سنة ٤٢٢هـ. وكان على سنن أهل الفضل، فأسندوا إليه أمرهم إلى أن يوجد خليفة، ثم اقتصروا عليه، فدبر أمرهم إلى أن هلك سنة ٤٣٥هـ.

وخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور وما زال على قرطبة، حتى خلعه أهلها سنة ٤٦١هـ، فأعقبه ابنه عبد الملك بن الوليد فأساء السيرة، فأخرجوه عنها، وزحف المعتمد بن عباد على قرطبة فملكها سنة ٤٨٤هـ.

(٤) قال صاحب كتاب المعجب:

ولما انقطعت دعوة بني أمية بالأندلس، ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة، ولا من تليق به الرياسة، استولى على تدبير ملك قرطبة جهور ابن محمد بن جهور، ويكنى: أبا الحزم، وهو قديم الرياسة شريف البيت، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية، وهو موصوف بالدهاء، وبعد الغور، وحصافة العقل، وحسن التدبير، ولم يدخل — من دهائه — في الفتن الكائنة قبل ذلك، وكان يتصاون عنها، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف، فلما خلا له الجو وصفر الفناء، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها، واضطلع بحمايتها. ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرًا جريًا على ما قدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيرًا لم يسبق إليه، وذلك أنه جعل نفسه ممسكًا للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك، ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم. وصير أهل الأسواق جندًا له، وجعل أرزاقهم رءوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه. وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز، ويعود المرضى جاريًا على طريقة الصالحين. وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين، وكان آمنًا وادعًا وقرطبة في أيامه حرمًا يأمن فيه كل خائف، واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥، فكانت مدة تدبيره — منذ استولى إلى أن مات — أربع عشرة سنة وأشهرًا، ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣، فغلب عليها — بعد أمور جرت — الأمير الملقب بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فدبرها مدة يسيرة إلى أن مات، وخلف فيها بعده من البربر رجلًا يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير

الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله (تعالى)، فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارًا للملك، وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعًا لإشبيلية.

وجاء في كتاب الصلة لابن بشكوال ما يأتي:

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبيدة رئيس قرطبة، يكنى: أبا الحزم.

روى عن أبي بكر عباس بن الهمذاني، وأبي محمد الأصيلي، والقاضي أبي عبد الله بن مفرج، وأبي القاسم خلف بن القاسم، وأبي يحيى زكريا ابن الأشج وغيرهم، وسمع منهم وأخذ العلم عنهم، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه، فقال: حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر، وهو يعني أبا الحزم هذا. ثم صار تدبير أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فألفها بالرياسة فيها، إلى أن توفي يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من سنة ٤٣٥ ودفن بداره، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولي الأمر من بعده. وكانت سنه يوم وفاته إحدى وسبعين سنة. وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤.

قالوا: «أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور وكان من وزراء الدولة العامرية، موصوفًا بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها، فلما خلا الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرًا بل رتبها ودبرها تدبيرًا لم يسبق إليه، وأظهر أنه حامٍ للبلد إلى أن يجيء من يستحقه ورتب البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة ولم يتحول عن داره إليها، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم له.

وكان جهور يشهد الجنازة، ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك وكان مأمون الجانب. فأمن الناس في أيامه، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربع مئة، وقام بالأمر بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات.»

وجاء في المطمح:

الوزير الأجل أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور وبنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزارة وأبو الحزم هذا أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمات؛ ركب متون الفنون فراضها، ووقع في بحور المحن فخاضها، وهو منبسط غير منكمش، لا طائش اللسان ولا رعش، وقد كان وزر في الدولة العامرية فشرفت بجلاله، واعترفت باستقلاله، فلما انقرضت وعاقت الفتن واعترضت تحيز من التدبير مدتها، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة وشدتها، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر، غير مظهر للانفراد، ولا متصرف في ميدان ذلك الطراد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوغت ما شاءت رداها، وذهب من كان يجد في الرياسة ويخب ويسعى في الفتنة، ولما ارتفع الوبال، وأدبر ذلك الإقبال راسل مستمدًّا بهم ومعتمدًا على بعضهم تخييلًا منه وتمويهًا وتداهيًا على أهل الخلافة وذويها، وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام، وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام، ثقة بسرعة التياثها، وتعجيل انتكاثها، وأنابوا إلى دعائه، وأجابوا إلى استدعائه، وتوجهوا مع ذلك الإمام، وألموا بقرطبة أحسن إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطرابات مستثيرة، والبلد مقفر، والجلد مسفر، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره فخلع، واختطف من الملك وانتزع، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم، ودبرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطًا آمن خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلا له الجو فطار، واقتضى اللبانات والأوطار، فعادت له قرطبة على أكمل حالتها، وانجلى به نور جلالتها، ولم تزل به مشرقة، وغصون الآمال فيها مورقة، إلى أن توفي سنة ٤٣٥، فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد، واشتمل منه على طارف وتليد، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم نادر المثال. وقد أثبت من شعره ما هو لائق. وذلك قوله في تفضيل الورد:

الورد أحسن ما رأت عيني، وأذ	كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه	فتذللت تنقاد وهي شواهد
وإذا تبدى الورد في أغصانه	يزهو، فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وقع الربيع مبشرًا	لطلوع صفحته فنعم الوافد

ليس المبشر كالمبشر باسمه خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد

(٥) استبد القاضي أبو القاسم إسماعيل بإشبيلية بعد فرار القاسم بن حمود عن قرطبة وقد استطاع القاضي أن ينتزع قرطبة من ابن زيري الذي ولاه عليها القاسم بن حمود وما زال يعظم شأن القاضي حتى مات سنة ٤٣٣هـ فخلفه عليها ابنه عباد ولقب نفسه بالمعتضد وطالت أيامه وعظم شأنه حتى تغلب على أكثر الممالك بغرب الأندلس، ومات سنة ٤٦١هـ.

فخلفه ابنه المعتمد، وما زال يعظم شأنه حتى استولى على دار الخلافة بقرطبة من يد ابن جهور وعظم أمر المعتمد بين ملوك الطوائف حتى غلبه يوسف بن تاشفين على الأندلس سنة ٤٨٤هـ.

(٦) القاسم بن حمود وعلي بن حمود كانا في جملة جماعة المستعين الأموي المسمى سليمان بن الحكم، وبعد أن انقرضت دولة بني حمود من فاس عقد المستعين للقاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء من الأندلس وعقد لعلي بن حمود على طنجة. وبعد قليل سمت نفس علي هذا إلى الخلافة وزعم أن هشامًا الأموي قد كتب له بعهد، فبايعه ناس، وأجاز إلى مالقة فملكها، ثم دخل قرطبة سنة ٤٠٧ ولقب نفسه بالناصر لدين الله، وبقي كذلك حتى قتله صقالبته سنة ٤٠٨ في الحمام.

فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود — وكان حينئذ في طنجة — ولقب نفسه بالمأمون، ثم غلبه يحيى — ابن أخيه علي — وزحف إلى قرطبة فملكها سنة ٤١٢ ولقب نفسه بالمعتلي، وما زال يعظم شأنه حتى حاصر ابن عباد بإشبيلية وكبا به فرسه فقتل. وانتهت بقتله دولة بني حمود بقرطبة.

(٧) وكان عباد الجد الثالث لإسماعيل.

(٨) جاء في كتاب المعجب ما يلي:

> أما أحوال إشبيلية فإنها كانت في طاعة الفاطميين أعني علي بن حمود والقاسم بن حمود، ويحيى بن علي بن حمود، أيام كان الأمر دائرًا بينهم على ما تقدم ذكره.
>
> فلما زحف يحيى بن علي بالبربر إلى قرطبة، وهرب القاسم بن حمود منها، وقصد إشبيلية، وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر

أهل إشبيلية، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فأخرجوهما، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضًا، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم، وتجتمع به كلمتهم فتوارد اختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله، وسعة صدره، وعلو همته، وحسن تدبيره، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك، فتهيب الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد أولًا، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالًا سماهم لهم يكونون له أعوانًا ووزراء وشركاء لا يقطع أمرًا دونهم، ولا يحدث حدثًا إلا بمشورتهم، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، ومحمد بن يريم الألهاني، وأبو الأصبع عيسى الهوزني، ورجال آخرون ذهبت عني أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم، ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية، وهؤلاء المذكورون من وزرائه، وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد، وعباد يكنى أبا عمرو، فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر، بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من جند إشبيلية، فالتقى هو وصاحب صنهاجة فأسلمت إسماعيل عساكره. وكان أول قتيل، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس بن علي الفاطمي كما تقدم، وبقي الأمر كذلك، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير، وكان مصلحًا صالحًا إلى أن مات في شهور سنة ٤٣٩.

وفي كتاب عقد الجمان للعيني (القسم الرابع) ما يأتي:

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وهو من ولد النعمان بن المنذر، وفي هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم، وكان قد اختفى وانقطع خبره، وكان ظهوره بمالقة ثم سار منها إلى المرية، فخافه صاحبها، زهير العامري وأخرجه منها، وقصد قلعة رباح فأطاعه أهلها، فسار إليهم صاحبها إسماعيل بن ذي النون، فحاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه، فاستدعاه القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه بإشبيلية، وأذاع أمره وقام بنصره، فسار إليه وقام بواجبه، وكتب

بظهوره إلى ملوك الأندلس، فأجاب أكثرهم وخطبوا له، وجرت بيعته في المحرم سنة تسع وعشرين وأربع مئة، ثم إن عبادًا سير جيشًا إلى زهير العامري بأن يخطب للمؤيد، فاستنجد زهير حيوس الصنهاجي صاحب غرناطة، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد، ولم يكن بين العسكرين قتال، وأقام زهير ببأسه، وجاء حيوس إلى مالقة فمات، وولي بعده ابنه باديس، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس، فلم تستقر بينهما قاعدة، واقتتلا فقتل زهير، وجمع كثير من أصحابه، والتقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس، وعسكر إدريس الفلوي صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل إسماعيل، ثم مات بعده القاضي أبو القاسم بن عباد وولي بعده ابنه أبو عمرو، ولقب المعتضد بالله، فضبط ما ولي وأظهر وفاة المؤيد، واشتغل بأمر إشبيلية وبقي كذلك إلى أن مات وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله، فاتسع في ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيرًا من الأندلس، وملك قرطبة أيضًا، وولى عليها ابنه الظافر بالله، فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة، وسار إلى قرطبة فأقام يسعى في ذلك وهو ينتظر الفرصة، فاتفق أن في بعض الليالي جاء مطر عظيم ومعه ريح شديد ورعد وبرق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس، وكان صغير السن، فحمل عليهم ودفعهم عن الباب، ثم عثر في بعض كراته فسقط، فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك وتلاحق بجرير أصحابه وأشياعه، وترك الظافر ملقى على الأرض، فمر عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحالة، فنزع رداءه وألقاه عليه، وكان أبوه إذا ذكر يتمثل بهذا البيت:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه   سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها، فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتي ذكرها إن شاء الله (تعالى).

وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد، وبقي مسجونًا في «أغمات» إلى أن مات بها وكان هذا وأولادهم جميعهم — الرشيد، والمأمون، والراضي، والمعتمد — وأبوه وجده علماء شعراء.

الفصل الثاني

(١) المجلة الآسيوية السلسلة الرابعة من الجزء ١٦ ص٢٠٣–٢٠٥ مقال م. مونك.

(٢) كرونيكادل مورو ورازيس ص٣٧ تاريخ الرازي.

(٣) ابن حيان — ابن بسام ج١ ص١٢٢.

(٤) المجلة الآسيوية ص٩٢.

(٥) موسى بن عزرا (في المجلة الآسيوية ص٢١٢ شرح) يسميه ابن أبي موسى وهذا في الحقيقة هو الاسم الذي أطلقه الحمودي على الوزير ابن بقية وقد أخطأ من نقل مخطوط «عبد الواحد» (انظر طبعتي هذا المؤلف ص٤٣) إذ محا كلمة «أبي» التي كتبها أولًا.

(٦) عباد ج٢٢ ص٣٤.

(٧) جاء في كتاب «البيان المغرب» بتحقيق العلامة «دوزي» ج٢ ص٨٦ ما يأتي:

> ومن أخباره في الجبرية والقسوة، قال ابن حيان عندما استوعب الفتكة بأبي نصر بن أبي نور اليفرني أمير رندة المنتزي بها وقتله، ورجوعها إلى ابن عباد، حكى أبو بكر الوسنشاني الفقيه عن ثقة عنده من أصادقه التجار: أنه حضر مدينة غرناطة حضرة باديس بن حبوس الجبار أيام حدث على أبي نصر صاحب تاكرنا ما حدث، وأن أميرها باديس قام بالحادثة وقعد وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشق أثوابه، وأعلن إعواله، وهجر سراريه التي لا صبر له عنهن وجفا بلاده وأوهمته نفسه الجيشة تمالؤ رعيته من أهل الأندلس على مثل الذي دها أبا نصر، فسولت له نفسه حمل السيف على أهل حضرته جميعًا مستحضرًا لهم وكيما ينفدهم ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتي ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع لأقرب أيام الجمعة من قوة همومه، وشاور وزيره اليهودي إسماعيل مدبر دولته الذي لا يقطع أمرًا دونه مستخليًا مستكتمًا بسره مصممًا في عزمه إن هو لم يوافقه عليه، فنهاه

عن ذلك وخطَّأ رأيه فيه وسأله الأناة ومحض الروية وقال له: هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك على ما في استباحتهم من الخطر، فلن تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك وبسائط أعمالك، أتراهم يطمئنون إلى الذهول عن مصابهم والاستقرار في موضعهم؟ ما أراهم والله إلا سوف ينتظمون عليك في جموع يغزونك في لجحها أنت وجندك، فرد نصيحته وأخذ الكتمان عليه وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند في السلاح والتعبئة لركوبه يوم الفتكة يوم تلك الجمعة فارتج البلد، وذكر أن اليهودي دس نسوان إلى معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطة ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة ولم يأته إلا نفر من عامتهم، وانفردوا بمن أتاهم من مشيخة البربر وأغفال القادمين، وجاء إلى باديس الخبر والجيش في السلاح حوالي قصره فساءه وفت في عضده ولم يشك في فشو سره، وأحضر وزيره وقلده البوح بسره فأنكر ما قرفه به وقال: «ومن أين ينكر على الناس الحذر وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك في التعبئة لا لسفر ذكرته ولا لعدو وثب إليك، فمن هناك حرس القوم على أنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم، ووقاك إثارهم، فأعد نظرك يا سيدي فسوف تحمد عاقبة رأيي وغبطة نصحي.» فنصح وزيره شيخ من موالي صنهاجة فانعطف لذلك بعد لأي وشرح الله صدره. ويجري التعريف بشيء من أمور وزيره قال ابن عذارى المراكشي في كتابه المسمى بـ«البيان المغرب»: «أمضى باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نغذالة اليهودي عمالًا ومتصرفين من أهل ملته واكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين.» قال ابن حيان: «وكان هذا اللعين في ذلته على ما زوى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علمًا وحلمًا وفهمًا وذكاءً ودماثة وزكانة ودهاء ومكرًا وملكًا لنفسه وبسطًا من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه واستسلالًا لحقودهم بحلمه من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربي ونظر فيه وقرأ كتبه وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله (تعالى) والصلاة على رسوله محمد ﷺ والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله، ما يزيد ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، فجمع لذلك السجيح في علوم الأوائل الرياضية وتقدم

منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كل مسئول منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، نافيًا للسباب مع ذكائه، دائم التفكر، جمّاعة للكتب، هلك في العشر الثاني لمحرم سنة تسع وخمسين وأربع مئة، فحمل يهود نعشه على أعناقهم خاضعين وتفاقدوه جازعين وبكوه معولين، وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية يعلمونه ويدارسونه، وأعلقه بصناعة الكتابة ورشحه لأول حركة لكتابة ابن مخدومه ابن باديس المترشح لمكانه، فمهد قواعد هلكته، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت أدناه باديس إليه وأظهر الاغتباط به والاستعاضة بخدمته عن أبيه.»

(ذكر مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغذالة الإسرائيلي) قال صاحب البيان: «وترك ابنًا له يسمى يوسف لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة، وكان جميل الوجه حاد الذهن فأخذ في الاجتهاد في الأحوال وجمع المال واستخراج الأموال واستعمال اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره، وكانت له عليه عيون في قصره من نساء وفتيان يشغلهم بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس إلا وهو يعلم ذلك، ووقع ما تقدم ذكره في ذكر بلقين من اتهامه بسمه وتوليه (…) التهمة به عند أبيه الكثير من جواريه وخدامه، وفتك هذا بقريب له تلوله في الخدمة والوجاهة يدعى بالقائد شعر (…) منه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة واستهدف للناس، فشغلت به ألسنتهم وذاعت قصيدة الزاهد أبي إسحاق الألبيري في الإغراء بهم، واتفق أن أغارت على غرناطة بعوث صمادحية تقول إنها باستدعائه ليعيد الأمر الصنهاجي إلى مجهزها الأمير بمدينة المرية، وباديس في هذا الحال منغمس في بطالته عاكف على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهطه من صنهاجة فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة فدخلوا عليه، فاختفى — زعموا — في بيت فحم وسود وجهه يروم التنكير، فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة، وقتل من اليهود في يومه مقتلة عظيمة ونهبت دورهم، وذلك سنة تسع وخمسين وأربع مئة.»

وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلًا من اليهود ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب البيرة على غلوة يعترض الطريق على الحدة حجار كدان جافية الجرم، ومكانه من الرقة والترف والظرف والأدب معروف، وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمنع من ذكره في أعلام الأدباء والأفراد الأجلة.

(٨) المجلة الآسيوية ص٢٠٦–٢٠٨.

(٩) في «البيان المغرب» في أخبار خيران الصقلبي العامري ما نصه: «فلما تخربت الخلافة وانشقت عصا الأمة، انتزى خيران هذا على مدينة المرية وأعمالها وانضوى إليه جميع فتيان محمد بن أبي عامر فحولهم وخصيانهم ... إلى أن قال: فدبر أمر المرية إلى أن هلك سنة تسع عشرة وأربع مئة، وصار الأمر فيها إلى صاحبه زهير الفتى العامري فوليها من بعده نحو عشرة أعوام، وتحرك إلى مدينة غرناطة في جيش كثيف حتى وصل إلى بابها فخرج إليه جمع من صنهاجة مع أميرهم باديس بن حبوس، فوقعت بينهم حرب كان الظفر فيها لصنهاجة، وانهزم جيش الصقالبة، وقتل زهير أميرهم وكثير منهم.»

(١٠) جاء في «البيان المغرب» ما يأتي:

وأما زهير الفتى المتقدم الذكر، فكان قد امتدت أطناب مملكته من المرية إلى شاطبة وما يليها إلى «بياسة» وما وراءها إلى «الفج» من أول عمل طليطلة.

قال حيان بن خلف: «وكان سبب فساد باديس بن حبوس على جاره القديم الحلف زهير الفتى فتى المنصور بن أبي عامر موالاته لكاشحه محمد بن عبد الله الزناتي.

ومضى على ذلك حبوس من عداوته، وخلفها كلمة باقية في عقبه ضرم زهير نارها بعد. فتمادى تمسكه بالمذكور، فأرسل إليه باديس رسوله معاتبًا مستدعيًا تجديد المحالفة، فسارع زهير مقبلًا نحو باديس وضيع الحزم واغتر بالعجب، ووثق بالكثرة، وصار أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله، قد ترك رسوم الالتقاء بالنظراء، وغير ذلك من وجوه الحزم، وأعرض زهير عن ذلك كله، وأقبل ضاربًا سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه، وصير المضايق والأوعار خلف ظهره ولا يفكر فيها، واقتحم البلد حتى صار إلى باب غرناطة.

ولما وصل زهير إلى غرناطة خرج إليه باديس بن حبوس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعده حاصلًا في قبضته، فبدأه بالجميل والتكريم وأوسع عليه وعلى رجاله في القرى والقضيم، بما مكن اغترارهم وثبت طمأنينتهم، فوقعت المناظرة بين زهير وباديس ومن حضرهما من رجال دولتهما، فنشأ بينهما

عارض خلاف لأول وهلة، وحمل زهير على التشطط، ووزيره أحمد بن عباس يفري الفرى في تصريح ما يعرض به زهير فعزم باديس عند ذلك على القتال ووافقه قومه صنهاجة، فأقام مراكبه، ونصب كتائبه، وقطع قنطرة لا محيد لزهير عنها، والخائن زهير لا يشعر، وبات تتمخض له ليلته عن راغية البكر، وغاداه باديس صبيحتها عن تعبئة محكمة، فلم يرعه إلا رجة القوم راجعين إليه بخفق طبولهم فدهش زهير وأصحابه، فيا لك من أمر شتيت، وهول مفاجئ، قسم بال المرء بين نفسه وماله ووزع همه بين روحه ورحاله! إلا أن أميرهم زهيرًا أحسن تدبير الثبات لو استتمه، وقام ينتصب للحرب، فثبت في قلب معسكره، وقدم خليفته هذيلًا الصقلبي في وجوه أصحابه من الموالي العامريين الفحول، وعشيرته الصقلب وغيرهم لاستقبال صنهاجة فلما رأوه علموا أنهم حماته وشوكته، وأنهم متى خضدوها لم يثبت لهم من وراءهم، فاختلف الفريقان واشتد بينهما القتال مليًّا، فلم يكن إلا قليلًا حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عددًا ليري الله قدرته، ويجدد في قلوب عباده عبرته، فنكص في الصدمة قائدهم هذيل وانهزم أصحابه، وسيق هذيل لوقته إلى باديس أسيرًا فعجل بضرب عنقه، فما هو إلا أن نظر زهير لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز إلى فئة، ولج به الفرار وانهزم أصحابه خلفه لا يلوون على شيء، وركبت صنهاجة ولفها من زناتة أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدق العصبية وإيثار الإفناء، فلم يبقوا على أحد قدروا عليه، فأساءوا الاعتداء، وأبادوا أمة أخذوا في شعاب وعرة، وأجبل شامخة، أجاءهم إليها السيف، فكانت حتف من فر، وتقطعوا على هذه السبيل وأودى أميرهم زهير وجهل مصرعه، وكان سودانه غدروه أول وهلة، وانقلبوا مع صنهاجة وكانوا يقاربون خمس مئة.

وغنم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والخيام وسائر أنواع الأموال ما لا يحيط به الوصف، فظفر باديس على قوم من وجوه رجال زهير فجعل على الفرسان والقواد بالقتل، وشمل الإسار حملة الأقلام وفيهم وزيره الكبير أحمد بن عباس الجار لحر لهذه الثائرة، فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ في دمه، وعف باديس عن دماء حملة الأقلام دونه إلا من أصيب منهم في الحرب، وأطلق ابن حزم والباجي وغيرهما.

وكان باديس قد أرجأ قتل ابن عباس مع جماعة من الأسرى إلى أن وجه إليه أبو الحزم بن جهور رسولًا شافعًا في جماعتهم مؤكدًا في شأن «ابن عباس» فكان أبعدهم من الخلاص، وآثر الشفاء في قتله على عظيم ما كان يعطى في فديته. فانصرف يومًا من بعض ركبانه مع أخيه بلقين فلما مر على الدار التي كان فيها ابن عباس أمر بإخراجه إليه فأقبل يرسف في قيوده حتى أقيم بين يديه، فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يتلطف ويسأله راحته مما هو فيه، فقال له: «اليوم تستريح من هذا الألم، وتنتقل إلى ما هو أشد منه.» فبان لأحمد منه وجه الموت، فجعل يكثر الضراعة لباديس ويضعف له عدد المال، فآثر غضبه وهز مزراقه فوكزه فيه، وأمر بحز رأسه. فعلق، ووورى جسده خارج القصر، فمضى زهير وابن عباس على هذه السبيل.

وكان ابن عباس حسن الكتابة مليح الخط، غزير الأدب، قوي المعرفة، مشاركًا في العلوم، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعًا للأدوات. وبلغني أن عبد العزيز بن أبي عامر سعى على دمه لما حصل على المرية، وخاف أن يتخلص فيكدرها عليه، وكذلك أكد ابن صمادح صاحب المرية يومئذ في قتله، فقتله انصراف ابن صمادح عنه.»

الفصل الثالث

(١) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر المنصور المتوفى سنة ٤٥٢هـ.

(٢) هو مجاهد العامري صاحب داينة والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن برزال بويع بقرمونة سنة ٤٠٤هـ وتوفي سنة ٤٣٤هـ.

(٤) قال ابن الأثير:

لما قتل يحيى بن علي رجع أبو جعفر أحمد بن أبي موسى المعروف بابن بقية ونجا الخادم الصقلبي، وهما مدبرا دولة العلويين، فأتيا مالقة، وهي

دار مملكتهم فخاطبا أخاه إدريس بن علي، وكان له سبته وطنجة، وطلباه فأتى إلى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبتة، فأجابهما إلى ذلك فبايعاه، وسار حسن بن يحيى ونجا إلى سبتة وطنجة، وتلقب إدريس بالمتأيد بالله، فبقي كذلك إلى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وأربع مئة، فسير القاضي أبو القاسم بن عباد ولده إسماعيل في عسكر ليتغلب على تلك البلاد، فأخذ قرمونة وأخذ أيضًا «إشبونة» و«أستيجة» فأرسل صاحبها إلى إدريس وإلى باديس بن حبوس صاحب صنهاجة، فأتاه صاحب صنهاجة بنفسه، وأمده إدريس بعسكر يقوده ابن بقية مدبر دولته، فلم يجسروا على إسماعيل بن عباد، فعادوا عنه فسار إسماعيل مجدًّا ليأخذ على صنهاجة الطريق، فأدركهم وقد فارقهم عسكر إدريس قبل ذلك بساعة، فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقاتلوا إسماعيل بن عباد، فلم يلبث أصحابه أن انهزموا وأسلموه فقتل وحمل رأسه إلى إدريس وكان إدريس قد يقن بالهلاك وانتقل عن مالقة إلى جبل يحتمي به وهو مريض، فلما أتاه الرسول عاش بعده يومين ومات. وترك من الولد يحيى ومحمدًا وحسنًا، وكان يحيى بن علي المقتول قد حبس ابن عمه محمدًا والحسن ابني القاسم بن حمود بالجزيرة، فلما مات إدريس أخرجهما الموكل بهما ودعا الناس إليهما فبايعهما السودان خاصة قبل الناس لميل أبيهما إليهم، فملك محمد الجزيرة ولم يتسم بالخلافة، وأما الحسن بن القاسم فإنه تنسك وترك الدنيا وحج. وكان ابن بقية قد أقام يحيى بن إدريس بعد موت والده بمالقة، فسار إليها نجا الصقلبي من سبتة هو والحسن بن يحيى. فهرب ابن بقية ودخلها الحسن ونجا، فاستمالا ابن بقية حتى حضر فقتله الحسن، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس، وبايعه الناس بالخلافة، ولقب بالمستنصر بالله، ورجع نجا إلى سبتة وترك مع الحسن المستنصر نائبًا له يعرف بالشطيفي، فبقي حسن كذلك نحوًا من سنتين، ثم مات سنة أربع وثلاثين وأربع مئة، فقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته أسفًا على أخيها يحيى. فلما مات المستنصر اعتقل الشطيفي إدريس بن يحيى، وسار نجا من سبتة إلى مالقة وعزم على محو أمر العلويين، وأن يضبط البلاد لنفسه، وأظهر البربر على ذلك فعظم عندهم فقتلوه وقتلوا الشطيفي وأخرجوا إدريس بن يحيى وبايعوه بالخلافة وتسمى

«بالعالي»، وكان كثير الصدقة يتصدق كل جمعة بالخمس مئة دينار، ورد كل مطرود عن وطنه وأعاد عليهم أملاكهم. وكان متأدبًا حسن اللقاء له شعر جيد، إلا أنه كان يصحب الأرذال ولا يحجب نساءه عنهم، وكل من طلب منهم حصنًا من بلاده أعطاه. فأخذت منه صنهاجة عدة حصون وطلبوا وزيره ومدبر أمره صاحب أبيه موسى بن عفان ليقتلوه فسلمه إليهم فقتلوه، وكان قد اعتقل ابني عمه محمدًا والحسن ابني إدريس بن علي في حصن «إيرش»، فلما رأى ثقته بأبرش اضطراب آرائه خالف عليه، وبايع ابن عمه محمد بن إدريس بن علي. وثار باديس بن يحيى من عنده من السودان وطلبوا محمدًا فجاء إليهم وسلم إليه إدريس الأمر، وبايع له سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة، فاعتقله محمد وتلقب بالمهدي وولى أخاه الحسن عهده، ولقبه السامي، فظهرت من المهدي شجاعة وجرأة فهابه البربر وخافوه، فراسلوا الموكل بإدريس بن يحيى فأجابهم إلى إخراجه وأخرجه وبايع له وخطب له بسبتة وطنجة بالخلافة، وبقي إلى أن توفي سنة ست وأربعين. ثم إن المهدي رأى من أخيه السامي ما أنكره فنفاه عنه فسار إلى العدوة إلى جبال غمارة وأهلها ينقادون للعلويين ويعظمونهم فبايعوه. ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة واجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة وتسمى بالمهدي أيضًا، فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا، فرجعت البرابر عنه، وعاد إلى الجزيرة فمات بعد أيام. فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين، وكان إدريس بن يحيى المعروف «بالعالي» عند بني يفرن بتاكرنا فلما توفي محمد بن إدريس بن علي قصد إدريس بن يحيى مالقة فملكها ثم انتقلت إلى صنهاجة.

وقد نقلنا هذا الفصل هنا لاتصاله اتصالًا شديدًا بما نحن فيه.

الفصل الرابع

(١) في سنة خمس وثلاثين وأربع مئة بعد الفتنة المبيرة بقرطبة واستحكام الداء بين البربر من جهة والعرب والأندلسيين الأصليين وهم الصقالبة من جهة أخرى، انحاز أمراء

الأندلس وملوك البربر وصاروا حزبين: حزب زعيمهم سليمان بن هود الجذامي صاحب الثغر الأعلى، وكان معه مقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومن تحتهما من الولاة أصحاب الأعمال في الجهات الوسطى، وكان ابن معن صاحب المرية، وسعيد بن رفيل صاحب «شقورة» وغيرهما من رؤساء هذا الجانب منضمين إلى محمد بن جهور صاحب قرطبة، وكان هؤلاء جميعًا — وهم الأندلسيون الأصليون — على نمط واحد ورأي واحد يمثلون حزب السكان الأصليين المناوئ لحزب البربر، وكان هؤلاء الثغريون متظاهرين على زعيم البرابرة باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة وعلى حزبه من البربر، وعلى إدريس بن يحيى صاحب مالقة ومن يدعو إليه، وكانوا يدعون لهشام، وكان باديس ومن ظاهره من أمراء البربر يدعون لإدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسني إمامهم بمالقة.

وحزب آخر من ملوك الأندلس المسارعين إلى الانحياز والفرقة كمجاهد العامري صاحب دانية، وكابن الأفطس صاحب بطليوس، ومن يتصل بعمله من الرؤساء في غربي الأندلس، ويحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة ومن تبعه من صغار الرؤساء، وكل هؤلاء على غرار واحد ونمط واحد، يلتفون حول عباد المعتضد صاحب إشبيلية، ويدعون بدعوته للحصري المشبه بهشام المنصوب خليفة بإشبيلية. وكان كل حزب من الحزبين يتظاهر على ضده أتم مظاهرة، ويتعاون فيما بينه على مدافعة عدوه، والاستعداد للحوادث المفاجئة، هذه هي الجماعات والفرق التي كانت تنضم إلى كل من الحزبين: الحزب البربري، والحزب العربي الصقلبي.

(٢) هذا التاريخ موجود في ابن بسام «ج١ ص٢٢٤».

(٣) لما تولى إدريس بن يحيى العلوي احتجب عن الناس على عادة العباسيين في الشرق ولبث كذلك حتى أنشده عبد الرحمن الإشبوني قصيدته التي يقول في أولها:

البرق لائح من أندرين	هملت عيناك بالماء المعين؟
لعبت أسيافه عارية	كمخاريق بأيدي لاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين	وبقلبي زفرات وأنين
وأناجي — في الدجى — عاذلتي	«ويك، لا أسمع قول العاذلين»

خوفتني من سقام وضنى   إن هذين لدين العاشقين

فلما بلغ قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم   إنه من نور رب العالمين

أمر إدريس صاحبه برفع الحجاب. وقد حكمت الدولة العلوية الأندلس سبع سنوات فقط وكانت عاصمتها سبتة وتنتمي إلى علي بن أبي طالب وعدد ملوكها ثلاثة. وعاد الأمر بعدها إلى بني أمية مرة أخرى ثم سقطت دولة بني أمية وخلفها ملوك الطوائف.

(٤) بلدة مشهورة من قواعد بلاد البربر واقعة على طرف بحر الزقاق بين برها وبين جزيرة الأندلس أقرب مسافة في البحر، وهي داخلة فيه كدخول كف على زند. ينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم ابن مرانة السبتي كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة، وكان المعتمد يقول: «اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر: ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي». وتقع طنجة في الجنوب منها على شاطئ المحيط الغربي.

(٥) هي معقل حصين في الجهة الغربية من الأندلس بين إشبيلية ومالقة.

(٦) هي مدينة بالأندلس من أعمال رية واقعة على ساحل بحر الزقاق، وهو المعروف قديمًا ببحر المجاز، والمعروف الآن بمضيق جبل طارق. وتقع قبالتها من العدوة الأخرى ببلاد المغرب مدينة سبتة.

(٧) نحن هنا بمسيس الحاجة إلى اختصار طرف من أخبار الدولة الحسنية الحمودية يعرف بها حالهم ونسبهم، ويتسق بها تسلسلهم وتعاقب ولاتهم:

فأول ملوك بني هاشم بالأندلس علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرج من سبتة إلى مالقة للأخذ بثأر هشام الخليفة الأموي فانحاز إليه خيران الصقلبي، وزاوي بن زيري، وحبوس بن ماكسن وإخوته وبنو عمه من صنهاجة، ومن انضم إلى هؤلاء من جماعة الناس، فحارب بهم سليمان قاتل هشام وهزمه ودخل القصر بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، وبقي خليفة إلى أن قتله صقالبته بحمام قصره سنة (٤٠٨). وولي الخلافة بعده بقرطبة أخوه القاسم بن حمود، ولي مرتين: المرة الأولى سنة (٤١٢) وبقي بها إلى أن فر وخلعه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود، والثانية بعد

ابن أخيه يحيى، وتوفي محبوسًا عند ابن أخيه إدريس بن علي بن حمود، وبعد هؤلاء انقرضت دولة بني حمود بقرطبة.

ولما خرج يحيى بن حمود من قرطبة في خلافته الأولى استوطن مالقة أما عمه القاسم فخرج منها إلى إشبيلية فأوصد أهلها أبوابها في وجهه، فاستقر بشريش، فزحف إليه ابن أخيه يحيى هذا، وأسره وأسر معه بنيه وسجنهم في مالقة، وبذلك صارت شريش ومالقة، والمرية، وسبتة في طاعته، وخطبوا له بالخلافة، وبقي عمه القاسم سجينًا عنده إلى أن قتله خنقًا، أما يحيى بن علي فبقي خليفة إلى أن قتل بقرمونة سنة (٤٢٧) ولما وصل خبر مقتله إلى أخيه إدريس بن علي بن حمود دخل مالقة ودعا لنفسه، فبايعه حبوس بن ماكسن وقبيلته صنهاجة، وتوفي إدريس هذا صاحب سبتة ومالقة سنة (٤٣١) فبويع أخوه حسن بن علي بسبتة، ولما توفي قام بعده ولده يحيى بن حسن بن علي، ثم قام عليه ابن عمه حسن بن يحيى بن علي فخلعه وقتله بسبتة ثم توفي حسن بن يحيى هذا بمالقة مسمومًا، وترك ولدًا صغيرًا بسبتة، فقام به قائده «أبو الفوز نجاء» فجاز البحر إلى الجزيرة الخضراء، ولما كان في بعض الطريق قتله أخوال يحيى بن حسن ومواليه، ونهض قوم منهم إلى مالقة فقتلوا الوزير أبا جعفر بن موسى، وأخرجوا إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من سجنه، فبايعه أمراء البربر، وخطبوا له باسم الخلافة وذلك سنة (٤٣٤) ثم قدم عليه بمالقة ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن محمود، وخلعه سنة (٤٣٨) وبويع له بالخلافة، وكان سفاكًا للدماء فوجه إليه باديس بن حبوس بكأس عراقي مسموم فمات في سنة (٤٤٤) فولي ولده محمد، فخلعه البربر وأقاموا محمد بن القاسم بن محمود، ومات محمد بن القاسم، فبايعوا ابنه القاسم ثم تغلب ابن عباد صاحب إشبيلية على الجزيرة الخضراء، وأخرج منها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود، وبخروجه انقرضت ذريتهم من الأندلس، ودالت دولة الحموديين بها، وكانت مدتهم ٥٨ سنة.

الفصل الخامس

(١) المعتضد وأخباره وأشعاره

ننقل هنا — بتصرف يسير — طرفًا من أخبار المعتضد عن كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي، ثم نتبع ذلك بنبذة من قصائده ومقطوعاته نقلًا عما أثبتناه من شعر الملكين «المعتضد والمعتمد» في شرح «ديوان ابن زيدون» (ص٢٧٠) تتميمًا للفائدة،

وإثباتًا لما له مساس بالفصول (٥، ٦، ٧) من كلام «دوزي» حتى يكون القارئ على بينة مما يمر به فيها من الحوادث التاريخية، والعبارات التحليلية التي يحلل بها «دوزي» نفسية ملكين عظيمين من ملوك الطوائف هما المعتضد ومنافسه باديس وذلك ما نراه ضروريًّا ولازمًا لاتصاله بما نحن فيه اتصالًا وثيقًا.

المعتضد

هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، ولي أمور إشبيلية وأعمالها بعد وفاة أبيه القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل سنة (٤٣٩)هـ وجرى على سنن أبيه أولًا من جعل الحكم شورى بينه وبين مجلس منتخب من أعوان ووزراء وشركاء لا يقطع أمرًا دونهم، ولا يحدث حدثًا إلا بمشورتهم، ثم بدا له أن يستبد بالملكة وحده، وكان شهمًا صارمًا حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء، وواتته مع هذا المقادير، فلم يزل يعمل على إبعاد شركائه في الحكم واحدًا واحدًا فمنهم من قتله صبرًا، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولًا وفقرًا، إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر، وتلقب بالمعتضد بالله، ومن حيله ودهائه في السياسة أنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بالله، وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة، ما رآه من اضطراب أهل إشبيلية وخاف قيام العامة عليه، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة كالمستظهر، والمستكفي، والمعتد، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه، فادعى ما ادعاه من ذلك، وذكر أن هشامًا عنده بقصره، وشهد له خواص من حشمه، وصور نفسه بصورة الحاجب لهشام، والمنفذ لأموره وأمر بالدعاء له على المنابر، فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته، ونعاه إلى رعيته في سنة (٤٥٥) واستظهر بعهدٍ عهده له هشام المذكور فيما زعم، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس، ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك، وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وكان قد اتخذ خشبًا في ساحة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الأشجار التي تكون في القصور، وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتنزه المتنزهون!

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب، وحدة نفس، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس، وكان قد استوى في مخافته القريب والبعيد، لا سيما منذ قتل ابنه وأكبر أولاده المرشح لولاية عهده صبرًا،

وكان سبب ذلك أن ولده المذكور، واسمه إسماعيل، كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته، وتمني وفاته، فيتغاضى المعتضد، ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه في عبداء وأراذل معه، ورام الفتك بأبيه، فانتبه البوابون والحرس، فهرب أصحاب إسماعيل، وأخذ بعضهم فأقر، وأخبر بالكائنة على وجهها، وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك، وجعل لمن قتل أباه المعتضد جعلًا سنيًّا، فالله أعلم، فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا، واستصفى أمواله، وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه حينئذ.

وبلغني أنه قتل رجلًا أعمى بمكة، كان يدعو عليه بها، وكان هذا الرجل من بادية إشبيلية، وكان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى، وذهب باقي ماله حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حُقًّا فيه دنانير مطلية بالسم، وقال: «لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة، وسلِّم عليه عنَّا.» فاتفق أن سافر الرجل ومعه الحُق، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق وقال: هذا من عند المعتضد، فأنكر ذلك الأعمى. وقال: «كيف يظلمني بإشبيلية، ويتصدق علي بالحجاز!» فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق، وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده، إلى أن تمكن منه السم، فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب، يعتني بقتل رجل بالحجاز، وقتل على هذه الصورة رجلًا من المؤذنين من أهل إشبيلية، فر منه إلى طليطلة، فكان يدعو عليه بها في الأسحار مقدرًا أنه قد أمن غائلته إذ صار في مملكة غيره، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله وجاءه برأسه. وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين المجاورين له، وأشدهم عليه البربر: صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحي إشبيلية، فلم يزل يصرف الحيلة تارة، ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استزلهم، ففرق كلمتهم، وشتت منتظم أمرهم، ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أمورها، كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر، بلغ من لطف حيلة المعتضد — وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عينًا له بقرمونة كتابًا في بعض أمره — أن استدعى رجلًا من بادية إشبيلية شديد البله كثير الغفلة وقال له: «اخلع ثيابك.» وألبسه جبة جعل في جيبها كتابًا وخاط عليه. وقال له: «اخرج إلى قرمونة فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد، وقف حيث يقف أصحاب الحطب، ولا تبعها إلا لمن

يشتريها منك بخمسة دراهم.» وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرمونة، فخرج البدوي كما أمره المعتضد، فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب، ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه، فجمع حزمة صغيرة، ودخل بها البلد ووقف في موقف الحطابين، فجعل الناس يمرون عليه، ويسومون منه حزمته. فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل، والناس يسخرون منه، فبعضهم يقول: هذا آبنوس، ويقول الآخر: لا بل هو عود هندي، وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد. فقال له: «بكم تبيع حزمتك هذه.» فقال: «بخمسة دراهم.» فقال: «قد اشتريتها، فاحملها إلى البيت.» فقام يحملها، والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع الحزمة، ودفع إليه الخمسة الدراهم، فلما أخذها وهمَّ بالانصراف، قال له: «أين تريد في هذا الوقت، وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي، فإذا أصبحت رجعت إلى منزلك.» فأجابه فأدخله إلى بيته وقدم له طعامًا وسأله كأنه لا يعرفه: «من أين أنت؟» فقال: «أنا من بادية إشبيلية.»

قال: «يا أخي ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشئونهم، وهوان الدماء عليهم؟» فقال: «حملتني على هذا الحاجة.» ولم يظهر له أن المعتضد أرسله، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له: «تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك، وأروح لجسمك.» فتجرد الرجل ونام، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها، واستخرج الكتاب فقرأه، وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة، وخاط عليه كما كان، فلما أصبح الرجل لبس جبته، ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة، واستأذن فأدخل على المعتضد. فقال له: «اخلع هذه الجبة.» وكساه ثيابًا حسانًا، فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحًا يرى أنه قد خلع عليه، ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء؟ وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه، وتمم ما أراد من أمره. وله في تدبير ملكه، وإحكام أمره آراء عجيبة، وحيل غريبة، لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها، ويخرج عن حد التلخيص بسطها.

ولما قتل ابنه إسماعيل كما تقدم، وكان قد لقبه المؤيد، عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، ولقبه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته.

وتوفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة (٤٦٤).

أشعاره

قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد يصف شغفه بذكر المدامة وحبه لما يهوى النديم، ومناوأته للعدو المناوئ، وتقسيمه زمنه شطرين: شطر لتدبير الملك، وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر:

لعمرك إني — بالمدامة — قوال وإني — لما يهوى الندامى — لفعال
قسمت زماني بين كد وراحة فللرأي أسحار، وللطيب آصال
فأمسي على اللذات واللهو عاكفًا وأضحي بساحات الرياسة أختال
ولست على الإدمان أغفل بغيتي من المجد؛ إني في المعالي لمحتال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة أسهد عيني أن تنام بي الحال
وإن راق أقوامًا من الناس منطق يروق بدا مني مقال وأفعال

وقال يتغزل:

رعى الله من يصلي فؤادي بحبه سعيرًا، وعيني منه في جنة الخلد
غزالية العينين شمسية السنا كثيبة الردفين غصنية القد
شكوت إليها حبها بمدامعي وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبي قلبها — وهو سالم — فأعدى وذو الشوق المبرح قد يعدي
فجادت — وما كادت — علي بخدها وقد ينبع الماء النمير من الصلد
فقلت لها: هاتي ثناياك إنني أفضل نوار الأقاحي على الورد
وميلي على جسمي بجسمك فانثنت تعيد الذي أملت منها كما تبدي
عناقًا ولثمًا أرويا الشوق بيننا فرادى ومثنى كالشرار من الزند
فيا ساعة ما كان أقصر وقتها لدي تقضت غير مذمومة العهد

وقال يتمدح بالكرم والسخاء ومضاء العزم:

رعى الله حالينا حديثًا وماضيًا وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا
فما لليالي لا تزال ترومني ويرمين مني صائب السهم قاضيا

وقد علمت أن الخطوب تطيعني وما زلت من لبس الدنيات عاريا
أجدد في الدنيا ثيابًا جديدة يجدد منها الجود ما كان باليا
فما مر لي بخل بخاطر مهجتي ولا مر بخل الناس قط بباليا
ألا حبذا في المجد إتلاف طارفي وبذلي عند الحمد نفسي وماليا

وقال حين دخل على ابنه المعتمد مالقه:

أرية! أنت فائدة الزمان فقد فقت الممالك في معان
وقد رمناك من بلد بعيد فأدناك الإله بلا توان
بذلنا جهدنا عزمًا وحزمًا ووطنا الكماة على الطعان
وأجهدنا العزائم والمساعي وأعملنا الحسام مع السنان
ليُهنئ أهل مالقة انتصاري وإعزازي لهم بعد الهوان
سينقذهم وينميهم جميعًا رضاع الخير أن درت لباني
وأرقيهم ذرا درج المعالي كما أجنيهم ثمر الأماني
وأضعاف الذي يبدي لساني إليهم ما يجن لهم جناني
ألم أعتقهم من ذل كفر جرى في ضيمهم ملء العنان
وتوراة محرفة أعزت فطالت ذلة السبع المثاني
إلى أن ثار بي عزم يمان فأدرك سؤله العضب اليماني
وأنضيت الصوارم خاطبات فكان قضاؤها سحر البيان
فعاد البر معمور المغاني وآب الفسق مهدوم المباني
وقام إمام جامعهم يصلي وشنفت المسامع بالأذان

هذا ما اخترناه من شعر المعتضد، وهو وإن لم يكسبه — كما يقول «دوزي» — بين معاصريه مكانة شاعر مجيد، لخلوه من الديباجة والطلاوة، وبعده عن المتانة والجزالة، وتقصيره عن بلوغ المرتبة الأدبية التي تسمو به إلى مستوى الشعر الفحل، فإن فيه من الشواهد التي ينتفع بها المؤرخ ما لا يصح معها إغفاله، ولا ينبغي إهماله، لذلك ترى «دوزي» يستشف من خلال أبيات المعتضد، ويستخرج من تضاعيف قصائده ومقطعاته الكثير من صفاته وعاداته وأخلاقه، ويتعرف وجوه الفرق بينه وبين مناوئه وعدوه باديس عند الموازنة بينهما كملكين متجاورين عاشا في حروب ومنازعات.

(٢) يقول الفتح بن خاقان، في كتابه قلائد العقيان، ضمن فصل عرض فيه لذكر باديس والمعتضد ما يلي بنصه وفصه:

ولما ثل عرش الخلافة وخوى نجمها، ووهى ركن الإمامة وطمس رسمها وصار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنسر البغاث، وصحت الأضغاث، واستأسد الظبي في كناسه، وثار كل أحد في ناسه، وخلت المنابر من رقاتها، وفقدت الجمع مقيمي أوقاتها، وكان باديس بن حبوس بغرناطة عاثيًا في فريقه، عادلًا عن سنن العدل وطريقه، يجترئ على الله غير مراقب، ويجري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم، ولا شرب الماء إلا من قليب دم، أحزن من كاد ومكر، وأجرم من راح وابتكر، وما زال متقدًا في مناحيه، مفتقدًا لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل، إلى أن وكل أمره إلى أحد اليهود واستكفاه، وجرى في ميدان لهوه حتى استوفاه، وأمره أضيع من مصباح الصباح، وهمه في غبوق واصطباح، وبلاده مراد للفاتك، وستره في يد الهاتك. فسقط الخبر على المعتضد بالله ملقح الحرب، ومنتج الطعن والضرب، الذي صاد الطير تحت أجنحة العقبان، وأخذ الفريسة من فم الثعبان، فسدد إلى مالقة سهمه وسنانه، ورد إليها طرفه وبنانه، وصمم إليها تصميم سابور إلى الحضر، وعزم عليها عزيمة رسول الله ﷺ على النضر، ووجه إليها جيشه المتزاحم الأفواج، المتلاطم الأمواج، وعليه سيفه المستل، وحتفه المحتل، ابنه المعتمد سهام الأعادي، وحمام الأسد العادي، فلما أطل عليها أعطته صفقتها، وأمطته صهوتها، إلا قصبتها فإنها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة لم يرضوا سفاحها، ولا أمضوا نكاحها، وفي أثناء امتناعهم، وخلال مجادلتهم ودفاعهم، طيروا إلى باديس من ذلك خبرًا أصحاه من نشوته، ولحاه عن صبوته، فأخرج من حينه كتيبته التي كانت ترمي بالزبد، ولا تنثني عن القنا القصد، وعليها ابن النابة قائد جنده، ووري زنده، وقد كان أشار على المعتمد برابره بتنفيس المتنعين ولووه عن مساورتهم، وثنوه عن مراوحتهم ومباكرتهم، ومنعوه من نزالهم، وأطمعوه في استنزالهم، وإنما كان ذلك أبقى على الأقارب، وأتقى على أولئك المغارب. فعدل عن انتهاز فرصتهم، وإبراء غصتهم، إلى الاستراحة من تعبه، والإناخة على لهوه ولعبه،

وتفرق أصحابه في ارتياد الفتيات، وطراد اللذات، فما أمسى إلا وقد غشيه ليلها، وسال عليه سيلها، وأصحابه بين صريع رحيق، ومُنادٍ من مكان سحيق، فخاب سعيه، وبال رأيه، ونجا برأس طمرة ولجام، وأوى إلى أحد المعاقل أعرى من الحسام، فحقد المعتضد عليه بتنفيسه لأهل القصبة، وإصاخته إلى تلك العصبة، وضربه بالعصي، ونكله تنكيل القصي، فكتب إليه:

مولاي أشكو إليك داء ... أصبح قلبي به جريحا
سخطك قد زادني سقامًا ... فابعث إلي الرضا مسيحا

فعفا عنه وصفح، وعبق له عرف رضاه ونفح، وقد كان قبل كتب إليه — حين أمره بالمقام بالموضع الذي نجا إليه مسجونًا — يسليه، ويعرض له بالبربر ويستعطفه مما حصل فيه:

سكِّن فؤادك لا تذهب بك الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتي به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
يا فارسًا تحذر الأبطال صولته ... صن حد عبدك فهو الصارم الذكر
قد أخلفتني صروف أنت تعلمها ... وغال مورد آمالي بها كدر
فالنفس جازعة، والعين دامعة ... والصوت منخفض، والطرف منكسر
قد حلت لونًا وما بالجسم من سقم ... وشبت رأسًا ولم يبلغني الكبر
لم يأت عبدك ذنبًا يستحق به ... عتبًا وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل ... وفى لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غش، وحبهم ... بغض، ونفعهم إن صرفوا ضرر
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا ... ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا

إلى آخر ما ذكره في هذا الفصل عن المعتمد وولديه المأمون والراضي ونزول المرابطين بقرطبة وزوال دولة آل عباد، ورائية المعتمد هذه لأبيه المعتضد قد رواها الفتح ناقصة كما ترى، وهي بتمامها مثبتة في شعر الملكين من شرحنا «ديوان ابن زيدون».

(٣) هكذا يشبهه «دوزي» على حين يروي صاحب كتاب المعجب أن المعتضد كان الناس يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس (ارجع إلى الهامش تحت عنوان «المعتضد أخباره وأشعاره» أول هذا الفصل).

الفصل السادس

(١) هو أمير «مرتولة» حليف محمد بن الأقطش، وقد هزما معًا في حرب إشبيلية حوالي عام ١٠٣٠م.

(٢) هي مدينة على نهر الوادي اليانع انتزعها المعتضد من ابن طيفور عام ١٠٤٤م.

(٣) هو أمير «نيبلا» وهو عربي الجنس، وقد حاربه المعتضد رغبة في الاستيلاء على مدينته فاستعان ابن يحيى بالبربر، فنصروه وردوا المعتضد عما أراد.

(٤) «لبلة»: مدينة في جنوب الأندلس تقع بين نهري الوادي الكبير والوادي اليانع.

(٥) «سالطس»: جزيرة صغيرة.

الفصل السابع

(١) في كتاب الذخيرة لابن بسام فصول هي أمس ما يكون بما كتبه «دوزي» عن المعتضد، وسنذكر منها فيما يلي ما هو كالأصل لما كتبه «دوزي» عنه مع اختصار وحذف حسبما يقتضيه المقام فنقول:

> المعتضد بالله عباد بن ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم محمد بن عباد، أفضى إليه الأمر بعد أبيه سنة (٤٣٣)هـ وتسمى بفخر الدولة، ثم بالمعتضد: قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطلَى وهو رابض، ثار والناس حرب، وكل شيء عليه إلب، فكفى أقرانه، وهم غير واحد، وضبط شأنه، بين قائم وقاعد، حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده، افتتح أمره بقتل وزير أبيه «حبيب» طعنة في ثغرة الأيام ملك بها كفه، وجبارًا من جبابرة شرد به من خلفه، استمر يفري ويخرق، وأخذ يجمع ويفرق، وهو في كل ناحية ميدان، وعلى كل رابية خوان، حربه سم لا يبطئ، وسهم لا يخطئ، وسلمه شر غير مأمون.

وذكره ابن حيان فقال:

وعشي يوم الأربعاء لست خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين طرق قرطبة نعي المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته، أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وداحض العار، ومدرك الأوتار، وذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية أحمد ما كان في اعتلائه، وأرقى ما كان إلى سمائه، وأطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة، محتفزًا لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها، فتوفاه الله على فراشه من علة ذبحة قصيرة الأمد، وحية الإيجاز ...

وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين، ودفن عشية يوم الأحد بعده، تغمد الله خطاياه، فلقد حمل عليه — على مر الأيام في فرط القسوة، وتجاوز الحدود في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار بالذمة — حكايات شنيعة، لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها، ومهما برئ من معيبها فلم يبرأ من شدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلة لم يحاسن فيها ذوي رحم واشجة.

وقد كان تقيل سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحد أشداء العباسيين، الذي ضم نشر المملكة بالمشرق وسطا بالمنتزين عليها، وبفقده انهدمت الدولة، فحمل عباد سمته المعتضدية، وطالع بفضل نظره أخباره السياسية، التي أضحت عند أهل النظر مثله هادية، إذ الاحتواء على أمد الرياسة في صلابة العصي، وصناعة الشظي، فجاء منها بمهولات تذعر من سمع بها، فضلًا عمن عاينها، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم أمثالها من غير دلالة، وقد انطوى علم الله عليها، وتقرر إرصاده للمكافأة بها، ولم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسنة، وصير أكثر شغله فيها شب الحروب، وكياد الملوك، وإهراج البلاد، وإحراز التلاد، من توافر حظه الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرياسية، فابتنى القصور، واعتمر العمارات المغلة، واكتسى الملابس الفاخرة، وغالى في الأعلاق السنية، وارتبط الخيول السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة، تنقاهم من كل فرقة، فساس طبقاتهم ما بين إدرار الأعطية، وضمان الزيادة على صدق العمال، والوفاء بالوعيد على

النكال من العدو، سياسة أعيت على أنداده من ملوك الأندلس، فخرج منهم رجالًا مساعير حروب أباد بهم أقتاله، من نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته من أهل تلك الأمم العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابدتها، مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره، جرد نهاره في الإبرام والتدبير، وأخلص ليله لتملي السرور، فلا يزال تدار عليه كئوس الراح، ويحيا عليها بقبض الأرواح، التي لأنابيبها من أعدائه بباب قصره حديقة تطلع كل وقت ثمرًا من رءوسهم المهداة إليه، مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوهة بحاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها، وهو واصل نعيم ليله بإجالة كيده، ومبتدع نشاط لهوه بقوة أيده، له في كل شأن شوين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سبر أحد من دهاة رجاله غوره، ولا أدرك قعره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دأبه، منذ ابتدائه إلى انتهائه.

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهتدي، مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة، قد سبق عبادًا إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرءوس أعدائه أيام أكثر له «واضح» الخصي العامري من إرسال رءوس الخارجين عليه لأول وقعة، وأصلح بهم باب مدينة سالم، فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة، طويلة الخطة، جمة عدد الصفوف المسطورة، شغلًا للنظارة.

وذكرتها شعراؤه، مثل قول صاعد بن الحسين من قصيدة أولها:

جلاء العين مبهجة النفوس ... حدائق أطلعت ثمر الرءوس
هناك الله — مهدي المساعي — ... جنى الهامات من تلك الغروس
فلم أر قبلها وحشًا جميلًا ... كريه روائه أنس الأنيس
فماذا يملأ الأسماع منها ... إذا ملئت بأبناء الطروس

وقد كان لعباد وراء هذه الحديقة المالئة قلوب البشر ذعرًا مباهاة بخزانة بلوى، أكرم لديه من خزانة جوهره، مكنونة (في) جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي، شهاب

الفتنة، ورءوس الحجاب، ابن خزرون بن نوح وغيرهم، الذين قرن رءوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود، سابقهم إلى تلك الرفعة! فخص رءوسهم بالصون بعد إذالة جسومهم الممزقة، وبالغ في تطييبها، وتنظيفها للثواء لا للكرامة، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتبارًا (انتهى كلام ابن حيان).

ثم قال ابن بسام: قال ابن حيان: وكان عباد أوتي أيضًا من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة، وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحس، ما فاق به على نظرائه، ونظر مع ذلك في الآداب قبل ميل الهوى به إلى السلطان أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها، ولا إمعان في غمارها ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، في معانٍ أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة، جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب. وأخبار ابن عباد في جميع أفعاله، وضروب أنحائه؛ علانياته وخافياته غريبة بعيدة، وكان على تجرده في أحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه. قيل إنه خلف من صنوفهن السريات خاصة نحوًا من سبعين جارية إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائله بنت مجاهد العامري أخت علي بن مجاهد أمير دانية، ففشا نسل عباد لتوسعه في النكاح وقوته عليه، ذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين، ومن الإناث مثلهم (انتهى كلامه).

حروب عباد مع المظفر وغيره من أمراء العرب

قال ابن حيان: وأول ما ظهر من تفاسد عباد والمظفر: أن ابن يحيى صاحب «لبلة» عند هجوم عباد عليه استجار بالمظفر بن الأفطس فأجاره، وانزعج له، ووصل يده، وعطل ثغره، وجمع جيشه، وأقبل إلى «لبلة» ناصرًا لابن يحيى، مضيعًا لما خلفه، يوقد نار فتنة كان في غنى عنها، حتى نزل بنفسه على ابن يحيى، ودافع ابن عباد عنه، وحرك في ذلك من حلفائه البرابرة جماعة فسارعوا إليه غير ناظرين في عاقبة أمرهم، وتقدموا في تحريك يعسوبهم محمد بالقاسم (؟) فانتظم به أمرهم وتقدم إلى إشبيلية ورحاهم تدور

على قريعهم باديس بن حبوس مدرههم في الجلى، ومفزعهم في النائبة، يسلمون لرأيه، ويزدحمون بركنه، فأشفق الوزير ابن جهور من حركتهم تلك على عادته في التقلقل لأمثالها، وجهد جهده في حربهم وأرسل ثقات رسله إلى عامتهم إلا ما كان من الدائلين منهم عباد داعية المروانية، ومحمد بن إدريس صاحب مالقة دائل عمورية، فإنه تنكبها بعادًا من الظنة، إذ كان هو وجماعة قرطبة متوقعين على كل دعوة، فلما وصلت رسله إليهم ما زادهم إلا لجاجًا، ولم يزل ابن جهور يضرب لهم الأمثال، ويخوفهم من سوء العاقبة حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظًا وتذكرة، يحدو منهم الأطواد الراسية، ويرقي الحيات الضارية، واستن القوم في ميدان العناد، فلما أصبح عند ابن عباد خروجه لــ«لبلة» بجيشه دفع عن علي بن يحيى منتظرًا لخلطائه جرد جياد ضربت على بلد ابن الأفطس، وغارت وأنجدت، وفعلت فعلات نكأت القلوب، وقرفت الذنوب، ثم نهض ابن عباد بنفسه إلى «لبلة» للقائه، فجرت بينهما على بابها وقعة عظيمة صعبة استهما فيها النصر في مكان واحد شق الأبلمة، وكانت أولًا على ابن الأفطس فولى الدبر، وخاض واديها دون مخاضة [...] كثير ثم رجعت له على ابن عباد فكشف رحاله وأصاب منهم نفرًا ثم افترقوا ولحق [...] قرطبة وجاز إلى الشرق وتجمع بحلفائه، وعاثوا في نظر إشبيلية، وانقطعت [...] وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية ثم والى ابن يحيى بعد ذلك كله، لضرورة دفعته إلى ذلك، فكاشفه المظفر، وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله وأودعه عنده أيام تورطه في حرب المعتضد فانبتت بينهم العصمة، وضربت خيل المظفر على صاحب «لبلة» فاستغاث المعتضد فلحق به خيله، واقتتلت مع خيل المظفر وكان ابن جهور كثيرًا ما يوالي رسله إلى الاصطلاح بينهما، فتصدر عنها (أخبار) تخبر أن ابن الأفطس أقرب إلى الملام بامتطاء قعود اللجاج في القطيعة، ومن النوادر المحفوظة بينهما: أن المعتضد والى حربه في شهور سنة اثنتين وأربعين بغير بلده، وفتح عدة حصون ضمها إلى عمله، وشدها برحاله، ودمر عمارات واسعة أفسد غلاتها، وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة، وعجز المظفر عن دفاعه شبرًا واحدًا فما دونه استكانة للحادثة التي هدت ركنه، وأفنت حماة رجاله، فاعتصم بحصنه بطليوس ولم يخرج من خيله فارسًا، وجعل يشكو به إلى حلفائه فلا يجد ظهيرًا ولا نصيرًا، فلما قضى المعتضد من تدويخ بلاده وطره وكرَّ راجعًا إلى إشبيلية في شوال من العام، وردت علينا يومئذٍ بقرطبة غريبة: وذلك أن رسول المظفر في إثر هذه الوقائع عليه يلتمس وصائف ملهيات يأنس بهن نافيًا بذلك الشماتة عن نفسه، ولم تكن له عادة بمثله، فبعث له رسوله عن ذلك، وكن قد عدمن بقرطبة

يومئذٍ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما، فاشتراهما له وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع، لقطع خيل المعتضد جميع الطرق، فأقام مدة بقرطبة إلى أن شيع بخيل كثيفة، ومضى بهما وأولو النُّهى يعجبون مما شهر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لأطهار النساء على فحول الرجال العاقدة للأزرة، وعلى ما كان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة، وبحثت على هذه الأعجوبة وما الذي حمله على هذا الإفك؟ فإذا به ناغى كاشحه المعتضد المرتاح بعد الظفر، لاجتلاب قينة عبد الرحيم الوزير من قرطبة إثر وفاته يومئذٍ، وقد اشتد لما وصفت له بالحذق في صنعتها، فوجهت نحوه فتقيله المظفر في إظهار الفراغ، وطلب الملهيات، وقد علم العالم أنه لفي شغل عنهن، فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ في الغي، وتباريا في القطيعة حتى أفنيا العالمين، إلى أن سنى الله بينهما الصلح في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين بسعي من جهور أمير قرطبة كعادته بينهم بعد كتب ورسل في ذلك، والمظفر يمتطي اللجاجة هنالك، فلما سكنت الحال بينهما، فرغ المعتضد إلى حرب الأمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبكري، وأتيح له من الظفر (ما أتيح) فضبط أملاكهم وضمها جملة إلى عمله ثم مد يده إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، فرضة المجاز الأدنى من الأندلس إلى أرض العدوة التي كان منها فتحها، ومن قبلها مأتاها على قدم الدهر، وذلك أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله، أضعف الأمراء البرابرة شوكة، وأقلهم رجالًا صمد [...] القاسم حلفاؤه بالأندلس، وصاحب سبتة «سقوت» البرغواطي مولى ابن حمود [...] حتى سقط في يده، ونزل على أمان والي أمره، إلى أن لحق بقرطبة وسكنها تحت كنف ابن جهور [...] المخلوعين، فلما كانت سنة إحدى وخمسين وقد أتيح له من الظفر ما أتيح، اتصلت الأنباء عندنا بقرطبة بصموت منابره في جميع أعماله عن ذكر إمامة هشام بن الحكم صاحب الرجعة الذي اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده إلى آخر هذه السنة، يومئ إليه بالحياة في غياهب الحجب من غير ظهور لخاصة ولا عامة، ودعوته على ذلك كله مرفوعة عند من ائتسى بالمعتضد من أمراء شرق الأندلس إلى أن قطعها قاطع الأعناق عليها ابن عباد، فذكر أنه دعا وجوه حضرته فنعى لهم إمامهم هشامًا، وكشف إليهم تقدم وفاته من علة زمانية، ووصف أن الحال التي كان بسبيلها من اشتداد الفتنة بينه وبين من تظاهر عليه من أمراء الأندلس الدانين منه، عاقته يومئذٍ عن البوح بوفاة هذا الإمام والشهرة لدفنه، إعطاء للحزم بقسطه، فلما سكنت الحال وجب التصريح بالحق، وعطف — زعموا — بكلامه على شحذ بصائرهم في

التمسك بحبل الإمامة والفرار عن الميتة الجاهلية، وذكر أنه خاطب من كان تحت دعوة هذا المنعي هشام من أمراء الأندلس ناعيًا له، داعيًا إلى التعوض منه، فارتفعت الدعوة منذ ذلك الوقت، وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة، وعساها تكون — إن شاء الله — الصادقة. فكم قُتِلَ، وكم مات، ثم انتفض من التراب، ومزق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقعة، فقد كان مات في يد أول خالعيه محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية، ثم نشر بيد واضح الصقلبي فتى بني عامر، ودال مديدة ثم قتله خالعه الثاني سليمان المستعين ودفنه خفية، ثم استمر راصده علي بن حمود الحسني المنتزي يذكي الطلب بثأره على الدولة، ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقة، فلم يلبث أن نجم حيًّا بإشبيلية بعد حقب فبقي هنالك ملكًا، ودال قرنًا إلى أن وقعت عليه هذه الميتة الثالثة، فما نقول ونعتقد في الفرق بين هذه الميتات المتواليات إذا كان مائتها واحدًا؟ وليس إلا السيوف عليها أدلة غير إخلاص الدعاء لعامة المسلمين في الائتلاف لما فيه الصلاح (انتهى ما لخصه ابن بسام من كلام ابن حيان).

(قال ابن بسام): ثم غمس المعتضد يده بعد فيمن كان يليه من البرازلة، فصدم شرهم بشرهم، وضرب زيدهم بعمرهم، وقد كان عندما تسعرت نار الحرب بينه وبين رؤساء الغرب، هادنهم على دخن، ومتح لهم حتى ضربوا حوله بعطن، ليقتلهم بسيوفهم [...] إلى حتوفهم، فلما استقرت قدمه بشلب ناصية قواعد الغرب [...] كان أول ما بدأ على الحاجب ابن نوح المنتزي كان بكورة مورور في غير كتيبة نظمها ولا مقدمة إليه [...] ينهبان عليه، ويحملان الأموال بين يديه، تجاسرًا على ركوب الخطر، الذي يصرف القدر، وهو لا يدري أتخطئ أم تصيب؟ فخلص إلى ابن نوح هذا من رجل لا يبالي دم من تجرع، ولا يحفى بشيء صنع، فبالغ ابن نوح في بره، وتضاءل لأمره، وحمل على ذلك من فعله على [...] وأتم وجوه الاستنامة، وفض المعتضد يومًا من صميم ماله في وجوه حماة ابن نوح ورءوس رجاله، ما استمال به قلوبهم، واستنصح به جيوبهم، ثم صار إلى ابن أبي قرة برندة فسامه مثلها، وحذا له نعلها، فتلك أعتد عليهم يدًا. وجعلها لما أراد من مكروههم أمدًا، وقد كان أحد أجنادهم أشار بالرأي في أمره، وأراد أن يطلع عليه من نية مكره، فراطنهم يومئذٍ بغدره، ورمز لهم بالاستراحة من شره، ففهمها المعتضد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه، وأثبتها في ديوان إحنه، حتى حلى بطائلها، واستفاد بعد مديدة من قائلها، وجأجأ الحاجبين المذكورين لأول تمكنه من الغرة، وساعة صدره من مركزه، فتهافتا تهافت الفراش على الجمرة، وجاءا مجيء الحائن إلى الشفرة، وتطفل عليهما

الحائن بن خزرون المنتزي، كان وقته بأركش، فلله أبوه وافدًا لم تحزه الوفادة، وواهًا له قتيلًا لم يحل بطائل الشهادة، فجرع الكل الحتوف، وحكم في عامتهم السيوف، واستمر بعد ذلك على حرب بقاياهم، وتتبع أخراهم، حتى تغلب على بلادهم، وألوى بطارفهم وتلادهم، في أخبار طويلة استوفاها ابن حيان، هي خارجة عن غرض هذا الديوان، وقد ألمعت منها بما فيه الكفاية، إذ لا يتسع هذا المجموع لاستقصاء الغاية، والسبب الذي كان يغريه بطلبهم، ويبعثه على التمرس بهم، أن بعض من نظر بمولده كان أخبره أن انقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطرءون على الجزيرة من غير سكانها، فكان لا يشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن عامر، فأعمل في نكالهم وجوه سياسته، وشغل بقتالهم أيام رياسته، واتفق أن دخل عليه يومًا بعض وزرائه، وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر، فإذا كتاب «سقوت» المنتزي يومئذٍ بسبتة يذكر أن القوم المتلثمين المدعوين بالمرابطين، قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش فقال له ذلك الوزير المذكور: وأين رحبة مراكش؟ وحلوها فكان ماذا؟ ومات الحجاج فمه (؟) ودونهم اللجج الخضر، والمهامه الغبر، والليالي والأيام، والجماهير العظام، فقال له المعتضد: هو والله الذي أتوقعه وأخشاه، إن طالت بك حياة فستراه، اكتب إلى فلان — يعني عامله على الجزيرة — باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمري، وأخذ يريش في تحصينه، ووضع أرصاده هنالك وعيونه. ولله عزائم لا تقيها الحصون، ولا تهتدي إليها الأرصاد والعيون، ولكل شيء أمد مكتوب وميقات مضروب.

وكتب ابن بسام أيضًا في موضع آخر فصلًا عن ابن الأفطس يقول فيه: فرجع «ابن الأفطس» إلى مقاومة ابن عباد، فلما كان في سنة خمس وعشرين، وجَّه ابن عباد ابنه إسماعيل مع عسكر إلى أرض العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الأفطس، فلما أوغل إسماعيل ببلده يريد أرض «غاليسيا» وابن الأفطس يسر الغدر به، بادر بجميع رجال تعده ورصده (؟) شعب ضيق في طريق أفوله، ولم يعلم ابن عباد بشيء من تدبيره، حتى حصل في الأنشوطة، فبادر إسماعيل بالنجاة لنفسه. وأسلم جميع عسكره له، وجرت عليه في مهربه مع جملة من أصحابه شدة لجأ فيها إلى ذبح خيله والاغتذاء بلحومها، ونجا بذمائه إلى مدينة لشبونة آخر عمله من ساحل البحر المحيط، فاصطلم ابن الأفطس عسكره اصطلامًا لم يسمع بمثله، ووقع سرعان العدو من النصارى على كثير منهم فاقتنصوهم اقتناصًا، وقتلوا منهم أمة، وكانت حادثة شنيعة، بقيت بها عداوتهما إلى آخر وقتهما.

هذه فصول تخيرنا نقلها من القسم الثاني من كتاب الذخيرة في أخبار الجزيرة لابن بسام، لعلاقتها بما كتبه العلامة «دوزي» عن المعتضد في هذا الفصل، وهي كما يلوح عند المقارنة، كالأصل لما كتبه آثرنا نقلها زيادة في الإيضاح، وإتمامًا للفائدة.

(٢) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله: «بالألى من القادة الخيرة المتقين»، ولكنها مغتفرة لما في تاليه من تتمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة.

(٣) الهمزة للنداء وباديس هو باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، الذي يتحدث عنه «دوزي» في هذا الفصل، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة، قال ابن خلدون: «ولي باديس ملك غرناطة بعد أبيه واستولى على سلطانه إسماعيل بن نغذلة الذمي، ثم نكبه وقتل سنة تسع وخمسين وأربع مئة وقتل معه خلقًا من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربع مئة.» (ارجع إلى ص٩٤).

(٤) يرى القارئ في هذا البيت أسلوبه الشيطاني في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف وأدَّى بذلك اليهودي إلى السخرية منه.

(٥) **مذبحة اليهود**

ذكرنا في كتابنا «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» تعليقًا على القصيدة التي أنشأها أبو إسحاق الفقيه ما يأتي:

> ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين أثرًا فعليًّا واضحًا من آثار تمكن العقيدة في نفوس أصحابها، متى وجدت محركًا قادرًا على تصريفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها؛ فإن إلقاء نظرة سريعة على قصيدة أبي إسحاق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمهور، ليكفي وحده في إثبات ذلك، وإنك لترى فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربي على أكثر من أربعة آلاف يهودي، ونهب أموالهم وتدمير منازلهم، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الخامس الهجري سنة ٤٥٩هـ.
>
> وقد دعا صاحبها إلى قولها أن يوسف بن نغذلة اليهودي الوزير وشى بأبي إسحاق — قائل هذه القصيدة — فأقصاه السلطان عن بلاده، قالوا: وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ، فوجد أبو إسحاق من ذلك دافعًا إلى إنشاء تلك القصيدة البليغة، وقد ملأها تحريضًا وأفعمها حججًا وبراهين، أفلح في التأثير

بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته، وما زال يتفنن في ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور الساذج حماسة، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان نفسه، وليس من شك في أن أبا اسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية وإظهار التفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به، وعرف كيف يوالي فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام فخم يتطير حماسة ويتأجج نارًا، وشعر صارخ:

خارج من قلب قائله   مثلما يزفر بركان

وبهذا استطاع قائله أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود (خصومه) فرض لا مناص من أدائه، وواجب حتم لا يصح السكوت عنه، وأنهم إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى، فهم خليقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا تصب عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه، فيخسف بهم الأرض، أو تنقض عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها، ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيرتها، كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل لسهولته إلى حد الركاكة في بعض الأبيات، مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه وإن شئت فقل: وأروعه.

وهكذا استفزت الناس هذه القصيدة البليغة إلى الفتك باليهود وأخذ البريء منهم بذنب المسيء، وكان من نتائجها تلك المذبحة الكبيرة التي أشرنا إليها والتي لا يؤخذ بجريرتها إلا أبو إسحاق — ناظمها — الذي عرف كيف ينتقم لنفسه عن طريق التشيع للدين والتظاهر بمظهر المتفاني في الدفاع عنه.

الفصل الثامن

(١) هكذا يرى «دوزي».
(٢) لما ماتت رثاها ابن زيدون بهذه القصيدة التالية:

سرك الدهر وساء فاقن شكرًا وعزاء
كم أفاد الصبر أجرًا واقتضى الشكر نماء
أنت إن تأس على المفـ ـقود إلفًا واجتباء
فاسل عن غيرة واحـ ـتمل الرزء إباء
أيها المعتضد «المنـ ـصور» مليت البقاء
وتزيدت مع الأ يام عزًّا وعلاء
إنما يكسبنا الحز ن عناء لا غناء
أنت طب أَنَّ داء الـ ـموت قد أعيا الدواء
فتأسَّ، إن ذاك الـ ـخطب غال الأنبياء
وسيفنى الملأ الأعـ ـلى إذا ما الله شاء
حبذا هدي عروس دفنها كان الهداء
عمرت حينًا وما الـ ـمزن شكلين سواء
ثم ولت فوجدنا أرج المسك ثناء
جمعت تقوى وإخبا تًا وفضلًا وذكاء
ستوفى من جمام الـ ـكوثر العذب رواء
حيث تلقى الأتقياء الـ ـسعداء الشهداء
هان ما لاقت عليها أن غدت منك فداء
غنم أحبابك أن تبـ ـقى وإن عموا فناء
فالبس الصنع ملاء واسحب السعد رداء
ورث الأعداء أعما رهم والأوليـاء

انظر ص(٧٥) من «ديوان ابن زيدون» شرح المترجم وعبد الرحمن خليفة.

الفصل التاسع

(١) ابن عمار: نشأته وطرف من أخباره، نقلًا عن المراكشي: هو الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العصامية، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي وربما كان أحلى منزعًا منه في كثير من شعره.

ولشعره ديوان يدور بين أهل الأندلس ولم أر أحدًا ممن أدركته سنّي من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدمًا له مؤثرًا لشعره، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات، فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه، وهي:

عليَّ وإلا ما بكاء الغمائم   وفيَّ وإلا ما نواح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب   لثأر، وهزَّ البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها   لغيري، ولا قامت له في مآتم

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله:

أبَى أن يراه الله إلا مقلدًا   حميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله:

جاء الهوى فاستشعروه عاره   ونعيمه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا — في الحب — عزًّا، إنما   عبدانه في حكمه أحراره
قالوا: أضرَّ بك الهوى فأجبتهم: يا حبذاه وحبذا إضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه   زيًّا فخلوه وما يختاره
عيرتموني بالنحول، وإنما   شرف المهند أن ترق شفاره
وشمتُّم لفراق من آلفته   ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه؟   أو أن ذاك النوم عاد غراره؟
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى   خذلته من دمعي إذن أنصاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عُني بجمعها أهل الأندلس، وأنا — إن شاء الله — مورد منها ما لا يخل بالشرط الذي التزمته، ولا يخرج عن الحد الذي رسمته، حسبما بقي على خاطري من ذلك؛ لأني كنت في حداثة سني قد صرفت عنايتي إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب.

وقد فتشت خزانة حفظي فلم أُلْفِ فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله (عز وجل): فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر، أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها «شنبوس» مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة — في قديم الدهر ولا حديثه — حظ، ولا زكا منهم بها أحد، ورد مدينة «شلب» طفلًا فنشأ بها وتعلم علم الآداب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفدًا لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف، وذلك أنَّه ورد في بعض سفراته «شلب» لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرًا ووجَّه بها إليه، فرآها ابن عمار من أَجَلِّ الصلات وأسنى الجوائز، ثم اتفق على أن علت حال ابن عمار وساعده الجد، ونهض به البخت، وانتهى أمره إلى أن ولاه المعتمد على الله مدينة «شلب» وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم، وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله، فكان أول شيء سأله عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير، فقال: «ما صنع فلان أهو حي؟»

قالوا: «نعم.»

فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله: «قل له لو ملأتها برًّا لملأناها تبرًا.» ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منَّا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد:

عباد المخضر نائل كفه ... والجو قد لبس الرداء الأغبرا
قداح زند المجد، لا ينفك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرى

يختار أن يهب الخريدة كاعبًا والطرف أجرد والحسام مجوهرا

وفي هذه القصيدة يقول في وصفه وقعة أوقعها المعتضد بالبربر:

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسمَّوْا بربرَا
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله:

السيف أفصح من زيادٍ خطبةً — في الحرب — إن كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضدَ هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب، فلم تزل حاله معه تتزيد، ومرات خدمته له تقوى وتتأكد، إلى أن صار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار، ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله «شلب» من قبل أبيه، فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية، وسلم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة عنهما، فاقتضى أمر المعتضد التفريق بينهما، ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الإيماء إليه، فلم يزل ابن عمار مغتربًا في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقرَّبه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه، وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك، قال ابن عمار: فهتف هاتف في النوم يقول: لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين. قال: فانتبهت من نومي فزعًا وتعوذت ثم عدت، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيًا به، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفيًا حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني، فأمر بطلبي فطلبت له في

نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تُحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف إزاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال: «ما هذا يتحرك في هذا الحصير؟» ثم أمر به فنفض فخرجت عريانًا ليس علي إلا السراويل فلما رآني فاضت عيناه دموعًا، وقال: «يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا؟» فلم أر بدًّا من أن صدقته، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك وقال: «يا أبا بكر أضغاث أحلام، هذه آثار الخمر.» ثم قال لي: «وكيف أقتلك؟ أرأيت أحدًا يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟» فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه، ومرت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتله المعتمد نفسه كما قال، ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرناه سأله ابن عمار ولاية «شلب» وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولَّاه إياها، أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه، وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره، فكانت حالته شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد، ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، فكان ابن عمار مع هذا لا يُناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة، واشتهر أمره في بلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال: «هو رجل الجزيرة» وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعًا فيها، فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبًا منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه، فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها، جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلَّاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان، فخرج من عند المعتمد رسولًا إلى الأذفنش فلقيه في أول بلاد المسلمين فأعظم الأذفنش قدومه وبالغ في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه، والمسارعة في حوائجه، فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها إليه، وكان العلج — أعني الأذفنش — مولعًا بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه، فقال له: بلغني أن عندك سفرة في غاية الإتقان، قال ابن عمار: نعم. فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له: أنا آتيك بها على أن

ألعب معك فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي. فقال له الأذفنش: هلمها لننظر إليها. فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلج صلب وقال: ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار: كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول فقال له الأذفنش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ولعله شيء لا يمكنني. فقال ابن عمار: لا ألعب إلا على هذا الوجه. وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش، وجعل لهم أموالًا عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم، وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك برده عن ذلك. ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة. فقال له: قد قبلت ما رسمته. فقال له ابن عمار: فاجعل بيني وبينك شهودًا سماهم له، فأمر الأذفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لي حكمي؟ قال: نعم، فما هو؟ قال: أن ترجع من ها هنا إلى بلادك. فاسود وجه العلج وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هوَّنتموه علي في أمثال لهذا القول، وهم بالنكث والتمادي بوجهه، فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك. فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار: هذا كله لك. وجاء بما أراد، وكف الله بأسه، ودفعه بحوله، وحسن دفاعه عن المسلمين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية، وقد امتلأت نفس المعتمد سرورًا به. ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مرسية وأعمالها، وهي التي تعرف بتدمير، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر، كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها، فجهز المعتمد جيوشًا عظيمة، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية، فكان بها إلى أن مات (رحمه الله).

ولما تغلب ابن عمار على مرسية — دار ملك بني طاهر كما ذكرنا — حدثته نفسه وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه، ودانت له مرسية وأعمالها، وطمع في ملك بلنسية إلى

أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند.

فجاء يركض حتى المدينة، وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها بمن معه أيامًا فامتنعت عليه، ولم يقدر على دخولها فبقي حائرًا لا يدري ما يصنع، ولا أين يتوجه، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته، فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته.

وبغضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته، فأخرجوه عن بلادهم، ولم تزل البلاد تتقاذفه، وملوكها تشنؤه، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى «شقورة» كان المتغلب عليه رجلًا يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام رأي فقبض عليه وقيَّده وجعله في سجنه، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له: «لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك، وتعرضني عليهم، فما منهم إلا مَن يرغب فيَّ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالًا ووجهت بي إليه.»

ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد، وفي ذلك يقول ابن عمار:

أصبحت في السوق ينادى على ... رأسي بأنواع من المال
واللهِ ما جار على ماله ... من ضمَّني بالثمن الغالي

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتي بها فقال في ذلك:

بوسى «شقورة» عندي ... أربت على كل بوسى
فقدت هارون فيها ... وظلت أطلب موسى

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس.

وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزَّت له، وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد من يصل إلى تقبيل يده، أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بُعد لا يستطيع الوصول إليه، فسبحان محيل الأحوال، ومديل الدول. فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء، والملك الشامخ، والرياسة الفارعة ذليلًا خائفًا فقيرًا لا يملك إلا ثوبه الذي عليه.

فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنع ما كان به أمتعه، وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال: لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا، فلما رآه ابن عمار وكان معتمًّا، أزال العمامة عن رأسه، فجاء الفارس، حتى وصل إلينا فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى، فسألناه فيم جاء؟ فقال: «الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه»، فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار — في ذلك كله — مطرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار أن قال: «ما أنكر شيئًا ممَّا يذكره مولانا — أبقاه الله — ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات فضلًا عمَّن ينطق، ولكن عثرتُ فأقل، وزللتُ فاصفح.»

فقال المعتمد: «هيهات، إنها عثرة لا تقال.» وأمر به فأحضر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باقٍ إلى وقتنا هذا.

فطال سجنه هناك، كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو تُوُسِّلَ بها إلى الدهر لنزع عن جوره، وإلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجح، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع، فمنها قوله:

سجاياك — إن عافيت — أندى وأسجح	وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية	فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك! في أخذي برأيك لا تطع	عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائي أن عندك غير ما	يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودًّا وخدمة	يكرَّان في ليل الخطايا فيصبح

وهبني قد أعقبت أعماق مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمة تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتَّح
وعف على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمى منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل إناء بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى ... يزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت، فإنني ... إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأني بهم لا در لله درُّهم ... أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا: «سيجزيه فلان بفعله» ... فقلت: «وقد يعفو فلان ويصفح»
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي واضح متصحِّح
نعم لي ذنب، غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى ... إليَّ فيدنو أو عليَّ فينزح
ويهنيه — إن مت — السلو فإنني ... أموت ولي شوق إليه مبرح
وبين ضلوعي — من هواه — تميمة ... ستنفع لو أن الحمام يجلح

لما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين، فجعل يزري على البيت: «وبين ضلوعي ...» ويقول: «ماذا أراد بهذا المعنى؟»

فكان من جواب المعتمد (رحمه الله) أن قال: «أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء، لما أعدمه الفطنة والذكاء. إنما نظر إلى بيت «الهذلي» من طرف خفي وهو:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع»

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبرًا في شهور سنة ٤٧٩.

وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها فأدركت المعتمد بعض الرقة، فوجه إليه ليلًا وهو في بعض مجالس أنسه فأتي به يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر، غير أنه أخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد، فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته. فقال له قولًا يتضمن العفو عنه تعريضًا لا تصريحًا وأمر برده إلى محبسه، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضي بالله

فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحن قديمة. فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم: «ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص.» فقالوا له: «ومن أين علم مولانا بذلك؟» فقال: «هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص.» فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صُنْتُ هذا الكتاب عن ذكرها، فبلغ المعتمد ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال له: «هل أخبرت أحدًا بما كان بيني وبينك البارحة؟»

فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد للرسول: «قل له: الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في إحداهما القصيدة، فما فعلت بالأخرى؟» فادعى أنه بيَّض فيها القصيدة، فقال المعتمد: «هلم المسودة.» فلم يحر جوابًا، فخرج المعتمد حنقًا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما، والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه حتى برد، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك.

فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصًا حسب ما بقي على خاطري.

ومن مختار شعره قوله إلى المعتمد حين تقبض النصراني على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسية:

أصدق ظني أم أصيخ إلى صحبي	فأنضي عزمي أم أعوج مع الركب
وإني لتفهو بي إليك مودة	يعثرها ما قد تعرض من ذنبي
إذا انقدتُ في رأي مشيت مع الهوى	وإن أتعقبه نكصت على عقبي
وما أغرب الأيام فيما قضت به	تريني بعدي عنك آنس من قربي
أهابك للحق الذي لك في دمي	وأرجوك للحب الذي لك في قلبي
ولي حسنات لو أمت ببعضها	إلى الدهر لم يرتع لنائبة سربي
وكم قد فرت يمناي بي من ضريبة	فلا غرو يومًا أن تفلل من غربي
ولا بد ما بيني وبينك من نثا	يطبقها ما بين شرق إلى غرب
ولا شك أن العفو منك سجية	فلم يبقَ إلا أن تخفف من عتبي

فأجابه المعتمد على الله:

تقدم إلى ما اعتدت عندي من الرحب   ورد تلقك العتبى حجابًا من العتب
متى تلقني تلقَ الذي قد بلوته   صفوحًا عن الجاني رءومًا على الصحب
سأوليك مني ما عهدت من الرضا   وأعرض عمَّا كان إن كان من ذنبي
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة   ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
تكلفته أبغي به لك سلوة   فليس يعاني الشعر مشترك اللب

(٢) لم نعثر على أصل هذين البيتين، فاضطررنا إلى ترجمتهما نظمًا.
(٣) لم نعثر على أصل هذين البيتين، فاضطررنا إلى نظمهما.
(٤) وللمعتمد أشعار في اعتماد منها قوله:

بكرتْ تلوم وفي الفؤاد بلابل   سفهًا وهل يثني الحليمَ الجاهلُ
يا هذه! كفي فإني عاشق   من لا يرد هواي عنها عاذل
حب اعتماد في الجوانح ساكن   لا القلب ضاق به، ولا هو راحل
يا ظبية سلبت فؤاد «محمد»   أو لم يروِّعْك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم   فعلى هواك له علي دلائل
لون كسته صفرة ومدامع   هطلت سحائبها وجسم ناحل

وقوله:

أدارَ النوى كم دار فيك تلددي   وكم عقَّني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه   كماة الأعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهند فانقضى   مرادي وعزمًا مثل حد المهند
فما حل خل في فؤاد خليله   محل اعتماد من فؤاد محمَّد
ولكنها الأقدار تردي بلا ظبا   وتصمي بلا قتل وترمي بلا يد

(٥) ولي المعتمد الحكم وهو في الثلاثين من عمره، كما يدل على ذلك قول وزيره وشاعره ابن زيدون في تهنئته:

وما أُعطت السبعون — قبل — أولي الحجى
من الإرب، وما أعطاك عشروك والعشر

الفصل العاشر

(١) جاء في كتاب المعجب عن هذا الشاعر المجيد ما يلي:

قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك: «بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له: «أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به؟» قال: «ما أتيت به معي.» فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية فسلم وقعد، وقال: «يا بني! استأذن لي على الوزير أبي مروان.» فقلت له: هو نائم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف — حملتني على ذلك نزوة الصبا، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل — ثم سكت عني ساعة وقال: «ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟» فقلت له: «ما سؤالك عنه؟» قال: «أحب أن أعرف اسمه فإني كنت أعرف أسماء الكتب.» فقلت: «هو كتاب الأغاني.» فقال: «إلى أين بلغ الكاتب منه؟» قلت: «موضع كذا» وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه، فقال: «وما لكاتبك لا يكتب؟» فقلت: «طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض هذه الأوراق، فقال لم أجئ به معي.» فقال: «يا بني خذ كراريسك وعارض.» فقلت: «بماذا وأين الأصل؟» فقال: «كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي.» فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال: «يا بني أمسك علي.» فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واوًا ولا فاءً هكذا نحو كراسين، ثم أخذت له في وسط الشعر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء، فاشتد عجبي وقمت مسرعًا حتى دخلت على أبي فأخبرته الخبر، ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعني لومًا حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة.» وجعل يسبني والرجل يقول: «ما عرفني.» وأبي يقول: «هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب.» ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به، فتحدثا طويلًا، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافيًا حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلت عليه

ليركبها ثم لا ترجع إليه أبدًا، فلما انفصل قلت لأبي: «من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟» فقال لي: «اسكت! ويحك! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم الأدب هذا «أبو محمد عبد المجيد بن عبدون» أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟» ا.هـ.

«ارجع إلى كتابنا «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» ص٣٥٣».

(٢) هذه فصول نثبتها هنا من كتاب «البيان المغرب، في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» (ج٣ ص٢٥٥) وما يليها قال:

في سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئة كثر خوض أهل قرطبة في الذي رأوه من تنافس ولدي أبي الوليد بن جهور في الانتصاف بالإمارة: ابنه عبد الرحمن كبير جماعتهم، وأخوه عبد الملك أشهمهم فؤادًا، وأصلبهم عودًا، الذي كشف عن وجوههم غمة مركسهم ابن السقاء، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم بفتكته به الفتكة التي ثبتت أوتاد ملكهم، ثم نازع أخاه عبد الرحمن فيما ذهب إليه من التفرد به.

وقد كان أشار على أبيهما بعض حلفائه بإيثار عبد الرحمن، فتمسك الشيخ بحظه من إرضاء ولده الصغير عبد الملك فمال إلى قسمة الرياسة بينهما مدة حياته، غير ناصب أحدهما للأمر، يقضي الله أمره لمن يشاء، وأنشد قول الجزيري:

وإذا الفتى فقد الشباب سما له حب البنين ولا كحب الأصغر

ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه في الإشراف والجباية، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والتولي لفرضهم، والإشراف على أعطياتهم، فرضيا منه هذا التقسيم وأقامهما على الصراط المستقيم.

وقال ابن بسام: «إلى هنا انتهى ما وجدته في كتاب ابن حيان من أخبار الدولة الجهورية.»

(قال مؤلف «البيان المغرب»): وها أنا أذكر من كلام ابن بسام وغيره ما أمكن من بقية أخبارهم إن شاء الله، فأقول أولًا:

كان عباد المعتضد خامر قلبه من أمر ابن السقاء مدبر دولة بني جهور ما لا يسعه بوح ولا كتم، وما لا يدعه سفه ولا حلم، شرقًا بحسن سيرته، وفرقًا من استمرار مريرته، وحسدًا لآل جهور، فقد كان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه، والضبط لسلطانه، بحيث يخيف الأنداد، ويغيظ الحساد، فدس عباد إلى عبد الملك بن جهور من جسره على الفتك، وإلى ابن السقاء من ألقى في روعه حب الملك، راش وبرى، حتى جرى القدر بينهما بما جرى، ولمَّا خلا لعبد الملك الجو بعد ابن السقاء أعرض وأطال، وطلب الطعن والنزال، ووجد عباد السبيل إلى شيء طالما أَسَرَّ ذكراه، ونغص عليه كثيرًا من دنياه، من افتقار بني جهور إلى نصره، تصرفهم بين يدي نهيه وأمره، وانقبض عن عبد الملك لأول استبداده بالأمر حُماته الذين كان ابن السقاء يرفههم برفقه، ويصطنعهم بحذقه.

وخامر ابن ذي النون من الشغف بقرطبة ما هوَّن عليه إنفاق المال، واحتمال الأثقال، وتكلف الحل والترحال، ومضت السنون، وغالت عبادًا المنون، وصار الأمر إلى ابنه المعتمد سنة إحدى وستين، فلما كان سنة اثنتين بعدها دلف ابن ذي النون إلى قرطبة وكان لا يغبها شره، ولا ينام عنها مكره، فاحتاج عبد الملك بن جهور إلى استمداد المعتمد لانفضاض من لديه، وعجزه عمَّا كان أسند من أمر قرطبة إليه، فأمده المعتمد بجمهور أجناده على أكابر قواده، وقد تقدم إليهم بمراده، ونهج لهم سبيل إصداره وإيراده، فوافوا قرطبة ونزلوا بربضها الشرقي وأقاموا بها أيامًا يحمون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويذبون عن جناها، وأفواههم تنجذب إليه، فلما شمل ابن ذي النون سفره واحتواه، وقضى من غزو قرطبة وطره وما قضاه، أخذ في الرحيل عنها فما انقشعت سدفة ليله، ولا تمزق غبار سنابك خيله، حتى هتك العباديون الحريم، وركبوا الأمر العظيم، باتوا متحدثين بالقفول ثم غلسوا مظهرين للرحيل، وعبد الملك متأهب لتشييعهم، عازم على البكرة إلى توديعهم، وشكرهم على حسن صنيعهم، فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره، وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره، وقد تمخضت له ليلة عن يوم عقيم، وافتر له ناجذ صبحها عن ليل بهيم، ومشى من أنصاره هنالك بين أسود مسوم، وأسد شتيم.

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه   تصيده الضرغام فيما تصيدا

فقبض للحين على عبد الملك وأخواته، وجميع أهل بيته، وبالغوا لوقتهم في الانتهاك لحرمه، وإزالة نعمه، وإخفار ذممه، وأخرج الشيخ أبو الوليد بقية أشراف الأندلس، وكان إذ ذاك مائل الشق، مفلوج الشدق، مغلوب الباطل والحق، لم تحفظ له حرمة، ولا رُعِيَ فيه إلٌّ ولا ذمة.

بلغني أنه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجًا منها على مركب هجين، وحاله تقر منها عيون الحاسدين، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يبتهل في الدعاء، فكان مما حفظ عنه قوله: «اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا، فأجبه لنا.»

ثم مات بعد أربعين يومًا من نكبته بجزيرة «شلطيش» مزال النعمة، مدال الحرمة، وأقرت ساقته بها، أقاموا هناك بقية أيام المعتمد يأخذهم الحدثان ويدعهم ويخفضهم الزمان أكثر مما يرفعهم.

انتهى كلام ابن بسام (رحمه الله).

(وقال الوراق): وفي سنة ستٍّ وخمسين نوَّه أبو الوليد بن جهور بابنيه عبد الرحمن وعبد الملك واستعان بهما دون تفويض منه إليهما، فلم يلبث عبد الملك أن أثل مجده لأول ظهوره بالاقتراب إلى المعتضد عباد، فكاتبه بما كان من أمره، وبعد ذلك زاره بإشبيلية فأكرمه المعتضد إكرامًا كثيرًا، وانصرف إلى قرطبة وقد زادت همته، وبعدت آماله، حتى فاق أخاه وغلبه على الأمر، واستبد بالأمر دونه إلى أن جعل سجنه منزله، وكان له بطانة سوء من السفال وسقاط الناس، ومن لا خلاق له، فكان لهم تسلط على الناس بالأذى، يهيم بهم في كل وادٍ من الدناءة، إلى أن غزا قرطبة البائسة المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة فاستجاش عند ذلك عبد الملك بن جهور حليفه المعتمد بن عباد فأمدَّه بجنوده وحشوده، حتى امتلأت منهم قرطبة فوقع القتال بين أهل قرطبة وابن ذي النون أيامًا إلى أن أقلع عنهم.

(قال صاحب «البيان المغرب»):

ولما أقلع ابن ذي النون عن قرطبة اجتمع أهلها في السر على أن يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد فأبرموا أمرهم وأحكموه، وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس، وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد وقام أصحاب ابن جهور دونه، وكانوا

طائفة قليلة، فغلب عليهم أهل قرطبة واستوى الخائن عبد الملك بن جهور في يد ابن مرتين قائد ابن عباد وانقرض ملك بني جهور، فكانت دولة أبي الوليد بن جهور بقرطبة ستًّا وعشرين سنة وستة أشهر ونصفًا.

ومن كتاب «الأنباء في سياسة الرؤساء». قال:

لما أخذ أبو الوليد بن جهور العهد على أهل قرطبة لولي عهده ابنه عبد الملك وولَّاه على قرطبة جار واعتدَى، وتعاظم وتعاطى حتى سمَّى نفسه ذا السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله وخطب له في منبر قرطبة بهذا كله، فسلط الله عليه نكاية ابن ذي النون له، وتضييقه عليه حتى ملك حصن المدور وحاصره بقرطبة، فاستغاث بالمعتمد محمد بن عباد فوجَّه إليه مقدمة في ثلاث مئة فارس، ثم جدد في إثرهم ألف فارس مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين فدخلوا قرطبة فانصرف ابن ذي النون منحوبًا مغتاظًا، فاستبان ابن عباد حال عبد الملك وضعف عقله، وقلة رجاله، وكراهية رعيته فيه، فلحقهم الطمع فيه، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب أنفه.

وثوى العسكر العبادي بقرطبة بعد رحيل ذي النون عنها أكرم ثواء، وأهلها يبثونهم شجوهم، ويطالعونهم على ما هم فيه، ويناشدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبضوا على الغوي الظالم أميرهم عبد الملك بن جهور ويحبسوا البلد على سلطانهم ابن عباد فأصبحوا عشي يوم الأحد المؤرخ على تعبئة سفرهم، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه، وأسرعا التقدم في الجند والعامة إلى دار عبد الملك بن جهور فاستوى هو وخويصته فوق غرفة داره، وتكاثر الجند عليهم، فأتوه من كل جهة، وتوصلوا إلى داره من السقف المتصل به، ونزلوا منه إلى قعرها، وغشيها جموع من الناس أعلاها وأسفلها كالجراد المنتشر، فتقدمت العامة على النهب، فصيروا جميع ما احتوى عليه قصره كحريق سريع، وفضوا أقاصي مخازنه على نفيس أعلاقها، وأما الشيخ أبو الوليد والده رب القصر فأوى إلى المقصورة ببناته وكرائمه، فاقتحمها عليه قوم من النصارى فجردوهم ونهبوا ما عندهم، فأصبح أميرًا، وأضحى أسيرًا، وآل الحال بالغوي ابنه إلى أن صعد إلى علية أغلقها على نفسه وعلى نسائه، فارتقى الجند إليه، ليقبضوا فيها عليه، فطلب الأمان، ونزل طائعًا للقائدين

وبادر ابن مرتين بالمنع عن تخطي أحد من الناس، وأعلن بالنداء بالسيف في ذلك فكف الفسقة، وارتفع النهب، وأسرع ابن مرتين الرجوع إلى دار المخلوع، وقد حاصره ابن نجاح وقدما النظر في إخراج الغوي ليومهما إلى حضرة إشبيلية فوكلا به من أخرجه على أعين الناس مع أخيه وطائفته، ثم عطفا على النظر في شأن الشيخ الضليل والدهم ومن معه من بناته ونسائه، فصيروا جميعهم في دار صغرى، والتزم القائدان الجلوس للنظر في الأمور إلى أن وصل ابن عباد قرطبة فملكها.

نقلنا هذه الفصول لعلاقتها بما هنا، ولما فيها من الفائدة، وقد أصلحنا في عباراتها كلمات محرفة أرشدنا إليها التأمل، ودلنا عليها صدق النظر.

(٣) نثبت هنا هذا الفصل التالي من قلائد العقيان، للفتح بن خاقان، لارتباطه بكلام «دوزي»، قال الفتح بعد كلام في المعتمد:

وكانت قرطبة منتهى أمله، وكان روم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها ومواصلة واليها إذ لم يكن في منازلها قائد، ولم يكن لها إلا حيل ومكائد، لاستمساكهم بدعوة خلفائها، وأنفتهم من طموس رسم الخلافة وعنائها، وحين اتفق له تملكها، وأطلعه فلكها وحصل في قطب دارتها، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها، قال من البسيط:

من للملوك بشأو الأصيد البطل	هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبتُ قرطبة الحسناء — إذا منعت	من جاء يخطبها — بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلًا حتى عرضت لها	فأصبحت في سري الحلي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس	كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم	هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولما انتظمت في سلكه، واتسمت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولَّاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداه، وزاد على أمده ومداه، وحملها بكثرة حبائه واشتغل بأعبائها عن فنائه، ولم يزل فيها آمرًا وناهيًا، غافلًا عن المكر ساهيًا، حسن ظن بأهلها اعتقده، واغترار بهم ما رواه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفنوه في دمائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرش سلوه، وعزيز أذلوه،

إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلًا وجرَّ إليها حربًا وويلًا، فبرز الظافر منفردًا من كماته، عاريًا عن حماته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلامًا كما بلله الشباب بأندائه، وألحفه الحسن بردائه، فدفعهم أكثر ليلته، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا، ولا استقل منها ولا سعى، فترك ملتحفًا بالظلماء، مغبرًّا وسط الحماء، تحرسه الكواكب، بعد المواكب، ويستره الحندس، بعد السندس، فمر بمصرعه سحرًا أحد أئمة الجامع المغلسين وقد ذهب ما كان عليه ومضى، وهو أعرى من الحسام المنتضى، فخلع رداءه عن مكنبيه ونضاه، وستره به سترًا أقنع المجد وأرضاه، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، وسعر الجوى لوعته، رفع بالعويل نداءه وأنشد:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

ولما كان من الغد حز رأسه، ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأبصار، وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسووا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره وخلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره، ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره، وعدل عن تأبينه إلى البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوعته شافية، إلا إشارته إليه في تأبين أخويه المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة التي ينتهي بنا القول إلى سرد خبرها، ونص عبرها، فإنه قال (طويل):

يقولون صبرًا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
نرى زهرها في مأتم كل ليلة يخمشن لهفًا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا ويا صبر ما للقلب في الصبر من عذر
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قصر دمعها على كل قبر حل فيه أخو القطر

وبرق ذكى النار حتى كأنما ... يسعر مما في فؤادي من الجمر
هوى الكوكبان «الفتح» ثم شقيقه ... يزيد فهل بعد الكواكب من صبر
أفتح! لقد فتحت لي باب رحمة ... كما بيزيد الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدار عني ولم أمت ... وأدعى وفيًّا قد نكصت إلى الغدر
توليتما والسن بعدُ صغيرة ... ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى ... إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
يعيد على سمعي الحديد نشيده ... ثقيلًا فتبكي العين بالحس والنقر
معي الأخوات الهالكات عليكما ... وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله ... ويزجرها التقوى فتصغي إلى الزجر
أبا خالد أورثتني البث خالدًا ... أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما ما أودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

الفصل الحادي عشر

(١) ذكر صاحب قلائد العقيان في سبب هذه الأبيات وجهًا آخر قريبًا من الوجه الذي ذكره «دوزي» هنا، فقال: ولما فغر المعتمد على مرسية فمه، وأراد أن يرفع بها علمه، ويثبت بها قدمه، ويتخذ ملاكها خوله وخدمه، وجعل ابن طاهر غرضه، ونبذ ذمام الوفاء له ورفضه، لضيق مجاله، وقلة رجاله، عجم أعواده، وسبر أنجاده، فلم ير سهمًا يفوقه لعرشه، ولا شهمًا يطوقه أمر جيشه، إلا ابن عمار رأيًا لم ينتقده، واعتقادًا لم يفتقده، وظنًّا أخلفه، وقضاء ما أسلفه، مجازاة لبغيه، وموازاة لقبح سعيه، وانتصارًا من الله لمن لم يجنِ ذنبًا، ولم يثن عن مضجع الموالاة جنبًا، فلمَّا وصل إليها، وحصل عليها، وفض ختمها، وصحح لنفسه اسمها، نبذ عهد المعتمد وخلعه، وأنزل ذكره من منابرها بعدما أطلعه، فقيَّض له من ابن رشيق رجل حكاه فعلًا، وصار لتلك العقيلة بعلًا، فاقتص منه اقتصاص ابن ذي يزن من الحبشان، وتركه أخسر من أبي غبشان، وما كان إلا ريثما أوقد جمره، وقلده نهيه وأمره، وخرج هو إلى افتقاد أقطاره، وقضاء بعض أوطاره، حتى ثار له ثورة الأسد الورد، وامتنع له بمرسية امتناع صاحب الأبلق الفرد، فبقي ابن عمار ضاحيًا من ظل غبطته، لاحيًا نفسه على غلطته، ولما استبهم أمره ولم يعلم له تفسيرًا، وعاد جناحه الوافر مهيضًا كسيرًا، أراد الرجوع إلى المعتمد فخاف أن يوبقه غدره، وعزم على القعود عنه فضاق بفقد ما عهده عنده صدره، فكتب إليه:

أأسلك قصدًا أم أعوج عن الركب   فقد صرت من أمري على مركب صعب

إلى آخر القصيدة.

ثم قال: فرقَّ له المعتمد وأشفق، وأقشع نوء حقده عليه وأخفق، وعزم على الصفح عنه والتجاوز، وأن يرفع بالإغضاء له تلك المعاوز، فكتب إليه مراجعًا:

لدي لك العتبى تراح من العتب

إلى آخر الأبيات التي أثبتها «دوزي» في كتابه، كما أثبت أبيات ابن عمار السابقة.

(٢) ارجع إلى ما كتبناه عن أخبار ابن عمار مع المعتمد في هامش الكتاب.

الفصل الثاني عشر

(١) سقطت طليطلة في عهد القادر آخر ملوك بني ذي النون من ملوك الطوائف وقد بلغت دولتهم في إبانها من الاستفحال أقصى غاية، حتى غلبوا المعتمد بن عباد على قرطبة وقتلوا ولده عبادًا ونزعوا بلنسية من يد ابن أبي عامر إلى أن أدرك دولتهم الضعف والانحلال في عهد القادر بن ذي النون هذا.

واستولى الأذفونش منهم على طليطلة وفي ذلك يقول بعض شعرائهم في التفجع على طليطلة:

لثكلك كيف تبتسم الثغور   سرورًا، بعدما بئست ثغور
أما وأبي مصاب هد منه   ثبير الدين، فاتصل الثبور
لقد قصمت ظهور حين قالوا: «أمير الكاشحين له ظهور»
ترى في الدهر مسرورًا بعيش   مضى عنا لطيته السرور
أليس بها أبي النفس شهم   يدور على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقاب كن غلبًا   وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل   وسامح في الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الضد منها   حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى   ولا منها الخورنق والسدير

محصنة محسنة بعيد تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلًا للدين صعبًا فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعًا فصاروا حيث ساء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس! أي قلب على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنًا يكرر ما تكررت الدهور
وينشر كل حسن ليس يطوى إلى يوم يكون به النشور
أديلت قاصرات الطرف كانت مصونات مساكنها القصور
وأدركها فتور في انتظار لسرب في لواحظه فتور
وكان بنا وبالفتيات أولى لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين وكيف يصح مغلول قرير
لئن غبنا عن الإخوان إنَّا بأحزان وأشجان حضور
نذور كُنَّ للأيام فيهم بمهلكهم فقد وفت النذور
فإن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير
فإنا مثلهم وأشد منهم نجور وكيف يسلم من يجور

ومنها:

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلُّوا كل عضب تهاب مضاربًا عنه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولى بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبرًا بعد سبي وامتحان يلام عليهما القلب الصبور؟
فأم الصبر مذكار ولود وأم الصقر مقلاة نزور

ومنها:

كفى حزنًا بأن الناس قالوا: «إلى أين التحول والمسير»
أنترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنًا نباكرها فيعجبنا البكور

وظـل وارف وخـريـر مـاء ... فـلا قـر هـنـاك ولا حـرور
ويؤكل من فواكهها طري ... ويشرب من جداولها نمير
يؤدي مغرم في كل شهر ... ويؤخذ كل صائقة عشور
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القوم بالله الغرور
رضوا بالرق — يا لله — ماذا ... رأوه؟ وما أشار به مشير؟
مضى الإسلام فابكِ دمًا عليه ... فما ينفي الجوى الدمع الغزير
ونُح واندب رفاقًا في فلاة ... حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم، وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير
أنَعمى عن مراشدنا جميعًا ... وما إن منهم إلا بصير
ولو أنَّا ثبتنا كان خيرًا ... ولكن ما لنا كرم وخير
إذا ما لم يكن صبر جميل ... فليس بنافع عدد كثير

(٢) جاء في كتاب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشي عن حيان بن خلف قال: هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر، وكان لقبه المنصور، وكان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد عنهم قد أسندوا أمرهم إلى نفر من مشيختهم، فتشاوروا في أن يقدموا أميرًا من أنفسهم يعترفون له، فاتفقوا على عبد العزيز ابن مولاهم، إيثارًا له على ابن عمه محمد بن عبد الملك وكان مقيمًا بقرطبة، وعبد العزيز بسرقسطة، في كنف منذر بن يحيى فأحكم له التدبير، وخرج سرًّا، فلحق ببلنسية، فاستقبله الموالي أفواجًا، وقلدوه رياستهم، وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه، وأحفظهم لقرابته، ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته، فآواهم، وجبر الكسير، ونعش الفقير طول مدته، حتى بلغ من ذلك مبلغًا أعيا ملوك زمانه، وخاطب لأول حينه الخليفة بقرطبة القاسم بن حمود مع هدية حسنة، وذكره بذمام سلفه، فسماه المؤتمن ذا السابقتين، فتوطد سلطانه، واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب، حتى سماهم الناس الطبائع الأربع، وهم: ابن طالوت وابن عباس وابن عبد العزيز وابن التاكرني كاتب رسائله، ولم تزل حاله تسمو، حتى اتصل بوزارته فنال جسيمًا من دنياه، وطالت إمارة عبد العزيز إلى سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة فتوفي في ذي الحجة منها، وهو صاحب بلنسية ومرسية وشاطبة وجزيرة شقر وأعمالها.

وضعف أمر ولده المظفر ببلنسية، فملك ابن طاهر مرسية واستبدَّ بها إلى أن مات، فورث ملكه بها ابنه محمد بن طاهر.

وبعد عبد العزيز بن أبي عامر ولي ابنه عبد الملك، اجتمع أصحاب أبيه عبد العزيز على تأميره، وقام له بأمره كاتب والده، والمدير لدولته الوزير ابن عبد العزيز المشهور، مع معرفته بابن روتش القرطبي وكان مشهورًا بالرجاحة، فأحسن هذا الكاتب معونته على شأنه، وتولى تمهيد سلطانه، واستقر أمره على ضعف ركنه، لعدم المال، وقلة الرجال، وفساد أكثر الأعمال، وراعى هذا الكاتب الشهم، مدبر تلك الدولة في هذا المؤمر عبد الملك مكان صهره من الأمير المأمون يحيى بن ذي النون إذ كان صهر عبد الملك أبا امرأته، المساهم له في مصاب أبيه، المعين له على سد ثلمه، الزائد عنه كل من طمع فيه، فانزعج عند نزول الحادثة من حضرته طليطلة إلى قلعة «كونكة» من أعماله، للدنو من صهره عبد الملك وبادر بإنفاذ قائد من خاصته، وبالكاتب ابن مثنى إلى بلنسية في جيس كثيف، أمرهم بالمقام مع عبد الملك وشد ركنه، فسكنت الدهماء عليه.

ومضى عبد العزيز أبوه، غير فقيد المكان، ولا عديم الشأن، ولا مبك لسمائه وأرضه، ما فجع به إلا ذو رحمه من آل أبي عامر، لتناهيه في صلتهم، حتى صار إسرافه في ذلك من أضر الأشياء لجنده وأجلبها لذمه، له في ذلك أخبار مأثورة، وتوفي وهو أطول أمراء الأندلس مدة إمارة، وتملكها أربعين حجة، فسبحان المنفرد بالبقاء، الأول قبل الأشياء.

(٣) عبارة المعتمد في النص العربي هي: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير.» وقد جاء في كتاب آخر ملوك بني سراج وقد بدأه بتلخيص ما رواه صاحب كتاب «الروض المعطار» ثم عقب عليه بكلام من عنده فقال: تأخر المعتمد في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية، فلما أرسلها استشاط الأذفونش غضبًا، وأرسل يطلب منه بعض الحصون وأمعن في التجني، وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب إشارة القسيسين والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم، وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة، والزهراء هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وأمعن في بنائها، وجلب إليها الرخام الملون، والمرمر الصافي، والحوض المشهور ... إلخ؛ ذلك لتلد الأذفونشة بين نسيم الزهراء وفضيلة الكنسية من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهوديًّا هو وزير الأذفونش فأبى ابن عباد إجابة التماسه، فراجعه وألح عليه حتى أيأسه بما غلظ له من القول، فضربه المعتمد بمحبرة كانت بين يديه فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به، فصُلب منكوسًا بقرطبة، واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء، فبادر محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة، واحتج بأنه إنما بادر بذلك خوفًا من أن يكسل المعتمد عن منابذة العدو،

وبلغ الخبر الأذفونش فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية، وليحصرنه في عقر داره، وجرد له جيشين أحدهما زحف إلى كورة باجه فلبلة فإشبيلية، والثاني تولى قيادته بنفسه، حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عباد على ضفة النهر الأعظم، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريًا: «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي.» فوقع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية، تروح منك، لا تروح عليك إن شاء الله (تعالى).»

وشاع توقيع ابن عباد وفشا في الناس عزمه على استنفار البربر لمجاهدة العدو، فلما علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف، اهتموا وتشاوروا للأمر، ومنهم من كاتبه، ومنهم من شافهه، قائلين: «إن الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد.» فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» أي أن يكون مأكولًا ليوسف بن تاشفين، يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقًا للأذفونش أسيرًا عنده يرعى خنازيره في قشتالة، وقال لعذاله قولًا آخر: «يا قوم إني من أمري على حالين، حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، فأما حالة الشك، فإني إن استندت إلى الأذفونش أو إلى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي، ويمكن أن لا يفعل، وأما حالة اليقين، فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله، وهذه حالة يقين، فلماذا أدع ما يرضي الله إلى ما يسخطه.»

ولما عزم المعتمد على الاستجاشة، أمر كلًّا من «المتوكل بن الأفطس» صاحب بطليوس وعبد الله بن حبوس صاحب غرناطة أن يوفد كل منهما قاضي الجماعة بحضرته، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية «وقد وفى يوسف بالأولى ولم يفِ بالثانية».

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الأندلس لم تزل تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر، مستعطفين مجهشين بالبكاء، فما وفدت رسل ابن عباد حتى أسرع الإجابة، وحشد العساكر، وأنزلها بالجزيرة الخضراء، وأجاز على أثرها، وامتلأت الجزيرة

بالمجاهدين والمتطوعة، وعلى رواية ابن خلكان أنه أمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغص الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملًا قط ولا خيلهم، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال، ومن رغائها، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب، فكان يحدق بها عسكره عند الحرب، وكانت خيل الفرنج تجمع منها.

ولما نزل يوسف بحشوده في الجزيرة، وبلغ الأذفونش تألُّب أمراء المسلمين لمناهضته، استنفر جميع أهل بلاده، وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والأساقفة صلبانهم، واجتمع له من الإفرنجة والجلالقة ما لا يحصى عدده، وبعث الأذفونش إلى ابن عباد: «إن صاحبكم يوسف تجشم المشقة، وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم.» وكان مقصده في الدلوف إلى ديار المسلمين أنه إن دارت عليه الدائرة، كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم، وإن كانت عليهم، كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم.»

ومما قيل إنه كتب إلى يوسف كتابًا أنشأه له بعض غزاة المسلمين، يغلظ له في القول، ويتوعده، فأمر ابن تاشفين — ولم يكن أعلم بالعربية من الأذفونش — كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه، وكان كاتبًا مجيدًا فكتب وأجاد، فلما قرأه، يوسف استطاله، وأخذ كتاب الأذفونش وكتب على ظهره: «الذي يكون ستراه»، وأخذ المعتمد وأمراء الأندلس يجلبون لجيوش المرابطين الأقوات والضيافات.

ولما قرب أمير المسلمين من إشبيلية خرج ابن عباد للقائه في وجوه أصحابه، وعندما تلاقيا، تصافحا وتعانقا، ثم شكرا أنعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وتوسلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصًا لوجهه، ووافت الجيوش كلها بطليوس.

وجاءهم الخبر بزحف الطاغية، ولما تدانى الفريقان، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفًا عليهم من المكايد لجهلهم المكان، وكان يوسف قد كتب إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث وهي الإسلام أو الجزية أو السيف، كما هي السُّنَّة، فامتلأ الأذفونش غيظًا، وقامت الأساقفة ورفعوا صلبانهم، وتبايعوا على الموت، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة، ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب، وأصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول له: «غدًا يوم الجمعة، وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت.»

فأعلم ابن عباد السلطان يوسف بذلك وأنها خديعة ليفتك بالمسلمين يوم الجمعة، فانتبه الجيش الإسلامي طول ليلة الجمعة، واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحًا مسرورًا يقول: إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم، فبشره بالفتح والشهادة، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره.

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش، وصليل الأسنة، وجاءت العيون من داخل محلتهم، يقولون: قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه: «ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون — وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب — فهم جاهلون البلاد، فاقصدوا ابن عباد، وأصدقوه الحملة، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون.»

فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين، وقبل ورود الجواب غشيته جنود الأذفونش من كل جهة، وهاجت الحرب، وحمي الوطيس، وتبايع الناس على الموت، وصبر المعتمد صبرًا لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف في النجدة، وانكشف بعض أصحابه، وأثخن جراحات، وعقرت تحته ثلاثة أفراس.

وبينما هو على تلك الحال أقبل عليه — من قواد المرابطين — داود ابن عائشة، وكان من الأبطال، فنفس عن خناقه، وأقبل يوسف بجموعه، وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء، فنهد إليه أذفونش بمعظم جيشه، فصدمهم ابن تاشفين بجنده، فردهم إلى مراكزهم، وانتظم — بيوسف — شمل ابن عباد وحملوا جميعًا حملة الرجل الواحد، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم الجو من العثير، وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد وتجددت الحملة، فانكشف الأذفونش وقيل: بل تصادم الجمعان، وتناوبا الكر والفر، إلى أن أمر يوسف حشمه من السودان، فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق اللمط، وسيوف الهند، ومزاريق الزان، وأدرك الأذفونش أسود لصق به، وقبض على عنانه، وانتضى خنجرًا أثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، وهبت ريح النصر، وأنزل الله السكينة على المسلمين، وانكشف العدو من كل جانب، وقد فشا فيه القتل والأسر، واعتصم الأذفونش — بخمس مئة فارس من قومه — بربوة عالية انسابوا منها بعد تخييم الظلام، وقد أباد القتل من الإسبانيول أمة، وجعل المسلمون من رءوسهم مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشَّره النبي ﷺ، وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي، وغيرهما من الأعيان.

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، فتعففت عنها أمير المسلمين، إيثارًا لأهل الأندلس، وعادوا جميعًا إلى إشبيلية وحضرت الكتب من بر العدوة إلى ابن تاشفين، تقتضي عزمه بالرجوع، فعبر البحر وودعه المعتمد، وهذه وقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والنصرانية.

(٤) توفي باديس عام ١٠٨٣م، فقسمت مملكته بعد وفاته بين حفيديه عبد الله وتميم فكان نصيب الأول غرناطة والثاني مالقة. «دوزي»

(٥) **يوسف بن تاشفين والمعتمد**

جاء في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ما يأتي: ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر، قاصدًا مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين، مستنصرًا به على الروم، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء، وأنزله أكرم نزل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه، بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه، فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه، وقال له: وأنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي.

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسرورًا بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبته، ولم يدر أن تدميره في تدبيره، وسلَّ سيفًا يحسب له، ولم يدرِ أنه عليه، فكان كما قال أبو فراس:

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور، إلى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد، وأعيان الجند، ووجوه قبائل البربر، فاجتمع له نحو سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجْل، فعبر البحر بعسكر ضخم، وكان عبوره من مدينة سبتة فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل وطنه، وأظهر من بره وإكرامه، فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف، والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك.

فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الاندلس، ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصدًا شرقي الأندلس، وسأله المعتمد دخول إشبيلية دار

ملكه ليستريح فيها أيامًا، حتى تزول عنه وعثاء السفر، ثم يقصد قصده فأبى عليه وقال: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو، فحيث ما كان العدو توجهت وجهه.»

وكان الأذفونش محاصرًا لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن «الليط»، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعًا إلى بلاده، مستنفرًا عساكره، ليلقى بهم البربر، وتوجه يوسف المذكور إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار، فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين، على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالًا جعله له، ويوليه في جهة إشبيلية أضخم ولاية، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك، وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها، ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه، كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتمد على الله: «هلم لما جئنا له من الجهاد، وقصد العدو.»

وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس، ويتشوق إلى مراكش، ويصغر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته: «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيمًا قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعت دون الوصف.»

وهو في ذلك كله يسر حسوًا في ارتغاء، فخرج المعتمد بين يديه قاصدًا مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضًا جيش ضخم من أقطار الأندلس، وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة، زهاء عشرين ألفًا، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم، وكان الأذفنش — لعنه الله — قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وجاء يجر الشوك والشجر، وإنما كان مقصوده الأعظم، قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس، والتهيب عليهم.

فأما ملوك الأندلس، فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم.

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمرًا عظيمًا هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل، وظهور قوة، فقال للمعتمد: «ما كنت أظن هذا الخنزير — لعنه الله — يبلغ هذا الحد.»

وجمع يوسف أصحابه، وندب لهم من يعظهم ويذكرهم، فظهر منهم من صدق النية، والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون، وكان ترائيهم يوم الخميس وهو الثاني عشر من رمضان، فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان، فكان من قول الأذفونش لعنه الله: «الجمعة لكم، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف.» وقصد — لعنه الله — مخادعة المسلمين، واغتيالهم، فلم يتم له ما قصد، فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة، ولا أمارة عندهم للقتال، وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكي السلاح، وقال لأمير المسلمين: «صل في أصحابك، فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه، وها أنا من ورائكم، وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين.» فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة، فلما قعدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى، وحمل الأذفونش — لعنه الله — في أصحابه، يظن أنه قد انتهز الفرصة، وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله، وأخذ المرابطون سلاحهم، فاستووا على متون الخيل، واختلط الفريقان، فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد، وهزم الله العدو، واتبعهم المسلمون يتعقبونهم في كل وجه، ونجا الأذفونش — لعنه الله — في تسعة من أصحابه، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس، أعزَّ الله فيه دينه، وأعلى كلمته، وقطع طمع الأذفونش — لعنه الله — عن الجزيرة، بعد أن كان يقدر أنها في ملكه، وأن رءوسها خدم له، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين، وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة.

وكان لقاء المسلمين عدوهم — كما ذكرنا — في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠.

ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحًا لهم وبهم، فسر بهم أهل الاندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له في المساجد، وعلى المنابر وانتشر له من الثناء — بجزيرة الأندلس — ما زاده طمعًا فيها، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها، وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة.

فلما قهر الله العدو، وهزمه على يد أمير المسلمين، أظهر الناس إعظامه، ونشأ له الود في الصدور، ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه، وهو يريد غير ذلك، فجال فيها، ونال من ذلك ما أحب، وفي خلال ذلك كله، يظهر إعظام المعتمد وإجلاله، ويقول مصرحًا: «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل، وتحت أمره، وواقفون عند ما يحده.»

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة، وحظي عنده، واشتد تقريب أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية، وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة.

وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته، ونزاهة نفسه، وطهارة سريرته، وشدة ملوكيته، وقد كان المعتصم — قبل عبور أمير المسلمين بيسير — توجه إلى شرق الأندلس يتطوف على مملكته، ويطالع أحوال عماله ورعيته.

فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوه أصحابه، وتلقاه لقاء نبيلًا، وعزم عليه ليدخلن بلاده، فأبى المعتمد ذلك، ثم اتفقا بعد طول مراودة، على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلحا — في الظاهر — واحتفل المعتصم في إكرامه، وأظهر من الآلات السلطانية، والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس، ما ظنه مكمدًا للمعتمد، مثيرًا لغمه، وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك، وصان خلقه الكريم عنه، وعصمه بفضله منه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع، ورجع المعتمد إلى بلاده وبأثر ذلك عبر إلى مراكش، ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معمورًا، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة، وتحف جليلة، وتلطف في خدمته، حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب، وكان يقول لأصحابه: هذان رجلا الجزيرة، يعني المعتمد والمعتصم.

وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين، ووصفه إياه عنده بكل فضل.

ولم يكن المعتصم بعيدًا من أكثر ما وصفه به، ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين، بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما، حسن له ذلك سوء رأيه، ودنس سريرته، وضعف بصره بعواقب الأمور، وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا،

وليبلغ القدر ميقاته، وإذا أراد الله أمرا هيَّأ له أسبابًا، فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك، ولم يدر أنه ساقط في البئر التي حفر، وقتيل بالسلاح الذي شهر، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين، أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه، وفرط كبره، وأنه لا يرى أحدًا كفؤًا له، وزعم أنه قال له في بعض الأيام، وقد قال له المعتصم: «طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة — يعني أمير المسلمين — ولو عوجت له أصبعي، ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه، وكأنك تخاف غائلته، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه، إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارًا، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم.» إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد.

وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحابه أجلًا، وحدَّ له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها، وإنما فعل ذلك تطييبًا لقلب المعتمد وتسكينًا لخاطره، فلما انقضت تلك المدة أو قاربت، عبر أمير المسلمين إلى العدوة، وقد وغر صدره وتغيرت نفسه:

وما النفس إلا نطفة في قرارة إذا لم تكدر كان صفوًا غديرها

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة، وتشوفه إلى مملكتها، وظهرت للمعتمد — قبل عبوره — أشياء عرف بها أنه غير عليه، ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد، فبلغني أنَّه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: «كنت أظن أني قد ملكت شيئًا، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»

فاتفق رأيه ورأي أصحابه، على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس، ومجاهدة العدو، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا، ففعلوا، وكتبوا إلى المعتمد بذلك، فأذن لهم، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم، أو إظهار لملكتهم، وجدوا — في كل بلد لهم — أعوانًا.

وقد كانت قلوب أهل الأندلس — كما ذكرنا — قد أشربت حب يوسف وأصحابه، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالًا انتخبهم، وأمر عليهم رجلًا من قرابته يسمى بلجين وأَسَرَّ إليه ما أراده، فجاز بلجين المذكور، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة، فقال له: «أين تأمرني بالكون؟»

فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك، فتشعبت جموعه، وأهواؤها ملتئمة، وانتثرت بلاده، وقلوب أهلها على محبته منتظمة، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين، انتشر ذلك في الأندلس، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها، وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون، وقد تقدم ذكره، وهو من أكبر ولده، فدخلوا البيت، وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذرًا، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلدًا وصبرًا، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤، فزادت الإحنة والمحنة، واستمرت — في غلوائها — الفتنة، وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها، وأثبت عنده سوء اعتقادها، وأغري بتمزيق أديمها، وسفك دمها، وحض على هتك حريمها، وكشف حرمها، فأبى له ذلك مجده الأثيل، ورأيه الأصيل، ومذهبه الجميل، وما حباه الله من حسن اليقين، وصحة العقل والدين، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة، فقاموا بجيش غير مستنصر، واستنسروا بغاثًا غير مستنسر، فبرز هو من قصره سيفه بيديه، وغلالته ترف على جسده لا درقة له ولا درع عليه، فلقي على باب من أبواب المدينة يسمى «باب الفرج» فارسًا من الداخلين، مشهور النجدة، شاكي السلاح، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة، طويل شفرة السنان، فالتوى الرمح بغلالته، وخرج من تحت إبطه، وعصمه الله منه ودفعه — بفضله — عنه، وصب هو سيفه على عاتق الفارس، فشقه إلى أضلاعه، فخر صريعًا، وانهزمت تلك الجموع، ونزل المتسنمون للأسوار عنها، وظن أهل إشبيلية أن الخناق قد تنفس.

فلما كان عصر ذلك اليوم عاودهم القوم، فظهر على البلد من واديه، ويئس من سكنى ناديه، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه، وشبت النار في شوانيه، فانقطع عندها العمل والقول، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول، وكان الذي ظهر عليها من جهة

البر رجل يعرف بالقائد أبي حمامة مولى «بني سجوت» والتوت الحال أيامًا يسيرة، إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة، وحشود من الرعية وافرة، والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع، وخالط قلوبهم الهلع، يقطعون السبل سياحة، ويعبرون النهر سباحة، ويتولون مجرى الأقدار، ويترامون من شرفات الأسوار، حرصًا على الحياة، والموفون بالعهد، المقيمون على صريح الود ثابتون، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة، وهذا يوم الكائنة العظمى، والطامة الكبرى، فيه حم الأمر الواقع، واتسع الخرق على الراقع، ودخل البلد من واديه، وأصيب حاضره وباديه، بعد أن جد الفريقان في القتال، واجتهدت الفئتان في النزال، وظهر من دفاع المعتمد — رحمة الله — وبأسه، وترامیه على الموت بنفسه، ما لا مزيد عليه، ولا تناهٍ لخلق إليه، وفي ذلك يقول المعتمد بعدما نزل بالعدوة أسيرًا حسيرًا:

لما تماسكت الدموع ونهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبدُ منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنى ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ع، أيسلب الشرف الرفيع؟
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ـص عن الحشى شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط إلى القتا ل، وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

فشنت الغارة في البلد، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدًا ولا لبدًا، وانتهبت قصور المعتمد نهبًا قبيحًا، وأخذ هو قبضًا باليد، وجبر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضي بالله وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما، أحد الحصنين، يسمى رندة والآخر مارتلة فكتب (رحمه الله) وكتبت السيدة

الكبرى أمهما، مستعطفين، مسترحمين، معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما، فأنفا من الذل، وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس، بعد أبيهما، ثم عطفتهما عواطف الرحمة، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله (عز وجل)، فتمسك كل منهما بدينه، ونبذ دنياه، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة، ومواثيق محكمة.

فأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه، قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه.

وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قُتل غيلة، وأخفي جسده، ورحل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع أمواله، ولم يصحب من ذلك بلغة زاد، فركب السفين، وحل بالعدوة محل الدفين، فكان نزوله من العدوة بطنجة فأقام بها أيامًا، ولقيه بها الحصري الشاعر، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف، فرفع إليه أشعارًا قديمة قد كان مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به — فيما بلغني — أكثر من ستة وثلاثين مثقالًا، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها، سقطت من حفظي، ووجه بها إليه، فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره، وخفته عليه، كان هذا الرجل — أعني الحصري — الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطرًا، إلا أنه كان قليل الجيد منه فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها:

قل لمن قد جمع العلـ ... م وما أحصى صوابه
كان في الصرة شعر ... فـتـنـظـرنـا جـوابـه
قـد أثـبـنـاك فـهـلَّا ... جلب الشعر ثوابه؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء، وملحفي أهل الكدية ما صنع المعتمد (رحمه الله) مع الحصري تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله:

شعراء طنجة — كلهم — والمغرب ... ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية ... طي الحشا ساواهم في المطلب
قد كان إن سئل الندى يجزل وإن ... نادى الصريخ ببابه اركب يركب

وله في هذا المعنى (رحمه الله):

قبح الدهر فماذا صنعا　　كلما أعطى نفيسًا نزعا
قد هوى ظلمًا بمن عادته　　أن ينادي كل من يهوي لعا

ومنها:

قل لمن يطمع في نائله　　قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة　　جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة (رحمه الله) أيامًا على الحال التي تقدم ذكرها، ثم انتقل إلى مدينة «مكناسة» فأقام بها أشهرًا، إلى أن نفذ الأمر، بتسييرهم إلى «أغمات» فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد (رحمه الله) ودفن بها، فقبره معروف هناك، وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨ فالله أعلم، وسنه يوم توفي إحدى وخمسون سنة.

وجاء في كتاب «نفح الطيب» ما يأتي:

ثم إنه بقي مأسورًا بـ«أغمات» إلى سنة ٤٨٦ فأخذ بمالقة رجل كبير يعرف بابن خلف فسجن مع أصحاب له فنقبوا السجن وذهبوا إلى حصن «منت ميور» ليلًا فأخرجوا قائدها ولم يضروه.

وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل فسألوه، فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد فولوه على أنفسهم وظن الناس أنه الراضي، فبقي في الحصن ثم أقبل مركب من المغرب ويعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريبًا من الحصن فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من طعام وعدة، فاتسعت بذلك حالتهم ووصلت أم عبد الجبار إليه ثم خاطبها أهل الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨، ولما بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين أمر بثقاف المعتمد في الحديد وفي ذلك يقول:

قيدي أما تعلمني مسلمًا　　أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم　　فينثني القلب وقد هشما

وبقي إلى أن توفي (رحمه الله) سنة ٤٨٨، وقد ساق الفتح قضية ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعبارته البارعة فقال: وأقام بالعدوة برهة لا يروع له سرب، وإن لم يكن

آمنًا، ولا يثور له كرب، وإن كان في ضلوعه كامنًا، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش معقل كان مجاورًا لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح، ظاهرًا على بسائط وبطاح، لا يمكن معه عيش، ولا يتمكن من منازلته جيش، فغدا على أهلها بالمكاره وراح، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح، فسار نحوه الأمير سيف بن أبي بكر رحمة الله عليه، قبل أن يرتد طرف استقامته إليه، فوجده وشره قد تشمر، وضره قد تنمر، وجمره مستعر، وأمره متوعر، فنزل عدوته، وحل للحزم حبوته، وتدارك داءه قبل عضاله، ونازله وما أعد آلات نضاله، وانحشدت إليه الجيوش من كل قطر، وأفرغ من مسالكه كل قطر فبقي محصورًا لا يشد له إلا سهم، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم، وامتسك شهورًا حتى عرضه أحد الرماة، بسهم فرماه فأصماه، فهوى في مطلعه، وخرَّ قتيلًا في موضعه، فدفن إلى جانب سريره، وأمن عاقبة تغريره، وبقي أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه، حتى اشتد عليهم الحصر، وارتدَّ عنهم النصر، وعمَّهم الجوع، وأغب أجفانهم الهجوع، فنزلت منهم طائفة متهافتة، وولَّت بأنفاس خافتة، فتبعهم من بقي، ورغب في التنعم من شقي، فوصلوا إلى قبضة الملمات، وحصلوا في غصة الممات، فوسمهم الحيف، وتقسمهم السيف، ولما زأر الشبل، خيفت سورة الأسد، ولم يرج صلاح الكل والبعض حتى فسد، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها، وأحل ساحة الخطوب وفناءها، وحين أركبوه أساودًا، وأورثوه حزنًا بات له معاودًا، قال:

غنَّتك أغماتية الألحان	ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى	فغدا عليك القيد كالثعبان
متمددًا يحميك كل تمدد	متعطفًا لا رحمة للعاني
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه	ما خاب من يشكو إلى الرحمن
يا سائلًا عن شأنه ومكانه	ما كان أغنى شأنه عن شاني
هاتيك قينته، وذلك قصره	من بعد أي مقاصر وقيان

ولما فقد من يجالسه، وبعد عن من كان يؤانسه، وتمادى كربه، ولم تسالمه حربه، قال:

تؤمل للنفس الشجية فرحة	وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها	كما صحبت قبل الملوك اللياليا

نـعـيـم وبـؤس ذا لـذلـك نـاسـخ وبـعـدهـمـا نـسـخ المـنـايـا الأمـانـيـا

ولما امتدت في الثقاف مدته، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته، وأقلقته همومه، وأطبقته غمومه، وتوالت عليه الشجون، وطالت لياليه الجون قال:

أنـبـاء أسـرك قـد طـبـقـن آفـاقـا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فـأحـرق الـفـجـع أكـبـادًا وأفـئـدة وأغـرق الـدمـع آمـاقًـا وأحـداقـا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا
أنَّى غلبت وكنت الدهر ذا غلب لـلـغـالـبـيـن ولـلـسـبـاق سـبـاقـا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها وكـان عـزمـي لـلأعـداء طـراقـا
متى رأيت صروف الدهر تاركة إذا انبرت لذوي الأخطار أرماقا

وقال لي من أثق به: لما ثار ابنه حيث ثار، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار، جزع جزعًا مفرطًا، وعلم أنه قد صار في أنشوطة الشر متورطًا، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: «عرض بي للمحن، ورضي لي أن أمتحن، والله ما أبكي إلا انكشاف من أتخلفه بعدي، ويتحيفه بعدي.» ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته، وظللته مسرته، ورأيته قد استجمع، وتشوف إلى السماء وتطلع، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى سلطانه، وأوبة إلى أوطانه، فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، وتلتفت مقلة حائرة، حتى قال:

كذا يهلك السيف في جفنه إذا هز كف طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيـ ـم مرتقبًا غرة في كمين
كـأن الـفـوارس فـيـه لـيـوث تراعي فرائسها في عرين
ألا شـرف يـرحـم المـشـرفـ ـي ممَّا به من سمات الوتين
ألا كـرم يـنـعـش الـسـمـهـري ويشفيه من كل داء دفين
ألا حـنـة لابـن مـحـنـيـة شديد الحنين ضعيف الأنين

يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدر كفء معين

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفون أهلها السنات، وأخذوا البنين من حجور أمهاتهم والبنات، وتلقبوا بالإمارة، وأركبوا السوأى نفوسهم الإمارة، حتى كادت تقفر على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين (رحمه الله) أمرهم، وأطفأ جمرهم، وأوجعهم ضربًا، وأقطعهم ما شاء حزنًا وكربًا، وسجنهم بـ«أغمات» وضمتهم جوانح الملمات، والمعتمد إذ ذاك، معتقل هناك، وكانت فيهم طائفة شعرية، مذنبة أو برية، فرغبوا إلى سجانهم، أن يستريحوا إلى المعتمد من أشجانهم، فخلى ما بينهم وبينه، وغمض لهم في ذلك عينه، فكان المعتمد (رحمه الله) يتسلى بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، ويبوح إليهم بسره ونجواه إلى أن شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم، وبقي المعتمد في مجلسه يشتكي من ضيق الكبل، ويبكي بدمع كالوبل، فدخلوا عليه مودعين ومن بثه متوجعين، فقال:

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن «أغمات» والتوت عليَّ قيود لم يحن فكها بعد
من الدهم أم خلقها فأساود تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد
فهنئتم النعمى ودامت لكلكم سعادته إن كان قد خانني سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدًا ولله في أمري وأمركم الحمد

ومر عليه في موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح، ولا تعلق بها من الأيام جناح، ولا عاقها عن أفراخها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا الأراك، وهي تمرح في الجو، وتسرح في مواقع النَّو، فتنكد ممَّا هو فيه من الوثاق، وما دون حبته من الرقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجده وخبله، وفكر في بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه، وحبور حضرنه وشهدنه، فقال:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبل

ولـم تـك والـلـه الـمـعـيـد حـسـادة ... ولـكن حنينًا أن شكـلي لـها شـكل
فأسرح لا شملي صديع ولا الحشا ... وجيع ولا عيـناي يبكيـهما ثكل
هـنـيئًا لـهـا أن لـم يـفـرق جـمـيـعـهـا ... ولا ذاق منـها البعد عن أهلـها أهل
وأن لـم تـبـت مـثـلـي تـطـيـر قـلـوبـهـا ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
ومـا ذاك مـمَّـا يـعـتـريـه وإنـمـا ... وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل
لـنفسـي إلـى لـقـيا الـحـمام تشـوف ... سواي يحب العيش في ساقه حبل
ألا عصـم الـلـه الـقـطـا فـي فـراخـهـا ... فـإن فـراخـي خـانـهـا الـمـاء والـظـل

وفي هذا الحال زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة وهو أحد شعراء دولته المرتضعين درها، المنتجعين دررها، وكان المعتمد (رحمه الله) يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه في فرسان هذا الشان، فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعًا إلا ممزوجًا بدم، بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، وتكف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد، أبدع من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراثي أربد، أو بكاء ذي الرمة بالمربد، سلك فيها للاختفاء طريقًا لاحبًا، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحبًا، فمن ذلك قوله:

انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت ... سـريرة الـعـالـم الـعـلـوي «أغمات»
طـوت مـظـلـتـهـا لا بـل مـذلـتـهـا ... مـن لـم تـزل فـوقـه لـلـعـز رايـات
من كان بين الندى والبأس أنصله ... هـنـديـة وعـطـايـاه هـنـيـدات
رماه من حيث لم تستره سابغة ... دهـر مـصـيـبـاتـه نـبـل مـصـيـبـات
أنـكـرت إلا الـتـواءات الـقـيـود بـه ... وكيف تنكر في الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له ... وبـيـنـهـا فـإذا الأنـواع أشـتـات
وقـلـت هـن ذؤابـات فـلـم عـكـسـت ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات
حـسـبـتـهـا مـن قـنـاة أو أعـنـتـه ... إذا بـهـا لـثـقـاف الـمـجـد آلات

دروه ليثًا فخافوا منه عادية	عذرتهم فلعدوى الليث عادات
لو كان يفرج عنه بعض آونة	قامت بدعوته حتى الجمادات
بحر محيط عهدناه تجيء له	كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفي على آلِ عبادٍ فإنهم	أهلة ما لها في الأفق هالات
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة	كانت لنا بكر فيها وروحات
أرض كأن على أقطارها سرجًا	قد أوقدتهن في الأذهان أنبات
وفوق شاطئ واديها رياض ربى	قد ظللتها من الأنشام دوحات
كأن واديها سلك بلبتها	وغاية الحسن أسلاك ولبات
نهر شربت بعبريه على صور	كانت لها في قبل الراح سورات
وربما كنت أسمو للخليج به	وفي الخليج لأهل الراح راحات
وبالغروسات لا جفَّت منابتها	من النعيم غروسات جنيات

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات، ونفسه تنقسم بين الأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته، وجاءته بها أمنيته، فدفن بـ«أغمات» وأريح من تلك الأزمات، وعطلت المآثر من حلاها، وأفردت المفاخر من علاها ورفعت مكارم الأخلاق، وكسدت نفائس الأعلاق، وصار أمره عبرة في عصره، وصار أبدًا عبرة في مصره، وبعد أيام وافاه أبو بكر بن عبد الصمد شاعره المتصل به، المتوصل إلى المنى بسببه، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى، وظهر كل متوارٍ وضحا، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم، واختيالهم بزينتهم وحلاهم، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه، وخر على تربه ولثمه:

ملك الملوك أسامع فأنادي	أم قد عدتك — عن السماع — عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن	فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعًا	وتخذت قبرك موضع الإنشاد

وهي قصيدة أطال إنشادها، وبنى بها اللواعج وشادها، فانحشر الناس إليه وأحفلوا، وبكوا لبكائه وأعولوا، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج، مديمين للبكاء والعجيج، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم، وأقرحوا مآقيهم بفيض شئونهم، وهذه نهاية كل عيش، وغاية كل ملك وجيش، والأيام لا تدع حيًّا، ولا تألو كل نشر طيًّا، تطرق

رزاياها كل سمع، وتفرق مناياها كل جمع، وتصمي كل ذي أمر ونهي، وترمي كل مشيد بوهي، ومن قبله ما طوت النعمان بن الشقيقة، ولوت مجازها في تلك الحقيقة.

انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح ممَّا يدخل في أخبار المعتمد بن عباد المناسبة لما مر، وكلام الفتح كله الغاية وليس الخبر كالعيان، ولذا قال بعض من عرف به أنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكرهم في كتبه بنثره — سامحه الله — وأخبار المعتمد (رحمه الله) تحتمل مجلدات، وآثاره إلى الآن بالغرب مخلدات.

وكان من النادر الغريب قولهم في الدعاء للصلاة على جنازته «الصلاة على الغريب» بعد اتساع ملكه، وانتظام سلكه، وحكمه على إشبيلية وأنحائها، وقرطبة وزهرائها، وهكذا شأن الدنيا في إغرائها، وقد توجه لسان الدين الوزير بن الخطيب إلى «أغمات» لزيارة قبر المعتمد (رحمه الله) ورأى ذلك من المهمات، وأنشده على قبره أبياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرق من النسيم، وأبهج من المحيا الوسيم.

قلت وقد زرت أنا قبر المعتمد والرميكية أم أولاده — رحمهما الله — حين كنت بمراكش المحروسة بالله عام عشرة وألف، وعمي عليَّ أمر القبر المذكور وسألت عنه من تظن معرفته له، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن، وقال لي: هذا قبر ملك من ملوك الأندلس، وقبر حظيته التي كان قلبه بحبها خفاقًا غير مطمئن، فرأيته في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب (رحمه الله) بالأبيات، وحصلت لي في ذلك المحل خشية وادِّكار، وذهبت بي الأفكار في ضروب الآيات، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته المشهورة:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وهو القائل:

يا نائم الليل في فكر الشباب أَفِقْ فصبح شيبك في أفق النهى بادي
عضت عنانك أيدي الدهر ناسخة علمًا بجهل وإصلاحًا بإفساد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة وعبدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خانتها قوادمها بكوكب في سماء المجد وقَّاد

ومنها:

ومالك كان يحيي شول قرطبة   أستغفر الله لا بل شول بغداد
شق العلوم نطاقًا والعلا زهرًا   فبتن ما بين رواد ووراد

وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة العظة منهم وهي قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي:

تعزَّ عن الدنيا ومعروف أهلها   إذا عدم المعروف في آل عباد
حللت بهم ضيفًا ثلاثة أشهر   بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وهذا يدلك على أن الشعراء لم يسلم من لسانهم من أحسن فضلًا عمَّن أساء، من العظماء والرؤساء، وما أمدح قول أبي محمد بن غانم فيهم:

ومن الغروب غروب شمس في الثرى   وضياؤها باقٍ على الآفاق

وجاء في المطمح حين عرض لذكر المعتمد وبني عباد قوله: «هذه بقية منتماها في لخم، ومرتماها إلى مفخر ضخم، وجدهم المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جو تلك السماء، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم عن أعبق الزهر، وعمروا ربع الملك، وأمروا بالحياة والهلك، و«معتضدهم» أحد من أقام وأقعد، وتبوأ كاهل الإرهاب واقتعد، وافترش من عريسته، وافترس من مكائد فريسته، وزاحم بعود، وهز كل طود، وأخمل كل ذي زي وشارة، وختل بومي وإشارة، و«معتمدهم» كان أجود الأملاك، وأحد نيرات تلك الأفلاك، وهو القائل وقد شُغِلَ عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل:

لقد حننت إلى ما اعتدت من كرم   حنين أرض إلى مستأخر المطر
فهاتها خلعًا أرض السماح بها   محفوفة في أكف الشرب بالبدر

وهو القائل وقد حن في طريقه إلى فريقه:

أدار النوى كم طال فيك تلذذي   وكم عقتني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه   كماة الأعادي في النسيج المسرد

لجردت للضرب المهند فانقضى　　　مرادي وعز ما مثل حد المهند

والقاضي أبو القاسم هذا جدهم، وبه سفر مجدهم، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر، واختصهم منه بالحظ الوافر، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر، عندما أناخت بها أطماعهم، وأصاخت إليها أسماعهم، وامتد إليها من مستحقيها اليد، وأتلعوا أجيادًا زانها الجيد، وفغر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى، وتصدى لها من تحضر وتبدى، فاقتعد سنامها وغار بها، وأبعد عنها عجمها وأعاربها، وفاز من الملك بأوفر حصة، وغدت سمته به صفة مختصة، فلم يمح رسم القضاء، ولم يتسم سمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء، وما زال يحمي حوزته ويجلو غرته، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الآجام، وانتقل إلى ابنه المعتضد وحل منه في روض نمق له ونضد، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه، وتسمى «بالمعتضد» بالله، وارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وتصور أثناء ذلك القل والنهل، وما زال للأرواح قابضًا، وللوثوب عليها رابضًا، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد فاكتحل منه طرف الرمد، وأحمد مجده، وتقلد منه أي باس ونجده، وندى به لحق مناه، وجر رسنه، وأقام في الملك ثلاثة وعشرين سنة، لم تعدم منه فيها حسنة، ولا سيرة مستحسنة، إلى أن غلب على سلطانه، وذهب به من أوطانه، فنقل، إلى حيث اعتقل، فأقام كذلك إلى أن مات، ووارته برية «أغمات».

وكان للقاضي جده أدب غض، ومذهب مبيض، ونظم يرتجله كل حين، ويبعثه أعطر من الرياحين، فمن ذلك يصف النيلوفر:

يا ناظرين ندى النيلوفر البهج　　　وطيب مخبره في الفوح والأرج
كـأنـه جـام در فـي تـألـقـه　　　قد أحكموا وسطه فصًّا من الثبج

(٦) رد الخليفة هارون الرشيد مثل هذا الرد تقريبًا على كتاب للإمبراطور «نقفور».

ملوك الطوائف وعواصمهم

(١) يؤخذ من رواية صحيحة لابن حيان أنني كنت على حق إذ قلت إنه لم يكن لسرقسطة سوى ملك واحد من هذه الأسرة، وهو المنذر، وأن الملك هو الذي قتل سنة ١٠٣٩ وليس ابنه. «دوزي»

الجزء الثاني

نظرات في تاريخ الإسلام

ديانة العرب في الجاهلية

كان كل شيء سائرًا في طريقه المعتادة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي سواء في الإمبراطورية البيزانطية أو الإمبراطورية الفارسية.

ولا جرم كانت هاتان المملكتان في نزاع دائم، سببه الرغبة والطمع في تملُّك آسيا الغربية، وكانتا — في ظاهرهما — مزدهرتين، تُجبى لهما الضرائب والخراج فتمتلئ الخزائن بالمال، وتتضخم ثروة الحكام، حتى أصبح الترف والأبهة — اللذان انغمس فيهما سكان العواصم — مضرب الأمثال.

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهرًا كاذبًا، فقد كان يسري في كيان هاتين المملكتين داء كمين، وظل السوس ينخر في عظامهما دائبًا على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين، هذا إلى ما حدث من الفواجع التي نجمت من تلك الأسرات، وما لعبته من الأدوار المفجعة التي كانت — على الحقيقة — سلسلة متصلة الحلقات من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء.

وثَمَّ رأينا شعبًا يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد، شعبًا جديدًا بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة، بعد أن ظل نهبًا مقسمًا، تناوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى، فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة، ها قد رأيناه يتَّحد ويجمع شمله الشتيت للمرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملك نفسه حب الحرية وساعدته على النجاح صفاته النبيلة، فقد كان متقشفًا في طعامه، مخشوشنًا في لباسه، نبيلًا في أخلاقه، كما كان طروبًا سريع البديهة حاضر النكتة.

ولقد كان شريف النفس أريحيًّا، فإذا استثرته مرة فهو قاسٍ غضوب شرس[1] لا يني عن أخذ ثأره، ولا يرده عن انتقامه شيء.

ذلكم هو الشعب الذي قلب — في لحظة واحدة — إمبراطورية الفرس بعد أن ظل السوس ينخر في عظامها قرونًا عدة، وانتزع من خلفاء «قسطنطين» أجمل ضواحيهم، ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه، وشرع يهدد — بعد ذلك — بقية أوروبا.

بينما كان في ذلك الوقت نفسه يوالي فتوحه وانتصاره في الجانب الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا.

لم يكن ذلك الشعب فاتحًا فحسب — كغيره من الشعوب الأخرى — بل كان داعيًا إلى دين جديد ومبشرًا به أيضًا، كان داعيًا إلى دين جديد، فقام يناوئ الثنوية[٢] الفارسية والمسيحية التي أفسدتها الخرافات والبدع، حاملًا إلى الناس توحيدًا خالصًا لم يلبث أن دان به الملايين من الناس حتى بلغ عددهم في أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها.

ذلك هو الدين الذي أخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفي تاريخه العام، ولعل أول ما يعرض لنا هو هذا السؤال: «ممَّ نشأ؟ وكيف تفرع من الديانة التي سبقته، ثم نما حتى وصل إلى ما وصل إليه؟»

فكيف نجيب على هذا السؤال الذي يجدر بنا الإجابة عليه قبل كل شيء؟ الحق أنني لم أكد أعرض لهذا حتى وقعت في حيرة لا مثيل لها، فقد اعترضتني — حتى في هذه الخطوة الأولى — صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع، وإليك البيان.

إنني — على إجلالي وتقديري لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام، وعلى إعجابي بفطنتهم واجتهادهم — أقرر ولا أرى بدًّا من المصارحة: أن هذه البحوث الطريفة لا تكفيني قط، لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل؛ لذلك رأيتني مضطرًّا إلى إعادة البحث — من جديد — سالكًا طريقًا أخرى مخالفة لما نهجه غيري من الباحثين إلى اليوم، وقد وصلت إلى نتيجة، أنا أول المدهوشين لها، وليس في وسعي أن أسردها في بضع صفحات، إلا أنها — في جوهرها وأساسها — مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطرها وأهميتها.

ولما كانت نتائج بحوثي مناقضة — على طول الخط — كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها، والعلم يقضي على الإنسان، ألا يلقي للناس قضايا مسلمة لا يدعمها

برهان، ولا تقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة، والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية.

والدعاوى — ما لم يقيموا عليها بينات — أصحابها أدعياء!

ولما كانت المصادر الأصلية التي أعنيها هي مصادر أجنبية بالنسبة لقارئ هذا السِّفر[٣] رأيتني مضطرًّا إلى تفصيل ذلك الرأي في سِفر مستقل آخر.[٤] ولكن ماذا نصنع الآن في هذا الفصل؟

إما أن نجتزئ ببعض الآراء التي وصلتنا، مبدِّلين فيها رغبة في أن نوائم بينها وبين آرائنا الخاصة، فهذا محال؛ لأن منهجين متباينين من مناهج البحث لا سبيل إلى التقائهما والتوفيق بينهما، هذا فضلًا عن عقم هذه الطريقة التي لا غناء فيها، فليس ثَمَّ أية فائدة من تعرف جزء من الحقيقة.

لذلك أعملت الفكر، فلم أجد إلَّا مخرجًا واحدًا من هذا المأزق، هو أن أتبع الفكرة المقررة، مقتصرًا على سردها وذكر ما وصل إليه الباحثون من النتائج في هذا الصدد، لا سيما «سپرنجر» أقرب الباحثين وأوفاهم درسًا واستيعابًا للتاريخ الإسلامي وترجمة النبي.

على أنني جدير أن أقرر — منذ الآن — في أسلوب صريح لا يحتمل لبسًا ولا تأويلًا، أنني إن استطعت بهذه الطريقة أن أرفع عن عاتقي عبء التبعة والمؤاخذة، بما أقرره في هذا الفصل من وصف الحال الدينية التي كان عليها العرب في القرن السادس الميلادي، فلن يكون ذلك شأني فيما أقرره في بقية الفصول.

وقد دفعتني هذه الاعتبارات السابقة، كما دفعني غيرها من الأسباب التي لا يصعب على القارئ فهمها إلى الاقتصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى ما في قدرتي من الإيجاز الذي التزمته في تبيان ديانة العرب الأولى ونشأتها في بلادهم، فلم أجِدْ عن هذا الشرط قيد أنملة.

ديانة العرب الأولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى — هو الله (تعالى) — ويعتقدون أن له ذاتًا لا كذواتهم وأنه محيط بالعالم، وما يحويه من كائنات — هو بارئها — وإن اختلفت حظوظها من الطاعة والعصيان، وكانوا يدينون بأنه خالق السموات والأرض.[٥] وأنه الذات المنزهة التي لا حَدَّ لحكمتها، ولا يمارون في أنه مدبر العالم، وأنه هو الذي يرسل عليهم المطر من السماء:[٦]

كانوا يعتقدون هذا ويعتقدون أيضًا أن ليس له كهان ولا هياكل، كتلك التي خصوا بها أوثانهم.

العرب والجن

فإذا تركنا ذلك إلى سواه رأيناهم يعظمون الجن ويمجدونهم، وقد دفعتهم إلى ذلك صحاريهم وجبالهم التي كثيرًا ما يضلون فيها أسابيع كاملة، فيتمثلون رؤية هذه العوالم الغريبة، ويُثَبِّتُ في نفوسهم هذه التصورات ما يكابدونه فيها من ألم الجوع والعطش، وما يحتملونه من شمس الصحراء المحرقة، وهوائها اللافح، وسوافيها المهلكة، هذا إلى ما يعانونه من تقلبات الجو الفجائية، حتى ليصل بهم الروع إلى حد أن يتخيلوا أنهم يسمعون أصوات الجن ويبصرون ذواتهم في أشكال عدة، وعلى صور شتى، منها السخيف ومنها المعجب،[٧] وكانوا يعتقدون بأن أجسامهم تشغل جزءًا من الفضاء — كما تشغله أجسامنا — وأنهم ينتشرون، ولكنهم يختلفون عنا في تكوينهم؛ لأنَّ أجسامهم مخلوقة من النار أو الهواء،[٨] ومن ثَمَّ لا تراها العين الإنسانية إلا شذوذًا، وفي قدرتهم أن يأتوا كثيرًا من ضروب الشر والخير، ومن كانوا كذلك فقد وجب عليهم أن يتحببوا إليهم ويمجدوهم ويقدسوهم، وممَّا سهل عليهم الوصول إلى تحقيق هذه الغاية اعتقادهم أن لكل جني موطنًا خاصًّا به.

فهذا في حجر وذلك في نصب وثالث في شجرة.[٩]

وكانت تجمع قبيلة — أو عدة قبائل أحيانًا — على تمجيد جني بعينه، وتكل العناية به إلى أسرة بعينها منوط بها أمرُ رعايته وتلبية رغباته، وكانت هذه الفئة تقوم بحراسته وتعظيم شأنه، سواء في الحجر أو الشجرة أو الصورة التي تمثِّله، كما تؤدي له حقَّه من المراسيم الكهنوتية والطقوس الدينية التي تقيمها في محرابِه، وربما سمع

لذلك النصب صوت — كما يحدث ذلك في كثير من الأحيان، ومن الواضح أن الكهنة القائمين بحراسة الوثن قد مرنوا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتكلم، وكان لكل منها صوت خاص به يميزه عن غيره، وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التي يعزونها إلى أوثانهم.

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنمها، وتشيد بذكره، وتفرده بأقصى ما تستطيع من حب، لأنها ترى فيه نوعًا من الملكية، وكان الكهان ينضحون عنه، ولا ينون في طلب القرابين لذلك النصب، وإن كانوا — على الحقيقة — يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغانم لهم باسم الله (تعالى).

هذا ما نستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن، وأقوال المفسرين على وجه الإجمال، على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا في درس ترجمة حياة النبي يعزون ذلك إلى قبيلة «خولان» وحدها، وهي التي كانت تقطن اليمن في ناحية منه تعرف باسمها.

وكان من عادتهم، حين تقدم القرابين إلى الآلهة — وهي من البر أو الفصال[١٠] — أن يقسموها قسمين، أحدهما وقف على الله، وهذا من نصيب المعوزين وأبناء السبيل الذي يحلون ضيوفًا على أهل القبيلة، والآخر وقف على النصب، وهو من نصيب الكهنة وحدهم.

فإذا وقع في القسم الأول — بطريق المصادفة — بعض النفائس، استأثروا به وجعلوه من نصيب الوثن، ووضعوا مكانه النصيب الأدنى لله.[١١]

ولكن ما علاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله،[١٢] وأن مثلها منه كمثل الفروع من الأصل تمامًا، فهي تحكم الناس كما يحكم حاكم الإقليم بعد أن يخوله مليكه سلطان الحكم، وثمة كانوا يرون في تلك الأرباب وسائط بين الناس وبين الله.[١٣]

مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة في أواسطِ بلاد العرب، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي، في وادٍ رملي شديد الضيق، حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبع مئة خطوة — أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مئة خطوة — وتكتنفه جبال جد عارية يتراوح ارتفاعها بين مئتي قدم وخمس مئة.

في هذه المدينة المحراب الذي يفخر به كل من يملكه ويقع في حوزته، ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن[١٤] وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير، وإن جدد وأُعيد بناؤه عدة مرات، وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصقل، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخللها الملاط، وقد غطيت بريطة[١٥] أو بقطعة من القماش، أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل، وأما مساحتها فتبلغ مئتي قدم.

وكان هبل[١٦] اسم الصنم الكبير الرئيسي بين أصنامها، منذ النصف الأول من القرن الثالث، وهو تمثال عقيقي[١٧] جلبه من الخارج بعض الرؤساء،[١٨] وكان هُبَل في ذلك العهد ربًّا لقبيلة قريش، أما الكعبة نفسها فلم تكن ملكًا للقرشيين، بل كانت — على الحقيقة — ملكًا مشاعًا لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة، وكان للكعبة صبغة عالمية عندهم.

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذي تعبده في ذلك المحراب الكعبة حتى بلغ عدد الأرباب التي بها ثلاث مئة وستين ربًّا، وكان التسامح الديني سائدًا، وقد وصل بهم إلى أعظم حدوده، فقد كنت ترى في الكعبة — زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام — صورة إبراهيم الخليل وصورة الملائكة، وصورة العذراء مع طفلها عيسى.

الحجر الأسود

على أنهم كانوا لا يقدسون شيئًا، كما يقدسون الحجر الأسود وهو الحجر الذي يزعم المسلمون أنه كان أول أمره أبيض، ثم اسودَّ من توالي الحريق الذي حدث في الكعبة، وقد لعب هذا الحجر فيما بعد — في قابل الإسلام — دورًا خطيرًا في التاريخ الإسلامي، ولا زال يعده المسلمون — حتى أيامنا هذه — حجرًا مقدسًا، وسنذكر في بعض الفصول التالية بعض أقاصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر.

وقد وصفه لنا بعض السائحين الأوروبيين الذين شاهدوه، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركاني، تلمع في أنحائه نقط بلورية، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يطلقون عليه اسم «فيلسبار» لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قاتمة، وتارة أسمر يميل إلى السواد.

وقد تعاورته ظروف مختلفة، فكسر أكثر من مرة حتى غدا في هذه الأيام مؤلفًا من اثنتي عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض، والكثيرون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء.

أما احترامهم الكعبة، فقد بلغ بهم حد التقديس[١٩] وزاد إجلالهم لها، فقدسوا ما جاورها من البقاع — التي خلعت عليها الكعبة مسحة القداسة — وثم أصبح ما يكتنفها — إلى بُعد عدة فراسخ — حرامًا لا يجوز لكائن من كان أن يفتك بسواه فيها، أو يصطاد من حيوانها احترامًا لها.

ويؤم الكعبة في كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء، لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها.

عبادة الأصنام[٢٠]

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول في القرن السادس من الميلاد، ودب فيها الفساد وتغير جوهرها، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام — التي يمجها العقل — تدين بها طائفة من المبطلين.

قال أحد معاصري محمد ﷺ:[٢١]

> «كنا — إذا عثرنا على حجر جميل — عبدناه، فإذا عزَّ علينا أن نجده، أنشأناه من الرمل إنشاء، ثم سقيناه لبن ناقة درور مدة من الزمن، ومتى تم لنا ذلك عبدناه، ثم لا نزال نفعل ذلك ما دمنا في ذلك المكان!»

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت — على العكس من ذلك — على جانب عظيم من الرقي والحضارة، فلم يكن عندهم عقيدة في أرباب هي من صنع أيديهم، من الحجارة أو الخشب!

ولقد كان الناس — في ظاهر أمرهم — يمجدون تلك الأرباب، ويحجون إلى محرابها، ويحتفون بمواسمها السنوية، ويذبحون القرابين في هياكلها، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التي يعبدونها، سواء أكانت من الحجر أم من الخشب، بل لقد كانوا يلجئون إليها كلما حزبهم أمر، ليلتمسوا منها البركات، ويكتشفوا بوساطتها مستقبل أمرهم الغامض.

على أن عقيدتهم فيها لم تزِد على هذا القدر من المظاهر، أما فيما عدا ذلك، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها، أو إذا جرؤت على إذاعة شيء يكرهونه ويخشون إذاعته ممَّا اقترفوه من الدنايا.

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قربانًا له إذا تكشفت غمته، فلا يكاد يزول عنه الخطر[٢٢] حتى يستبدل النعجة — وهي قيمة عنده — بغزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده، يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعجة والغزال![٢٣]

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم، ما لم توافق رغباتهم، وتعبر عمَّا يقصدون إليه من التفاؤل، بما هم قادمون عليه من الأمور.

يؤيد ذلك أن أعرابيًّا اعتزم أن يثأر لأبيه ممن قتله، فأتى «ذا الخلصة»[٢٤] وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض — ليستشيره فيما هو قادم عليه — وبدأ يقترع — على عادة العرب في ذلك — فرأى في السهم الأول أمرًا بالمضي في طريقه، وفي الثاني نهيًا عن ذلك، وفي الثالث أمرًا بالانتظار والتريث، فلم ترضه هذه النتيجة، وأعاد الكرة مرة بعد أخرى، فكانت النتيجة واحدة في المرات الثلاث، فغضب وألقى بالسهام في وجه الصنم وقال له: «مصصت بظر أمك، لو كان أبوك قتل ما عوَّقتني!»[٢٥]

كذلك كانوا يغضبون لأتفه الأسباب، وكلما تعارضت أوامرها مع رغباتهم، ولم تعبر عمَّا يودون سماعه من الكلام، انهالوا عليها بالسباب والتحقير.

وأقبل رجل من بني ملكان[٢٦] على سعدصنم قبيلته المعبود — وهو صنم في الصحراء — وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه يريد التبرك به، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العتائر[٢٧] — حسب عادتهم — نفرت الإبل وولَّت هاربة، فغضب صاحبها، وتناول حجرًا، فرمى به وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت عليَّ إبلي.» ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعدليجمع شملنا فشتتنا سعدفلا نحن من «سعد»
وهل سعدإلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد؟

وكان بنو حنيفة أنفسهم أقل الناس احترامًا لآلهتهم، إذ كانوا يأكلونها، ونحن جديرون أن نقرر عذرهم في ذلك، فقد كانوا يصنعون آلهتهم من نوع — بعينه — من العجوة ومن اللبن والزبد، فلما وقعوا في قحط ومجاعة أكلوها.

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد في تلك الأرباب اعتقادًا جديًّا، فقد كان أكبر شيء يحترمونه هو الله (تعالى)، على أن الله لم يكن له عندهم أيضًا عقيدة قوية راسخة في قرارة نفوسهم؛ لأنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئًا كثيرًا، إذا لم يكن له كهان يدعون الناس إليه، ويرغبونهم في عبادته وطاعته، ويذيعون إرادته ويوضحون لهم ما قدره من خير وشر.

عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة، كانوا شديدي الاختلاف، فمنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة، ويدين باليوم الآخر، ولا يقف عند حد الاعتقاد في بعث الإنسان، بل يدين ببعث الحيوان أيضًا.

ومن ثَمَّ كان يدفن راحلته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره، ليركبها يوم القيامة، فلا يتكبد عناء السير على قدميه.

على أن سوادهم كان يستهزئ بفكرة البعث ويسخر منها، وكانوا يدينون في كل مكان برأي القائل:

حياة، ثم موت، ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

وليس في هذا موضوع للعجب، فإن هذه الفكرة — فكرة البعث — لمحببة إلى نفوس الآريين، شديدة الغرابة عند الساميين، وآية ذلك، أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم،[٢٨] إن لم نقل في أوائل التاريخ الميلادي، على أن جماعة الصدوقيين نفسها — وهي كبيرة العدد — قد رفضت فكرة البعث، ولم تقبلها قط.[٢٩]

كذلك لم يلق محمد ﷺ مقاومة جدية من العرب إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها، وما زال البدوي — إلى أيامنا هذه — لا يعنيه أمر البعث، ولا يكترث له.[٣٠]

المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية، لا ترتكز على أساس متين، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينًا آخر — غير دينهم هذا — فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلًا.

وهذا كلام صحيح، ولكن إلى حد ما؛ فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه في جهتين، انتشرت في بلاد الحبشة — جنوبًا — وفي سوريا — شمالًا — حيث لقيت شيئًا من القبول، وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية، كما تنصَّر عرب سوريا، وأصبح علم النصرانية خفاقًا على كثير من الأديرة والكنائس.

على أن هذا النجاح كله لم يكن — في أي مكان تقريبًا — إلا مظهرًا من المظاهر لا حقيقة من الحقائق.

أما في أواسط بلاد العرب، وفي قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربي القح وأرومته، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحي، ولم نكن لنرى ثَمَّ إلا أثرًا ضعيفًا له — إن لم نقل — معدومًا.

وكانت المسيحية في ذلك الزمن — على وجه عام بما تحويه من معجزات، وبما فيها من عقيدة التثليث، وما يتصل بذلك من رب مصلوب — قليلة الجاذبية، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي.

وآية ذلك ما تراه واضحًا فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة — حوالي عام ٥١٣ من الميلاد — وإن المنذر ليصغي إلى ما يقولون بانتباه، إذ دخل عليه أحد قواده، فأَسَرَّ إليه بضع كلمات، ولم يكد ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق، فتقدم إليه أحد القساوسة يسأله متأدبًا متلطفًا عمَّا أشجاه، فأجابه الملك: «يا له من خبر سيئ! لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات، فوا حسرتا عليه!»

فقال القسيس: «هذا محالٌ أيها الأمير، وقد غشَّك من أخبرك بذلك، فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء!»

فأجابه الملك: «أحق ما تقول؟ وتريد أن تقنعني بأن الله ذاته يموت؟»

أما حظ اليهودية في اجتذاب العرب إليها، فهو أكثر من حظ المسيحية، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الإمبراطور «أدريان» الذي ثاروا عليه، فألحق بهم الأذى، وشتت شملهم، فوجدوا في بلاد العرب ملجأً لهم، وبثوا دعايتهم فيها، فدان باليهودية قبائل عدة من سكان الجزيرة العربية.

ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهودون الذين أخلصوا لليهودية حقًّا، وقد صارت اليهودية نفسها — في زمن ما — دين اليمن الرسمي.

على أنها ضعفت — على مرور الزمن — وقل إقبال العرب عليها؛ لأن اليهودية لا تلائم إلا شعبًا مختارًا، أما أن تكون دينًا عامًّا للناس قاطبة فلا! ذلك أنها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التي تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس، وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد!

وليس من أصالة الرأي أن نقول إن سواد العرب كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر، فإن العربي — ذلك البدوي الحر كما سنراه في كثير من المناسبات التي ستتيحها لنا الفرص أثناء دراسته — ليس متدينًا بطبعه، كما أن كل محاولة بذلت في سبيل جعله كذلك كان نصيبها الفشل التام.

فالعربي رجل عملي مادي، لا يُعنى بغير الحقائق حتى في شعره، فهو لا يسبح في الخيال والوهم، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية، التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيل أكثر من اعتماده على التعقل.

إن ديانة العرب التي ألفوها، لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم، بل كانت ضعيفة الأثر، قليلة الخطر، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال، فإذا كان من الحق علينا أن نعترف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب، فمن الحق علينا أن نقرر أيضًا أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافيًا للقضاء عليها.

والحق أن أحدًا لم يكن مضطرًّا إلى العقيدة، فقد كان البدو لا يبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التي يعبدونها، ولا يترددون في إلحاق الأذى والضرر بها، بقلوب جد مغتبطة، بيد أن القضاء — بعد كل هذه الاعتبارات — على عبادة يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل، كان يثير في نفوسهم كبرياءهم القومي، أنفة من أن يتركوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار.

وجماع القول أن الديانة كانت في نظر العربي القديم — كما هي في نظر البدو في أيامنا هذه — أمر لا خطر له، وآية ذلك أن شعراء الجاهلية لا نكاد نراهم يذكرون دينًا أو عقيدة في أشعارهم، ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — إذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة — إلا عبارات مقتضبة، لا تكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة.

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة، ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل وراء الطبيعة، وكان مؤمنوهم يتابعونهم في ذلك الشعور ويصدرون عنه.

ومع كل هذه الاعتبارات، فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ — شأن كل قاعدة — فإن وجود جماعات شتَّى من متألهي العرب الذين يدينون بوحدانية الله وإن اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم — لِتَدَيُّن بعضهم باليهودية أو المسيحية — كان أمرًا له خطره عند العرب، وله أثره في نفوسهم، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتئون يبثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب.

الحنيفية

ومن ثَمَّ رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائلَ وآثارًا لإيمان عميق بوحدانية الله، ورأينا منهم شعورًا يقظًا بالتبعة المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر، وهذه الفئة — التي ترى هذا الرأي — هي طائفة الحنفاء،[٣١] وقد كانوا في شتى الأنحاء، لا تربطهم أية آصرة، ولا يضمهم مذهب بعينه كما يفعل الصائبة المنتسبون إلى إبراهيم الذين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضًا!

وكان لهاتين الطائفتين — من الحنفاء — رأي واحد في رفض اليهودية والمسيحية معًا، والاعتراف بدين «إبراهيم»، وإبراهيم هذا — الذي عرفوه من اليهود والنصارى — هو الأصل الذي ينسبون إليه، فهو والد جدهم إسماعيل وهو الذي بنى الكعبة في مكة.

وكانت شريعته الحنفاء سمحة رشيدة، واضحة المحجة، سهلة الإقناع لهؤلاء العرب العمليين — وهي في جوهرها — صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة، ولم ينقصها لبلوغ هذه الغاية إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة، وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية، وأن تكون منزلة من السماء، أو تفهم على أنها كذلك.

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد ﷺ على عاتقه القيام به ليتمم نقص الحنيفية، ولكن هذا العمل — على ما فيه من صعوبة — قد ضوعفت مصاعبه؛ لأن العرب لم يكونوا في غير حاجة إلى الدين فحسب، بل كانوا — إلى ذلك — ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسمها، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعميات التي تتصل بما وراء الطبيعة.

ولا بد من إقناع جازم ويقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات.

بعد وفاة النبي

(فصل آخر من كتاب: «الإسلام» لدوزي)

مات النبي ولم يترك ولدًا له، ولم يعين خليفة يخلفه، فكانت الساعة غاية في الحرج، وأصبح كيان الإسلام نفسه مهددًا نهب الحوادث والظروف، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخلصين، وكأنما أصابتهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع، وكان الناس قسمين: قسمًا يحسبه خالدًا لن يموت، وقسمًا لا يتوقع موته بهذه السرعة، بل يؤمل له حياة طويلة وعمرًا مديدًا، وكان عمر — خاصة — ممن يؤمل هذا الأمل.

وبعد أن مات النبي، وأسلم آخر أنفاسه بزمن يسير، دخل عمر مخدع عائشة فرفع الغطاء — الذي كانت جثة النبي مسجاة به — وتأمل محيًّا سيده مليًّا — وهو في نومته الأبدية — فرأى كل شيء هادئًا، ونظر إلى ما حوله فرأى سكونًا طبيعيًّا، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع، وصاح: «كلا لم يمت النبي، بل هو في غيبوبة!»

وكان المغيرة حاضرًا، فحاول عبثًا أن يرشده إلى خطئه، فقد صرخ فيه عمر: «كلا، بل تكذب، إن رسول الله لم يمت، ولكن خبث طويتك وفساد نفسك الشريرة قد أدخلا في روعك هذا الوهم الخاطئ، ولن يموت النبي قبل أن يقضي على المنافقين، ويبيد أهل الشرك.»

ثم ذهب عمر من توِّه إلى المسجد، فصاح فيمن تجمهر من الناس: «لقد زعم الزاعمون، وأرجف المرجفون، أن محمدًا قد مات، وبئس ما يتقوَّلون، ألا إن محمدًا لم يمت وإنما ذهب للقاء ربه، كما فعل موسى إذ غاب عن قومه أربعين يومًا، ثم رجع إلى

أصحابه بعد أن يئسوا من عودته، ووالله ليعودن النبي كذلك، ثم ليعاقبن كل من اجترأ على قول هذا القول!»

ولم يكد يسمع الحاضرون قوله حتى أمَّنوا عليه، ولا غرو في ذلك، فقد كانوا — إلى زمن يسير جدًّا — يرون محمدًا في نفس المكان الذي يخطبهم فيه عمر فلم يكن أحب من تصديق ما يقوله عمر.

وجاء أبو بكر في هذه اللحظة فاخترق المسجد، وأصغى هنيهة قصيرة إلى كلام عمر المتأجج عاطفة وحماسة، ثم أسرع إلى مخدع عائشة ووقف أمام جثة النبي أيضًا، فرفع الغطاء عنها، وقبَّل وجه صاحبه — وهو مستغرق في نومته الأبدية — ثم صاح قائلًا: «طبت حيًّا وميتًا.»

ورفع رأس النبي بتؤدة وأناة، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذي طالما تملَّى به من قبل، ثم قال: «نعم، لقد مت، فوا أسفاه عليك أيها الصديق المحبوب، بأبي أنت وأمي، فقد قاسيت من غمرات الحِمام ما قاسيت، وتجرعت من غصص الموت ما تجرعت، وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذه الكأس مرة أخرى!»

ثم وضع رأس النبي برفق — على وسادته — وقبل رفيقه مرة أخرى، ثم سجاه بغطائه ورجع — أدراجه — إلى المسجد، فوجد عمر لا يزال يتأجج حماسة، وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت، فصاح فيه: «حسبك يا عمر! هدئ من ثائرتك واجلس حيث أنت!» فلم يصغ إليه عمر وطفق يخطب الناس، فولَّى أبو بكر وجهه شطر الناس، فأقبلوا عليه، وتركوا عمر فقال لهم أبو بكر: «أما قال (تعالى) — في محكم آياته — لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؟

أما قال (تعالى) في آية أخرى — بعد موقعة أحد ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؟

ألا إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!»

وكأنما كان الناس في حلم، أفاقوا منه بعد ما سمعوه من قول أبي بكر، فقد ذهل الناس من فداحة الخطب عن هذه الآيات القرآنية حتى إذا ذكرهم بها أبو بكر الرزين أيقنوا جميعًا أنهم لن يروا النبي بعد.

انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لا بد من حلها، وهي أن محمدًا قد مات، ولم يعين من يخلفه، فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم، ولكن من الذي يعين هذا الأمير؟

أيعيِّنه كل المسلمين؟ هذا حسن، فهل من سبيل إلى تحقيقه؟

لقد كان الوقت عصيبًا، وكان من السهل أن يرى الإنسان أمامه أزمة رهيبة وشيكة، وجمهرة من القبائل لن تلبث أن ترتد عن الإسلام؟ إذن يتعين أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التي لها الصدارة والسلطان بين قبائل العرب قاطبة، وثَم اجتمع الأنصار «أهل المدينة» الذين عزَّ بهم الإسلام وانتصر، فمن يختارون؟

لا مجال للتردد والحيرة، فأمامهم الفارس النبيل سعد بن عبادة رئيس «الخزرج»، وقد كان من الطبيعي المألوف أن يختاروه — ولم يكن حينئذٍ قد تم شفاؤه من مرض خطير كان قد أَلَمَّ به — فحملوه مُدَثَّرًا مُدَوَّجا إلى جمهور المدنيين، وكان ضعيفًا من أثر المرض، فلم يستطع إبلاغهم صوته، فقام أحد أصحابه يردد ما يقول.

وقد ذكر سعد بن عبادة أصحابه بأنهم أول من دخل الإسلام من القبائل، وأن نصرته لم تتم إلا بهم بعد، وأنهم لذلك جديرون بالزعامة على العرب قاطبة.

فقابلوا كلامه بالاستحسان والتحبيذ، وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة، ونادوا به — في الحال — خليفة لرسول الله، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض المهاجرين هذا الرأي، وعدم رضائهم عنه، فأجابهم أصحابهم: «لا علينا من ذلك، سنقول لهم حينئذٍ: لقد اخترنا لنا أميرًا، فاختاروا لكم أميرًا، وافترقوا عنَّا، فلن نذعن — بحال ما — لغير أميرنا الذي اخترناه.»

ولم يكد يبلغ أبا بكر هذا النبأ، حتى أقبل عليهم بأقصى ما في قدرته من سرعة — ومعه عمر وأبو عبيدة — وما كادوا يصلون، حتى انبرى عمر للكلام، فمنعه أبو بكر — وله كل الحق فيما فعل — خشية من تحمسه واندفاعه، وقال له: «تريث حتى أتكلم، ثم قل ما شئت بعدي؟»

وبدأ أبو بكر يخطب الناس — بكل تواضع — فاعترف للمدنيين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام، ثم أظهر لهم — إلى هذا — جدارة المهاجرين بالخلافة، لقرابتهم من الرسول وكونهم من أسرته، ثم لأنهم أول من دان بالإسلام، وقد لقوا في سبيله ألوانًا من العسف، وضروبًا من النكال، واحتملوا ذلك كله صابرين.

ثم قال: «فأنتم تلوننا في هذه المرتبة، فليكن الأمير منَّا، والوزراء منكم.»

فأجابوه: «بل منا أمير، ومنكم أمير!»

فصاح عمر: «كلا، ومحال أن نولي أميرين، ولن تعترف العرب بمن تختارون، فليس نبيهم من قبيلتكم، ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريبًا للنبي، ومن رفض ذلك، أرغمناه على قبوله إرغامًا.»

وحمي وطيس الكلام، وكاد اللجاج ينقلب خصومة، لو لم يقل لهم أبو عبيدة: «لقد كنتم أول ناشر للإسلام، وأول معين للنبي، فلا تكونوا الآن أول ساعٍ في التفرقة، وتشتيت الوحدة الإسلامية!»

وهنا قام «بشير» — قريب «سعد» ومنافسه — فقرر ما للمهاجرين المكيين من الحقوق في أعناق المسلمين، فأثر كلامه في نفوس فئة من «الخزرج»، ولكن الأثر لم يبلغ أشده، إلا في نفوس القبيلة المدنية الأخرى، وهي قبيلة «الأوس» بسبب ما كان بينها وبين قبيلة «الخزرج» من نفور قديم، جعلهم لا يرتاحون إلى «سعد»، ولا يرضون به أميرًا عليهم، وكانوا — منذ لحظة — يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة، فلما سمعوا كلام أبي عبيدة ثبتوا على رأيهم وظاهروا المهاجرين على الأنصار.

وبذلك سنحت فرصة ملائمة، فأسرع أبو بكر إلى انتهازها وأمسك بيده عمر وأبا عبيدة، داعيًا المدنيين إلى اختيار واحد منهما لمبايعته بالخلافة، فصاحا في نفس واحد: «بل أنت خير منَّا، فامدد يدك نبايعك، ونقسم لك على الخضوع والطاعة.»

وامتدت بين يديهما يد ثالثة إلى يد أبي بكر، وهي يد بشير الذي أسرع بمبايعته معهما، ثم نهج «الأوس» منهجه، وأقبل المسلمون يبايعونه أفواجًا، واشتد الزحام، وعلت صيحات الفرح، فاختلطت بأصوات الدهشة، وأراد حباب الخزرجي أن يناوئ الدعوة، فصرخ مهددًا بالحرب، واستل سيفه، فانتزعه عمر من يده.

ورأى سعدآماله في الخلافة تتبدد هباء، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد أصبح سعدنفسه في خطر حين تكأكأت عليه الجموع، فكادت تسحقه — وهو في محفته التي كان محمولًا عليها — وعبثًا حاول أصحابه أن يقنعوا جمهرة المسلمين بوجوب احترامه، فإن عمر نفسه لم يتورع عن إهانته، ووصفه بأقبح النعوت — على الرغم من أنه خصم أعزل جليل القدر — وقد تداركه أبو بكر فصد هذه الجموع عنه، وأنقذه من أذاهم وشرهم.

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة — خليفة النبي — وسط هذه الفوضى الشاملة كما اعترف بهذه الحقيقة عمر نفسه، على ملأ من الناس في المسجد المدني فيما بعد، وقد كسب المكيون بهذا الفوز أمرين: «زعامة العرب، وحسن اختيار الخليفة.»

فقد ولَّوا أمورهم رجلًا كان أخلص صديق لنبيهم، ولو ترك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول، فقد لا يختار سواه؛ ذلك أنه جمع — إلى حبه الرسول — متانة الإيمان، وقوة اليقين، وصدق العزيمة في إعزاز الإسلام ونصرته، وبهذه الصفات نجح أبو بكر في التغلب على المصاعب والعقبات التي كانت تكتنفه، وفي الحق أن الوقت كان عصيبًا، وكانت الظروف غاية في الحرج، فقد كان موت النبي — الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر — مؤذنًا بالثورة في كل مكان، ولقد كنت ترى الثائرين — حيثما ذهبت — رافعين علم الثورة والتمرد، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان، حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم.

وكان لا يمر يوم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها.

فكيف يقاومهم أبو بكر وليس لديه جيش يحاربهم به، بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذًا لأمر النبي برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذٍ، فقال لهم: «لن أخالف ما أمر به النبي، ولو أصبحت المدينة نفسها نهبًا للثائرين والمتمردين، ولا بد لي من تحقيق مشيئته!»

ومن ثَمَّ ترى الخطر العظيم باديًا، على أنه — على الحقيقة — خطر أقل مما تدل عليه ظواهره، فإن قوة الخصم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدة ورجال، بل بما عنده من قوة معنوية، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها، باذلًا في سبيلها النفس والنفيس.

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرام الحرب؟ أهو إيمان وثيق متوشج في أعماق قلوبهم، كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبل البعثة؟ لو كان ذلك، لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم!

ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، فإنهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله.

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الإتيان بجلائل الأعمال، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال، فقد كان رؤساء القبائل المتمردة — أنفسهم — شاعرين كل الشعور بضعف المعنوية، فلجأ إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوة، فادَّعَوُا النبوة! وخيل إليهم أن محمدًا لم ينجح إلا بهذه الفكرة، فأرادوا تقليده.

ولكنهم نسوا أمرًا واحدًا — هو سر نجاحه في بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمنًا بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم، وهذا هو الذي يعوزهم وبغيره لا يتم نجاح.

وكانت تلك الثورة الهائلة، وتلك الحرب الشعواء — على ما أريق فيهما من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون في غزواتهم التي عز بها الإسلام — ظاهرة سخيفة مضحكة، يتمثل فيها الإنسان — عن غير قصد — كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية التي مثلها النبي وأصحابه مهزلة وعبثًا!

ألا ترى مسيلمة الذي مثل دور النبي في اليمامة؟

ألا ترى ذلك الدجال السوقي التعس، ذلك المشعوذ السمج الذي لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة؟ ألا تراه ينشئ قرآنًا سخيفًا يقلد به محمدًا، ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمور أنى شاءوا، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ، فتحاصره «سجاح» وتنازعه النبوة؟

أما «سجاح» هذه فقد كانت مسيحية نشأت في بلاد النهرين وجاءت تبث الدعوة لنفسها — على رأس جيش عظيم — فماذا يصنع مسيلمة؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريقة المسالمة — وقد فعل — فأرسل إليها هدايا فاخرة، ودعاها إلى محادثته، وطال بينهما الحوار.[1]

ولما عادت «سجاح» إلى قومها سألوها عن رأيها في مسيلمة فقالت لهم: «لقد رأيته نبيًّا حقًّا فتزوجت منه!»

فسألها التميميون: «وهل أهدى إلينا شيئًا من مهر الزواج؟»

فقالت: «لا». فقالوا لها: «عارٌ علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر! ولن نقبل ذلك بحال ما!»

فأرسلت إليه بذلك — وكان مسيلمة خائفًا متحصنًا — فلما جاءه الرسول لم يأذن له، حتى عرف الغرض الذي جاء من أجله، فاطمأن إليه، وقال له: «عد إلى

قومك، فأخبرهم أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد رفع عن التميميين — من الصلوات الخمس — صلاتي الصبح والعشاء.» ولقد فرح التميميون بذلك، وساروا عليه حتى بعد أن عادوا إلى الإسلام من جديد.

ومن ثَمَّ ترى أن هؤلاء التائبين، ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الإيمان قوي الإرادة، صلب العزيمة، لا يعرف هوادة — في إرغام أنفوهم — ولا رحمة! ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه، فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل — أو ضمن حيادهم على الأقل — فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم، على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم، فرفض رأيهم بإباء شديد، وقال لهم:[٢] «إن الإسلام قانون واحد لا يتجزأ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر.»

وقد كان هذا الإصرار الحازم، وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سببًا في منحه قوة أكبر ممَّا نتصور.

ولم يكد ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له، حتى بدأ يهاجمه طلحة الذي كان بطلًا من قبل، وقد جاء يدعي النبوة كغيره، ثم يجبن عن دخول المعركة، فيرقب الحرب — وهو بعيد عن الميدان — مدثرًا في عباءته، كأنما يؤمل أن ينزل وحي من السماء، أو تحدث معجزة خارقة، وقد ترقب ذلك زمنًا طويلًا، ثم وقعت المعجزة؛ إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام، وحينئذٍ صاح في جنده: «احتذوا حذوي إن استطعتم.» ثم امتطى جواده، وأطلق له العنان، وأمعن في فراره.

وكانت تلك المعركة التي اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة، وفي الحق أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب، كانت أكثر ممَّا أريق في تلك الحروب الطاحنة التي نشبت فيما بعد بين المسلمين والفرس ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية، وقد اقترف العرب من الفظائع في هذه الحرب «حرب الردة» شُنَعًا لم يعرفها الإسلام قط، فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به، لأن الردة جزاؤها القتل، لا هوادة في ذلك ولا رحمة، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله: «عليك بإبادة الكفرة بالحديد والنار، ولا تأخذنك فيهم رحمة قط.»

ولقد انهزم أصحاب مسيلمة — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزقهم المسلمون شر ممزق، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء!

ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة في كل مكان — مؤيدًا منصورًا، ودان به العرب بعد ذلك — طوعًا أو كرهًا — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الإسلامي، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن، فاعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لا تجدي معها أي مقاومة.

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار أبي بكر حتى وجَّه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء، إلى مهاجمة فارس والإمبراطورية الرومانية، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها جرأة وتهور، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل.

وإنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي التي كان يتبعها، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم، ولا يدع لهم وقتًا كافيًا لذلك، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية، وما يجره ذلك من الغنائم.

وهكذا انتهت حروب الردة، ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة، فقد كان عقاب الردة القتل، وهنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد، ونحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين، ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددًا غاية في القلة، أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا، فقد ظلوا — حتى بعد مضي قرن من الهجرة — لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر، أما أولئك الذين استوطنوا مصر، فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط، وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية، وعهودها الطيبة بالثناء والحنين.

ولما انتصر العرب على الفرس في موقعة القادسية (٦٣٥م) وأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم، بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد، فكتب الخليفة عمر — أمير المؤمنين حينئذٍ — يأمر القائد بتوزيع باقي الغنائم على من يحفظ أوفر قسط من القرآن.

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز، فسأل عمرو بن معد يكرب النبيل عمَّا يحفظه من القرآن فأجابه: «لا شيء، لأنني دنت بالإسلام في بلاد اليمن، ثم صرفتني الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به.»[٣]

فالتفت القائد إلى بشر بن طائف يسأله، فكان جوابه: «ليس حظي من ذلك بأوفر من حظ عمرو: «بسم الله الرحمن الرحيم».»

وقد كان هذا هو كل ما يحفظه من القرآن!

زد على ذلك، أن الإسلام — وإن لم يلقَ معارضة قوية في أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة — فإن سراة مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذي أحرزوه، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذي أراد الموحدون أن يبسطوا ظله عليهم.

ولقد كانت تقوم المنازعات بين الشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة، وهي — في حقيقتها وجوهرها — غير ذلك، فقد كان يتخذ النزاع غرضًا يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكأة يبرر بها غايته من الشغب.

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان — ثالث الخلفاء — حين تولى الخلافة بعد وفاة عمر (٦٤٤م) وكانت سن عثمان حينئذٍ سبعين عامًا، وكان حليمًا لين العريكة، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بني أمية، أي إنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا محمدًا العداء عشرين عامًا، ثم أسلموا، فكان في إسلامهم مجال واسع للظنون والحذر، ولقد نالوا بفضل عثمان أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل خليفتهم الشيخ المسن عثمان.

ثم ولي الخلافة بعده علي ابن عم محمد ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبت سوريا متحمسة إلى امتشاق الحسام وعلى رأسها واليها معاوية بن أبي سفيان وكان انتصاره حينئذٍ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقًّا لم يخضعوا لهم، فقد أشعلوا نيران الحرب — من جديد — في زمن يزيد الأول ابن معاوية الذي ولي الخلافة من بعده، ولقد قام الحسين — وهو الابن الأصغر لعلي — يطالب بالخلافة، ولكنه صرع هو وفئته القليلة التي كانت تناصره في موقعة كربلاء[٤] ومن ثَمَّ قام عبد الله بن الزبير — وهو ابن صحابي

من صحابة الرسول — إلى مكة رافعًا علم الثورة، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة، ولا يلتفت إليه استصغارًا لشأنه؛ ذلك أنه لمَّا يغادر مكة إلى غيرها من البلدان، فلم ير له الخليفة خطرًا يستحق أن يناوئه من أجله، ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر ممَّا أثار من قبل — بلا حاجة — فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء في بقاع كانت — حتى في زمن الوثنية — حرمًا مقدسًا لا يمسه أحد بسوء.

ولكنَّ لكل شيء حدًّا، فقد صبر يزيد حتى عيل صبره، فلما لم يبقَ في قوس الصبر منزع، طلب إلى عبد الله بن الزبير — للمرة الأخيرة — أن يبايعه، فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم أنه لن يقبل من هذا الثائر طاعة حتى يُؤتَى به بين يديه مكبلًا بالأغلال، ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه — وكان طيب السريرة — ففكر في وسيلة يبر بها في قسمه دون أن يمس كبرياء عبد الله، ثم استقر على أن يرسل إليه غلًّا من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها — إذا شاء — وبعث إليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة، فساروا من مقر ملكه دمشق حتى بلغوا مكة ولكن عبد الله رفض — بطبعه — أن يقبل تلك الهدايا، وعبثًا حاول الرسل أن يتوصلوا إلى إقناعه وإنزاله عن رأيه، فقد أصر عبد الله على عناده، لأنه كان يعتقد أن كائنًا من كان لن يفكر — بحال ما — أن يلجأ إلى العنف والشدة معه وهو في تلك البقاع المقدسة، وكان هذا سر طمأنينته، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنُف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل.

على أن عبد الله لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته، فقد سبقه إلى ذلك ثوار المدينة، وكانت روح الشر مهيمنة عليهم في ذلك الحين، فقد وقعت بينهم وبين الوالي — حينئذٍ — خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضي، وأراد الوالي إزالة أسباب الخلاف — وكان ابن أخت الخليفة يزيد — فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة، فلما ذهبوا قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة في أن يستميلهم إليه، ولكن يزيدًا كان — على أدبه ونبله — غير مشبع بروح احترام الدين الذي كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم، فبدرت منه آراء — عن غير قصد — صدمت بعض أصول الدين التي يقدسها أهل المدينة، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بالخليفة ويذمونه عند مواطنيهم متأثرين بعامل الغضب وقالوا لهم: «إنه يشرب الخمر، ويعزف على الأوتار، ويصرف نهاره بين

كلاب الصيد — وقد كان محمد يمقت ذلك أشد المقت — فإذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق.»

يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع، فلما كبر أدناهم من مجلسه.

وزادوا على ذلك أنه لا يصلي قط، وأنه جاحد، وعزوا إليه — فوق هذه التهم التي بنوها على أساس واهٍ أو متين — تهمًا أخرى لا أساس لها ولا وجود، وإن كان ذكرها ممَّا يثير في نفس خصومه من أهل المدينة حفائظ وأحقادًا بعيدة الأثر.

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تُلصق بكل أموي، ومن ثم انقلب المسجد مسرحًا عجيبًا تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباع يزيد واجتمع أهل المدينة قاطبة — وهم صاخبون — فشرع كل واحد منهم يتجرد من شيء من ملابسه فيلقي به صائحًا: «إني أخلع يزيد كما أخلع قبائي هذا»، أو «عمامتي»، أو «نعلي».

ثم طردوا كل من في المدينة من الأمويين وصدوا عن تعيين خليفة جديد لهم، فقد كان القرشيون الذين في المدينة لا يحبون أن يعترفوا بأهلها، كما كان أهلها كذلك لا يحبون أن يعترفوا بهم، فقر رأيهم على أن يتريثوا في تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد!

واستحوذ عليهم عداء جنوني — لا يحدوه رشد — فلم يتبصروا عواقب هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الإمبراطورية الإسلامية العظيمة كلها.

ولقد حاول عبثًا أحد المدنيين — وكان قد عاش في بلاط الخليفة، ثم أوفده سيده إلى المدينة — أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه ولكن الغضب أعماهم فأصبحوا لا يعيرون الناصحين التفاتًا ولا يصيخون إلى أية موعظة تقدم إليهم بحسن نية.

وحينئذٍ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة، فأرسل إليهم جيشًا عهد بقيادته إلى «مسلم» — وكان «مسلم» أقرب إلى الوثنية منه إلى الإسلام — فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها، فإذا أبوا أن يخضعوا — بعد ذلك — هاجمهم ودمر مدينتهم تدميرًا في ثلاثة أيام أخرى، ثم أخذ على من فيها المواثيق بأنهم عبيد يزيد وأمرهم أن يقسموا على ذلك فإذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته.

ولم يكد يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أنفة من الخضوع وأعدوا عدتهم للقاء العدو، وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين — وكانت موقعة الحرة سنة

٦٨٣م — وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة، وكان أهل المدينة متحمسين يذكي فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون، وأن أعداءهم — من جيش سوريا — هم عند الله كالوثنيين سواء، وكانوا على يقين من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وباءوا بغضب من الله، أما هم فإنهم سالكون — بلا شك — مسالك الشهداء والأبرار.

وبقي مصير الحرب معلقًا في كف الأقدار زمنًا طويلًا، حتى كشفت الخيانة عنه، فقد ارتشت أسرة من المدنيين ففتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيوش العدو، فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم — فجأة — صيحات النصر من أفواههم، فضاع كل أمل لديهم في الفوز والغلبة، وأصبحت المدينة في قبضة العدو، وصار كل هجوم عبثًا أو مستحيلًا، على أن جمهرتهم لم تفكر في الخطر المحدق بها، فهجم أهل المدينة على أعدائهم فرادى وباعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به!

وكان من بين القتلى سبع مئة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبي قد حارب بعد أن نصروه في حرب بدر على المكيين حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم.

ودخل المدينة فرسان سوريا فلما لم يجدوا مكانًا يربطون فيه خيلهم ربطوها في مسجد المدينة — بين قبر النبي ومنبره — أي في نفس المكان الذي طالما سماه النبي نفسه: «جنة من جنان الفردوس».

ثم نهبوا المدينة في ثلاثة أيام وسبَوْا كل من فيها من نساء وأطفال، ولم ينجُ أحد ممن بقيَ من أهلها — وقد فر أكثرهم — إلا بعد أن أقسم أن يكون عبدًا من عبيد يزيد. وهكذا أقسموا جميعًا على أن يكون الخليفة يزيد سيدهم ومولاهم، وأن يكون في حل من التصرف فيهم بما شاء، من عتق أو بيع، كما أقسموا أن يكون له الحق في كل ما تملك أيمانهم من نساء وأولاد وأزواج.

ولما رأى أبناء مؤسسي الإسلام أنهم مضطهدون معذبون وأن بني أمية قد أرهقوهم إرهاقًا، لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا المهاجرة، فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش إفريقية، ثم انضم أغلبهم — فيما بعد — إلى جيش العرب في إسبانيا.

وكان «مسلم» مكلفًا أيضًا بإخضاع مكة، ولكن الموت عاقه عن تحقيق إربته، فأخذ «الحصين» — وهو أحد رجال جيشه — على عاتقه أن يحقق ذلك، فتولى قيادة

الجيش، وبدأ يحاصر مكة ويقذف الكعبة بالحجارة والصخور، حتى حطم عمدها وقواعدها، ثم نجح أخيرًا في إحراقها جملة، ولقي الحجر الأسود في هذه المرة أول نكبة حاقت به؛ لأنه لم يطق مقاومة النار، فتحطم أربعة أجزاء.

على أن مكة لم يتم إخضاعها، فقد حال دون ذلك موت يزيد وما أعقبه من الفوضى التي اضطرت الجيش إلى رفع الحصار والرجوع بالجيش توًّا إلى سوريا، وبهذا استعاد عبد الله بن الزبير قوته، واستتب له أمر الخلافة في مكة وخارجها أيضًا.

ولكن الأمويين ما لبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة عبد الملك وخضعت البلاد كلها له، ولم يتبقَّ إلا مكة وحدها ثائرة، وفيها عبد الله بن الزبير فلما رأى عبد الملك ذلك وجَّه إليها جيشًا بقيادة الحجاج، فذهب إلى تلك البقاع المقدسة، وحاصر المدينة، وطفق يرمي الكعبة بالصخور والحجارة ليدكها دكًّا، وبينما كان يقذفها بالنار — ذات يوم — هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثني عشر جنديًّا، فرأى الجيش في ذلك عقابًا من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس، فأحجم رجال الحجاج وكفوا عن ذلك.

فاغتاظ الحجاج وخلع بعض ملابسه، وتقدم إلى المنجنيق فأخذ بيده حجرًا ووضعه فيه، ثم حرك حباله بعد ذلك، وهو يقول: «لقد أخطأتم الفهم، فليس معنى ما حدث هو ما فهمتموه، ألا إنني لخبير بطبيعة هذه البلاد، ففيها ولدت، وكم رأيت لهذه العاصفة أشباهًا لا تحصى!»

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر، ثم أخذت بعد أن مات عبد الله بن الزبير سنة ٦٩٢م.

وهكذا لم تهدأ هذه الفئة المناوئة للإسلام ولم تثلج صدورهم إلا بعد أن تمَّت لهم الغلَبة على أنصار هذا الدين وظفروا بتقويض معالمه وإذلال أهل المدينتين المقدستين وتحويل مسجد المدينة إصطبلًا لخيلهم وإحراق الكعبة، وتحقير سلالة المجاهدين الأولين الذين عَزَّ بهم الإسلام وانتصر.

وقد عرفت تلك الأقلية العربية — التي اضْطُرَّت إلى الإسلام اضطرارًا وأكرهت على الدخول في هذا الدين إكراهًا — كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضتهم ثمن الفوز مضاعفًا وشفت به غلة صدورها المكلومة.

أنصار الرجعية

ولم يكن عهد الأمويين إلا عهدًا تتمثَّل فيه الرجعية والانتصار للوثنية، وكان خلفاء بني أمية أنفسهم — إلا القليل النادر منهم — لا يُعْنَوْن بنُصرة هذا الدين ولا يخلصون له، وقد تجاوز الوليد الثاني — وهو أحد هؤلاء الخلفاء — كل حدٍّ في الإزراء بهذا الدين، وطوح به استهتاره إلى أبعد مَدى، فاعتاض عن صَلاة الجماعة بِصِلاتِ جواريه، ومغازلة سراريه، ولم يحجم عن تخريق كتاب الله بالنشاب[٥] ولم يكن راضيًا عن إسلام الشعوب الجديدة التي دخلت في هذا الدين أفواجًا من سوريين وأقباط وفرس وبربر شمال إفريقية؛ لأنه كان يرى في ذلك شرًّا مستطيرًا على خزانة الدولة، فقد كان القانون يفرض الضرائب على غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، فإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية وأعفوا من أداء تلك الضريبة التي فرضها عليهم القانون.

وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام، وشجع الناس على الدخول في هذا الدين، وتغلبت المصلحة على العقيدة ودانَ بالإسلام ملايين من الناس الذين آثروا المال على كل شيء.

والحق أن انتشار الإسلام بين هذه الجماهير والشعوب قد أرهق بيت المال، فقل الإيراد حتى اضطر الخليفة إلى مضاعفة الجزية تقريبًا، فقد كان الخراج في مصر في عهد الخليفة عثمان أكثر من نصف ما وصل إليه بعد زمن قليل في خلافة معاوية وكان السبب في ذلك أن جمهرة كبيرة من الأقباط دخلوا في الإسلام، وكان فريق منهم يتظاهر بالإسلام من غير أن يعتقده، وفريق آخر ارتضاه دينًا له هربًا من دفع الجزية المفروضة عليه، وثمة رأى الخلفاء ألا يُعفوهم من تلك الضريبة متعللين بأنهم لم يدخلوا حظيرة هذا الدين إلا طمعًا في إعفائهم منها، وأنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه.

عمر بن عبد العزيز

ولم يشذ من بين هؤلاء الخلفاء إلا الخليفة عمر الثاني — عمر بن عبد العزيز — ذلك المسلم الورع التقي الذي آثر نصرة الإسلام على كل شيء، والذي احتقر المال، وزهد فيه كل الزهد، بعد أن امتلأ قلبه بالإيمان، فأصبح لا يهمه إلا أن ينتشر الإسلام ويدين به كل إنسان.

ولم يكن عماله يرتضون النزول على هذا المبدأ الجديد لأنه يهدم النظام الذي ألفوه، ويقوض صرح بيت المال.

وقد كتب إليه أحد عماله — في هذا المعنى — يقول: «لو دامت الحال على هذا المنوال لدان بالإسلام كل مسيحي، ولم يشذ منهم أحد، وبذلك تفقد الدولة كل دخلها.»

فأجابه عمر: «لو تم ذلك لتمت لي أسباب السعادة كلها، فليست لنا غاية نسعى إليها إلا نشر هذا الدين بين الناس كافة، وقد بعث الله نبيه مبشرًا بالإسلام وداعيًا إليه ولم يبعثه محصلًا للمال، ولا جابيًا للضرائب.»

وهكذا أجاب عامله كما أجاب عامل خراسان الذي شكا إليه إقبال الفرس على هذا الدين لا عن رغبة فيه، بل فرارًا من دفع الضرائب، وآية ذلك أنهم يدخلون الإسلام ولا يُخْتَتَنُون.

فأجابه عمر: «لقد أرسل الله نبيه ليهدي الناس إلى الدين الحق، ولم يرسله ليفرض عليهم الختان.»

وهو بهذا لم يكن صارمًا في تطبيق أصول الشريعة، ولم يكن يجهل أن أكثر من دانوا بالإسلام كان ينقصهم الإخلاص والصدق، ولكنه على ذلك كان يرى — وهو على حق فيما رآه — أن أبناء هؤلاء المتظاهرين بالإسلام وأحفادهم سينشئون في ظل الإسلام والمسلمين، ويشبون في أحضان هذا الدين، وتشربه دماؤهم فيصبحون مسلمين يخدمون الإسلام وينصرون كلمته، وربما ظهر منهم من هو خير من المسلمين أنفسهم.

قواعد الإسلام

أما سواد هؤلاء الذين دخلوا في الدين أفواجًا، فقد كان في عهد الأمويين لم يتعدَّ أولى مراتب هذا الدين وهي الإسلام، فإن لهذا الدين ثلاث مراتب يفسرها الحديث المأثور عن النبي.

فقد حدَّث: أن جبريل جاءه — ذات يوم — في زي عربيٍّ، وحياه وجلس إليه، وأدنى ركبته حتى مست ركبة النبي، وسأله: «ما الإسلام يا رسول الله؟»[1]

فأجابه محمد ﷺ: «الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا».

فقال له: «صدقت، وما الإيمان؟»

فقال له: «الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقضائه في الخير والشر.»

فقال له: «صدقت، وما الإحسان؟»

فقال له: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك».

وثمة ترى أن الإسلام يدل على إيمان خارجي بحت، وهو مراعاة قواعده الخمس الجوهرية.

وقد كان المسلمون في عهد بني أمية قد وصلوا إلى هذه المرتبة، على أن كثيرًا منهم كان يؤمن بالله، ولكنه ينكر الوحي.

وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[2]

وعلى كل خلاف في ذلك بين العرب وخلفائهم وعلى ما بذلوه من جهد قليل في نشر هذا الدين للتغلب على عادتهم في محاربة انتشاره وإذاعته، بدلًا من الترويج له، فإننا نرى أن الإسلام قد انتشر بسرعة مدهشة بين تلك الشعوب التي غزوها، وهذه ظاهرة لم يَرَ لها العالم مثيلًا من قبل، وهي تبدو — لأول وهلة — لغزًا مستسرًّا لا سبيل إلى حله وتعليله، لا سيما إذا عرفنا أن هذا الدين الجديد لم يُكرِه أحدًا على الدخول فيه.

وقد كان محمد ﷺ يأمر بالتسامح والإغضاء، وقد وضع للمسلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدِن به من أهل الكتب المنزلة من يهود ونصارى، فمنحهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية، وزاد في تسامحه فمنح هذه الميزة لمن يقطنون إقليم البحرين من المشركين.

وجاء من بعده عثمان فخطا خطوة جديدة أخرى، فاعتبر بربر شمال إفريقية كاليهود والنصارى وسكان إقليم البحرين.

ولسنا نعرف — على الحقيقة — شيئًا عن ديانة هؤلاء البربر القديمة إلا معلومات تافهة ضئيلة لا تغني شيئًا، ولن نعدو الصواب إذا قلنا إننا نجهل كل شيء عن هذه الديانة القديمة.

على أننا إذا أخذنا بالحكم على طبع الشعب وخلقه واتخذنا من ذلك مقياسًا للحكم على ديانته استطعنا أن نستنتج أن ديانة البربر القديمة كانت أقرب إلى أن تكون كهنوتية منها إلى أن تكون إلهية.

ومهما يكن من أمر، فليس ثمة مجال للشك في أن البربر لم يكونوا أهل كتاب مقدس قط، وعلى هذا نرى — في جلاء ووضوح — أن التسامح الديني قد وصل في هذه الطريق إلى آخر مداه، إن لم نقل إنه أربى على ما كان يرمي إليه النبي.

أضف إلى هذا أن الحكم الإسلامي كان يتوخى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة لا سيما النصارى، فقد كان سواد المسيحيين في الشرق ينتمي إلى مذاهب لقيت من اضطهاد حكومة القسطنطينية وإعناتها ما أرهق أصحابها إرهاقًا، فلما جاء الإسلام — ومن طبيعته التسامح والإخاء — ترك لهم الحرية التامة في البقاء على دينهم ما داموا يؤثرونه على غيره من الأديان، وظللهم بحمايته، وسوَّى بينهم في الحقوق، على اختلاف مذاهبهم وشتى نِحَلهم.

ولا تنسَ أنهم كانوا مضطرين إلى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الروماني، فلما جاء الإسلام أعفاهم منها، ولم يفرض عليهم إلا جزية معتدلة لا ترهق أحدًا، ومتى

عرفت هذه الأسباب زالت دهشتك وعجبك من إيثارهم حكم المسلمين على حكم الرومان واندفاعهم إلى مساعدة العرب في فتوحاتهم بكل قلوبهم بدلًا من مناوأتهم والتألب عليهم.

أسباب انتشار الإسلام

وإذا كان ذلك كذلك، فما بالهم لم يبقوا على دينهم؟ وأي شيء حفزهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد من غير أن يكرهوا على الدخول فيه، وهم يعلمون أن إسلامهم لا يرتاح إليه ملوكهم؟

لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هذه النتيجة، وقد ألمعنا — آنفًا — إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا؛ لأن إعفاءهم من الجزية — على اعتدالها — كان ممَّا يرغبهم في الإسلام.

أضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشخصية إذا أسلموا وأصبح لهم من الحقوق ما للمسلمين.

نعم كان المسلمون متسامحين، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك شيئًا، فقد كانوا — على تسامحهم — لا يضعون المسيحي والمسلم في صف واحد، بل ينظرون إلى النصراني كما ينظرون إلى جنس منحط.

وقد سن عمر لهم قانونًا يحوي إذلالهم ومهانتهم بين طياته، فلم يسمح لهم بإنشاء الكنائس والمعابد، بل حرمهم حتى بناء الأديرة الصغيرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدَّاه — بعد قليل — إلى ما هو شر منه، فقد حظر عليهم تجديد بناء الكنائس التي تهدم — وإن لم يتمسك المسلمون بتنفيذ هذا الشرط دائمًا — وقد أباح القانون للمسلمين أن يدخلوا الكنائس في أي وقت شاءوا ليلًا أو نهارًا، وحتم على المسيحيين أن يفتحوا أبوابها للمسافرين من المسلمين ليل نهار، وشرط عليهم أن يقدموا الطعام لضيوفهم ثلاث مرات في كل يوم، وحظر عليهم أن يرفعوا الصلبان على كنائسهم، وأن يبيعوا الكتب المقدسة في شوارع المسلمين، كما حظر عليهم إقامة الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية في الكنائس بصوت مرتفع إذا كانت قريبة من بيوت المسلمين، وأمرهم أن يشيعوا موتاهم إلى قبورهم في صمت وسكون، وألا يوقدوا شموعًا أمامهم متى وصلوا إلى الأحياء الإسلامية.

كما حرَّم عليهم التعصب لدينهم والتعرض بأي سوء لمن يتحول عنه إلى الإسلام، وفرض عليهم احترام المسلمين في كل فرصة أو مناسبة، فإذا جلس المسلم وجب على المسيحي أن يقوم.

وشرط عليهم أن يحتفظوا بأزيائهم ولا يتزيوا بزي المسلمين ليتميزوا للناظر عنهم، ولم يُعْفِ مسيحيًّا من شد الزنار إلى وسطه، وحرم عليهم أن يتحدثوا بالعربية أو ينقشوها على أختامهم.

ولم يُبِحْ لهم أن يتخذوا لخيولهم سروجًا أو يتقلدوا سلاحًا أو يستخدموا مسلمًا عندهم.

ولا ريب أن هذه الشروط لم تكن تطبق بحذافيرها — في أول الأمر — إلا في أحوال استثنائية نادرة؛ لأن الولاة المنوط بهم تنفيذها كانوا على جانب كبير من التسامح والعدل والرحمة، فلم يبالوا بتنفيذ هذه الشروط القاسية، وقد وصل بهم التسامح إلى حد انهم كانوا يبرمون معاهدات — في بعض الأحايين — بينهم وبين المسيحيين تعفيهم من تنفيذ أكثر هذه الأمور.

ومهما يكن من أمر فقد كان مركز المسيحيين عند المسلمين يكاد يكون مماثلًا لمركز اليهود في أوروبا إبان القرون الوسطى.

وهو المركز الذي لا يزال يضعهم فيه السواد الأعظم من الناس، فقد كان سادتهم ينظرون إليهم باشمئزاز واحتقار ويعدونهم من الأنجاس، فلا يتحدث مسلم إلى مسيحي أو قسيس — على الأخص — إلا عن بعد حذرًا من ملامسته كي لا يدنس ثوبه.[٣]

ومتى دان المسيحي بالإسلام تطهر من رجسه كما يتطهر اليهودي عندنا حين يدين بالمسيحية بعد أن نُعَمِّدَهُ، ثم يصبح إلى حد ما على قدم المساواة مع المسلم.

أقول إلى حدٍّ ما لأن مسلمي العرب دائمًا أرستقراطيون لا ينظرون إلى المسيحي — حتى بعد إسلامه — إلا نظرة السيد، ولا يخاطبونه إلا من حالق، على أن إسلام المسيحي كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشعور بالعزة، والزمن وحده كفيل بتحقيق ما يليها من الخطوات، ولن يلبث ابن المسيحي أن يصبح مسلمًا أصيلًا يتمتع بكل ما يتمتع به العربي من عزة وكبرياء.

معجزة الإسلام

أضف إلى هذا أن انتقال السوريين والمصريين من المسيحية إلى الإسلام لم يكن عسيرًا شاقًّا فقد كانوا — على الحقيقة — يجهلون من أمور دينهم كل شيء؛ لأن الجهل في تلك العصور كان ضاربًا بجرانه، وقد اقتبس الإسلام كثيرًا من أصول المسيحية — اقتباسًا مباشرًا أو غير مباشر — ولا تنسَ أن عقيدة الحساب كانت ذائعة في القرون الوسطى، وقد كان لها أكبر الأثر في نفوس الناس، وكانوا يؤمنون بأن الغالب لا بد أن يكون على حق، وكانوا يتساءلون مدهوشين: «لو صح ما قاله القساوسة من أن محمدًا نبي منافق كذاب، فكيف نعلل انتصاره، وما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلو إحداها الأخرى، وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد؟ وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟»

ولقد كانوا يعتقدون — أول أمرهم — أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة التي كانت تحدث لأقل مناسبة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم تلك المعجزة قد طال وذهب صبرهم أدراج الرياح، وعبثًا حاولوا وقوع هذه المعجزة.

وهكذا أصبح الاعتقاد بوقوع المعجزة، الذي طالما روَّجت له الكنيسة وغلت في الدعاية له أكبر نكبة حاقت بها وطوحت بنفوذها.

وأعجب من ذلك أن المعجزة — إن لم نقل المعجزات — قد حدثت حقًّا في ذلك العصر، وكانت معجزات أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم؟ وأي معجزة أروع وأعجب من أن نرى شعبًا كان إلى زمن قليل في غيابة من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها وهو يغزو الأرجاء الفسيحة، وينتصر على قطر بعد قطر فتدين له البلاد بالطاعة والولاء، وتقبل على دينه من كل حدب وصوب، راضية غير مكرهة.

ولو أننا عزونا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية أو الرغبة في التخلص من الذل والضعة، فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيرًا من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان.

دين الفرس

وأهم من ذلك أن الفرس أقبلوا على هذا الدين الجديد ودخلوا فيه أفواجًا وآمنوا به مخلصين عن ثقة ويقين.

فإن الديانة الفارسية العتيقة التي نشأت من انشقاق البرهمية قد أسسها زِرْواستر وزاد انتشارها بفضل من خلفه من الكهان، قد فقدت قوتها وقداستها بعد أن خضعت بلاد فارس للعرب.

ولقد غزا «الإسكندر» بلاد الفرس من قبل، فلم يصبح هذا الدين دين الدولة، ويظهر أنه لم يستطع أن ينهض بعد هذه الصدمة.

ولا جرم أنه وجد نصيرًا وعونًا عند بني ساسان، فقد دأبت هذه الأسرة جادة في الاستيلاء على العرش في القرن الثالث بعد الميلاد المسيحي، واستطاعت أن تستميل الشعب إلى مناصرتها وتأييدها بعد أن أخذت على نفسها عهدًا بإعادة المجوسية.

وكان رئيس هذه الأسرة كثيرًا ما يقول: «إن العرش في عون المذبح، كما أن المذبح في عون العرش.»

ولم يجد من خلفوه أيضًا سلامًا إلا بعقد معاهدة وثيقة بينهم وبين كهنة الزِّرْواستر.

وعلى الرغم من حماية هؤلاء الملوك، فإن المجوسية لم تجد قط حياة قوية لها؛ ذلك لأنه شُعِرَ بمؤثرات خارجية قوية وآراء وأفكار جديدة نجح في إدخالها إغريق ومسيحيون، وكان كسرى أنوشروان قليل التبصر في هذا الأمر إذ قبل حوله فلاسفة من الإغريق الذين كان يضطهدهم جوستانيان، وأمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطاليس.

وبعد زمن قليل — ولعله كان في عهد حكم الإغريق والهند — ذهب مبعوثون من البوذيين[٤] ينشرون تعاليمهم في أرجاء فارس، وكانوا يقولون: إن بوذا رسول من عند الله ووسيط بين الخالق والمخلوقات، وإن واجب الإنسان هو ألَّا يعيش لهذه الحياة الدنيا، بل يعيش للسماء.[٥]

وهكذا نشأت هذه الشيع التي كانت ترمي إلى إدخال عناصر إصلاحية لترقية الاجتماع، ومزجت — في طياتها — اعتقادات جديدة في ديانة المجوسية، فأضافت إليها التقمص أو التناسخ، وهو من معتقدات البراهمة[٦] والوحي الذي أوحى به الله للإنسان الأول، وهو من معتقدات البوذيين، واعتقاد أن الزمن غير محدود، وأنه هو الله العلي الأعظم، والإيمان بأن الله (تعالى) يتقمص في شخص الملك الحاكم[٧] … إلخ.

وهذا من اعتقاد البوذيين أيضًا، وقد تفرع عن هذه الملل كثير من النِّحل.

وجماع القول أن بلاد الفرس كانت مسرحًا لكثير من التخرصات الدينية، حيث التقت فيها أخلاط من المذاهب المختلفة وأمشاج من النِّحل المتباينة، ووجدت في هذه البلاد حقلًا خصبًا لازدهارها.

وقد انتهت هذه المقدمات بالنتيجة الطبيعية المنتظرة فظهرت بينهم فئة آثرت تحكيم العقل، فأنكرت كل عقيدة، وظهرت فئة من الطبيعيين، وهو دين قديم من أديان الفرس، وكان من تعاليمهم حب التعذيب، والدعوة إلى قهر النفس، وكبح جماح الشهوات والعمل على ترقية النفس الإنسانية ورياضتها على الصبر والجلد.

وكانوا يؤمنون — إلى ذلك — بكائن أعلى ويدينون بقدرة الله وخلود الروح بينما غيرهم لا يعتقد ذلك، وهم أحرار الفكر يبيحون لأنفسهم أقصى مدى من الحرية.

وعبثًا حاول الملوك والكهنة مجتمعين أن يتألبوا على هدم هؤلاء المبتدعين الذين يروجون البدع الدينية، وأن يقضوا على أولئك المستبسلين الجرآء، ويبيدوهم بالسيف والنار.

فكانت نتيجة هذا الاضطهاد شبوب نار الثورة ضد رجال الدين والحكومة، وكانت هذه الثورة مما سهل على العرب غزو بلاد فارس التي كان قسم كبير منها تابعًا للإمبراطورية الرومانية.

وممَّا ضاعف الخطر ووسع الهوة، انقسام الكنيسة نفسها، فإن أحد الفريقين وهم المجوس الذين كانوا أكبر قوة في القسم الغربي من الإمبراطورية، أي في «ميدي» وفي «فارس» تمسكوا بكتاب «أڤستا» وتشبَّثُوا بنصوصه المقدسة.

وقام الفريق الثاني وهو فريق الزنادقة وسوادهم في «بكنزيان» وذهبوا إلى الأخذ بكتاب «الزند»، وهو التفسير المجازي لكتاب «أڤستا» المقدس.

وقد تمسك به كثيرون كما تمسك سواد الفرس — بعد ذلك — بالقرآن، فلم يبقَ في بلاد فارس من يدين بالمذهب الأول القديم إلا الأقلون عددًا.

هكذا كانت حال البلاد الفارسية عندما فتحها العرب حيث ضاعت ديانة المجوسية — من جديد — ضياعًا أبديًّا، فلم يُتَحْ لها القيام من كبوتها بعد هذا العصر، ولم يقدر لها أن تعود دينًا للحكومة.

ولقد كان الفتح أكبر ضربة قضت على هذه الديانة، ولم يكن من ذلك بد؛ لأن الكنيسة والعرش كانا متحدين اتحادًا وثيقًا، وكان سقوط أحدهما رهنًا بسقوط الآخر.

على أن المجوسية لم يُقْضَ عليها بسرعة، فإن كثيرًا من الفارسيين ظلوا مؤمنين بها، ولم تخل قرية في بلاد فارس — إلى القرن العاشر — من معبد للنار، ولكن عدد المنتمين إلى هذا الدين كان آخذًا في النقص يومًا بعد يوم، ودخل المتدينون والملحدون في دين الإسلام أفواجًا، وانضمت المصلحة الشخصية إلى ترويجه والإقبال عليه، فدان به الفارسي — أسوة بالمسيحي — ليعفى من دفع الجزية.

أضف إلى هذا أنه كان يطمح إلى الكرامة وهو مزهُوٌّ مختال بماضيه المجيد، ولم يكن في وسعه أن ينجو من الزراية والامتهان بعد الفتح الإسلامي، إلا إذا دان بالإسلام ليحفظ كرامته وكبرياءه موفورين، وبهذا وحده استطاع أن يُساهم في الحكم، ولم يكن الانتقال إلى الإسلام — كما أسلفنا آنفًا — بالأمر العسير.

وهكذا انتقل الإسلام إلى بلاد «فارس» في محيط من الآراء، لم تكن كلها غريبة على هذه البلاد، بل كانت على العكس مألوفة لها، فقد كانت الديانتان تحويان أصولًا مشتركة بينهما، وكان للإسلام نقط اتصال كثيرة يلتقي فيها مع نِحَلِ الملحدين وشِيَعِهِم، مثل مذهب «ماني» الذي يدين به المانويون، ومذهب «مُزْدُك» الذي يدين به المزدكيون، وقد أثرت المسيحية في هذين المذهبين كما أثر فيهما الإسلام.

وكان إسلام الفارسيين عظيم الخطر جليل النفع على الدين الإسلامي، فقد نهض بالإسلام إلى حدٍّ ما، ولئن رأينا من مسلمي العرب قلة اكتراث بالدين، فإننا نرى الفرس — على عكس ذلك — يلتهبون غيرة وحماسة لنصرة هذا الدين.

وقد ألف الفارسيون — إلى ذلك — ممارسة العلوم، ومعاناة البحوث العويصة، وطبعوا على التمحيص، فلما أسلموا ظهر من بينهم واضعو أساس «اللاهوت» الإسلامي، وقد قال المؤرخ ابن خلدون: «إن أغلب الحفاظ الذين استظهروا الحديث والدين وأعودهم نفعًا على الإسلام، كانوا من الفرس، وقد نقلوها إلى الفارسية، وتوفروا على درس القرآن وبرعوا في تفسيره والتفقه فيه.»

ومن ثَمَّ نرى أن الإسلام قد أصبح — بفضل الفرس — قوة عظيمة الخطر في العالم، ولم يكن ليتاح له أن يصل إلى هذه الذروة بفضل جهود العرب وحدهم.

ولقد كان تاريخ الإسلام — أعني تاريخ نشأته وانتشاره ونموِّه — مماثلًا تاريخ البوذية والمسيحية، فقد نشأت البُوذيَّة في الهند، وماتت في مهدها وصرعتها البرَهْمية، ولم تطق البوذية أن تَصْمُد لها في نضالها، ولكنها — مع ذلك — انتشرت في بلاد أخرى كالصين وسيلان والتتر واليابان، وما وراء «الجنج».

كذلك نرى أن المسيحية لم تظفر بالحياة في مهدها، فقد أنكرها اليهود، ولجُّوا في مناوأتها — مع أنها وليدة الموسوية — ولكنها على ذلك قد ذاعت خارج موطنها ودان بها الرومان، وإن كان تدينهم اسميًّا، وفتن بها شعب ثالث وهو الشعب الجرماني حيث لقيت بين ظهرانَيْهِ كل إقبال وترحيب.

ولسنا ننكر خطر الإسلام واستقامة مبادئه ونفعها وإن كان يحوي — على ذلك — ضررًا جسيمًا، فإن أكثر من دانوا به لم يكونوا مخلصين في اعتقادهم، وثمة رأينا كثيرًا منهم يطرقون أبواب الكنائس ويأوون إليها، وهم غير معتقدين بالإسلام، وإن تظاهروا به رغبة فيما يلقونه من كرم الوفادة وحسن الضيافة.

ولقد كان الداخلون في حظيرة الإسلام فريقين، فريقًا يرى أن الإسلام أيسر ممَّا يطلبون لأنه لا يمنح المؤمنين به ما تطمح نفوسهم إليه، وفريقًا يرى أنه أصعب مما يطيقون لأنه يفرض عليهم أكثر مما يحتاجون إليه.

فأما الفرس فكانوا من الفريق الأول — وقد ألفوا دينًا معقدًا — فلما جاء الإسلام وجدوه أيسر وأبسط ممَّا ألفوه، ورأوا تعاليمه جافة شديدة الجفاف بعيدة عمَّا ألفوه من خيال خصب بهيج.

أما سواد المفكرين الأحرار فقد وجدوا هذا الدين شاقًّا شديد العسر — على ما فيه من تيسير وتسهيل — وهكذا وجدوا كل دين آخر عسيرًا شاقًّا، ما دام يفرض عليهم بعض القيود، فلم يرضوا عن الإسلام ولا عن غيره من الديانات.

وثم نرى نزعتين باديتين في الشيع الإسلامية، إحداهما ترمي إلى اقتباس التعاليم الدينية من الأديان الأخرى، والثانية تنزع إلى انتهاز الفرص للتخلص من أكثر أوامره ونواهيه، وتحوير نصوص أحكامه حتى يصبح وفق رغباتهم وأهوائهم.

وكانت هاتان النزعتان تمشيان أحيانًا جنبًا إلى جنب، فقد عرف الجاحدون كيف يستفيدون من المتشددين في العقيدة، وتضافرت المصالح الشخصية والمآرب السياسية على ذلك، ورأى الفرس أن يسلكوا كل وسيلة للتخلص من نير الاستعباد، وفكروا في مواصلة العمل على استقلال فارس.

وفي كل مكان في الدنيا نرى الشِّيع والنِّحل في كل زمن تنشأ لغاية سياسية أكثر منها دينية، ولا تحوي الفصول التالية جميع هذه المذاهب، بل تشير إلى أعظمها خطرًا وأكبرها أثرًا، فليس من همنا أن نذكر تاريخ الشيع والنحل، وبحسبنا أن نتتبع النزعات السياسية مغفلين منها ما لا خطر له.

وقد كتب المؤلفون المسلمون في هذا الصدد مدفوعين باعتبارات دينية عن الإسلام وقرروا عكس ما نقرره، فإذا قامت الشبهة قوية في الإسلام لجئوا إلى اختراع تقليدي — ولا جرم أنه تقليدي — من مقتضاه أن النبي ﷺ قال: «تنقسم أمتي إلى ثلاث وسبعين شعبة اثنتان وسبعون منها هالكة وواحدة ناجية.»

وقد أضافوا إلى هذا أنه كان للزِّرْواستر سبعون شعبة، ولليهود إحدى وسبعون شعبة، وللمسيحية سبعون، ثم ذهبوا إلى قياس عظمة الدين إلى عدة ما يحويه من شعب.

وهذه البدعة التي نعدها غريبة مردها إلى قيمة رمزية، فإن العدد المقدس: وهو يبدأ من سبعين إلى اثنين وسبعين كان في آسيا — منذ أقدم العصور — متداولًا نظرًا لقيمته الرمزية.

وقد رد الباحثون أصل ذلك إلى الفلك، فعدد سبعين هو خمس أيام السنة القمرية القديمة، وعدد اثنين وسبعين هو خمس أيام السنة الشمسية.

وقد أخذت هذه الفكرة من الديانة المجوسية، وفي كتاب «ياسنا» فيما أعرف — أقدم مثال ذكر فيه هذا العدد — فهذا الكتاب يحوي اثنين وسبعين بابًا، وذلك التقسيم — كما يقول «هوج» — لم يكن جزافًا، بل وضع عن خبرة وتقدير؛ فإن البابين في هذا الكتاب وهما الواحد والستون والثاني والسبعون متشابهان، والباب الثامن عشر لا يحوي غير أشعار من قسم «الغطاس» في كتاب «ياسنا».[٨]

وبعبارة أخرى ترى أن كتاب «ياسنا» قسموه في أول الأمر إلى سبعين بابًا (خمس أيام السنة القمرية) ثم مضى على هذا التقسيم زمن طويل، فقسموا هذا الكتاب بعد ذلك إلى اثنين وسبعين بابًا (خمس أيام السنة الشمسية) وفي العهد الذي نفي فيه «بابليون» تسربت هذه الفكرة إلى اليهود مع غيرها من جمهرة الأفكار الأخرى.

ثم انتقلت بعد ذلك — مع الزمن — من اليهود إلى المسلمين.

وكان المسلمون يجهلون أصل هذه الفكرة، وقد كانوا خلقاء أن ينسبوا تلك الرموز العددية إلى كتاب «ياسنا»، بل ما كان أجدرهم أن ينسبوها إلى مصادرها الأربعة التي أخذت عنها وأصبحت عددًا أكبر من رقم (٧٢) وقد عناهم أن ينسبوا إليهم وحدهم هذا الرقم.

ومتى أقررنا ذلك أصبحنا جديرين ألا نأخذ بهذه الأرقام وألا نتشبث بحرفيتها، وإن أَبَى رجال اللاهوت من المسلمين إلا أن يتشبثوا بها ويؤمنوا بصحتها، وقد تم لهم ذلك ورأوا من واجبهم أن يصلوا بالفرق الإسلامية إلى هذا الرقم.

على أن لحظة من لحظات الروية والتفكير كانت جديرة أن تقفهم على خطل هذا الرأي وأَفَنِه. ولنأخذ الشهرستاني مثلًا للتدليل على صحة ما نقول — وهو من رجال القرن الثاني عشر — فقد تأثر بهذا الرقم (٧٣) وما كان أجدره أن يتريث ويمعن الفكر ويطيل الروية ليعلم أن هذا العدد عرضة للزيادة والنقص — كما أثبتت الحوادث صحة هذه النظرية في المستقبل — ولكنه أثر التشبث بهذا الرقم، وقد جره ذلك إلى نتيجة تافهة قليلة الخطر، ولم يصل به تمسكه بهذا الرقم (٧٣ لا أكثر ولا أقل) إلى غاية محمودة موفقة.

ولو أنه أطال الروية لأمن العثار والزلل كما أمنه من جاء بعده من الباحثين الذين لم يبهر أبصارهم هذا الرقم الخلاب.

والحق أن هذا الرقم الخاطئ (٧٣) وهذا الرأي المأفون الذي دفعهم إلى التشبث به قد وصلا بمن أخذ بهما إلى نتائج مُعْتَسَفَة شوهت تاريخ الإسلام إلى مدى بعيد، وأدخلت فيه من ألوان التعقيد والغموض ما أفسد بساطته ويُسْرَه.

وقد وجد — لحسن الحظ — مؤلفون جاءوا بعد الشهرستاني، ورأوا — كما رأى الشهرستاني — أن يميزوا هذه الشيع فيجعلوها قسمين، مِلَلًا ونِحَلًا.[٩]

وبهذا التمييز أصبحنا ندرك المذاهب الأصلية وما نشأ عنها من الفروع.

الهوامش

ديانة العرب في الجاهلية

(١) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

وكالسيف — إن لاينته — لان متنه　　　وحدَّاه — إن خاشنته — خشنان

(٢) الثنوية دين المجوس الذين أثبتوا — كما يقول الشهرستاني — أصلين اثنين مؤثرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، ويسمون أحدهما: النور، والثاني: الظلمة، وبالفارسية: «يزدان» و«إهرمن» وهذا رأي من يدينون بالثنوية والمانوية، وقد أشار المتنبي إلى ذلك في قوله من قصيدة مدح بها سيف الدولة:

وكم لظلام الليل عندك من يد　　　تخبر أن المانوية تكذب

(٣) يعني الأوربيين.

(٤) ارجع إلى كتاب «دوزي»: «الإسرائيليون في مكة».

(٥) كان العرب يعتقدون بوجود الله ويعتقدون أن شئون الكون كلها بيده كما ترى في الكتاب الكريم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

(٦) قال (تعالى): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(٧) قال أبو العلاء على لسان جني، في رسالة الغفران:

فتارة أنا صل في نكارته ... وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للإنس حُولًا أو ذوي عور ... ولم نكن قط لا حُولًا ولا عورا

(٨) بعض الأساطير عن الجن

افتن رواة العرب وشعراؤهم في رواية الأساطير الرائعة عن الجن، ولعل أجمل ما قرأناه في ذلك هو تلك القصة البديعة التي تخيلها أبو العلاء في رسالة الغفران بين ابن القارح وشيخ من أدباء شيوخ الجن وقد أثبتناها في كتاب أساطير ألف يوم وفي هذه القصة يرى القارئُ حوارًا ممتعًا لا نغالي إذا قلنا إنه منقطع النظير في العربية كلها، ومن أجمل ما نختاره من تلك القصة قول الجني — وهو يقص على ابن القارح بعض ما حدث له في الدار الأولى:

وكنت آلف من أتراب قرطبة ... خودًا، وبالصين أخرى بنت «يغبورا»
أزور تلك وهذي غير مكترث ... في ليلة قبل أن أستوضح النورا
ولا أمر بوحشيٍّ ولا بشر ... إلا وغادرته ولهانَ مذعورا

إلى أن يقول:

وأحضر الشرب أعروهم بآبدة ... يزجون عودًا ومزمارًا وطنبورا
فلا أفارقهم حتى يكون لهم ... فعل يظل به إبليس مسرورا
وأصرف العدل — ختلًا — عن أمانته، ... حتى يخون وحتى يشهد الزورا

إلى آخر القصيدة.

ومما ذكره ذلك الجني لابن القارح قوله: «ولسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة لأنكم من حمأ مسنون وخلقنا من مارج من نار.»

وقوله: «وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض، وإنما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون قلَّ ما يعدوها القائلون، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس.»

وقوله: «ولا بد لأحدنا أن يكون عارفًا بجميع الألسن الإنسية ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس.»

وقد قص الجني على ابن القارح — في قصيدة أخرى — شيئًا كثيرًا مما ينسبه الناس إلى الجن، فمن ذلك قوله:

ونخرج الحسناء مطرودة	من بيتها عن سوء ظن حديس
نقول: «لا تقنع بتطليقها	واقبل نصيحًا لم يكن بالدسيس»
حتى إذا صارت إلى غيره	عاد من الوجد بجد تعيس
نذكره منها — وقد زوجت —	ثغرًا كدر في مدام غريس

وفي هذه القصيدة يقول:

ونفتري جن سليمان كي	نطلق منها كل غاوٍ حبيس
صير في قارورة رصصت	فلم تغادر منه غير النسيس

يعني بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبي الله سليمان في قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلًا إلى الفرار، فلم يبقَ منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق.

وقد أشرنا — في رسالة الغفران — إلى ذلك إشارة موجزة لا بأس من إثباتها هنا لفائدة القراء:

أساطير الجن وسليمان النبي

شاعت أخبار سليمان والجن، وانتشرت — منذ أقدم أزمنة التاريخ — فنسب إليه من الخوارق القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة، ونسب إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش — معجزات لا تحصى، كما عزي إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران بما يحمله في الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل.

وقد كادت تجمع تلك الأخبار على عدة أمور أنضجها الخيال ونسقها التواتر، فمن ذلك أن سليمان النبي كان يهيمن على الجان ويتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسرًا، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جني بعينه يكون مشهورًا بقدرته الخارقة، فيرسل إليه، فإذا لبى دعوته فذاك، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش — الذي على خاتمه — فأحرقه توًّا، أو سجنه في قارورة مرصصة أو قمقم من النحاس، وربما سجنه في عمود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه.

ولقد اشتهر وزيره الحكيم آصف بن برخيا بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره.

وقد ذاع من تلك الأساطير — بين العامة والخاصة — شيء كثير، وافتن الناس في رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة، ولهذه الأساطير مصادر عدة — نخص بالذكر منها — عدا روايات وأقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسيين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها وهما «أساطير ألف ليلة وألف يوم» وأسطورة «سيف بن ذي يزن».

(٩) ومن الأشجار التي كان يعظمها العرب في الجاهلية شجرة «ذات أنواط» وفيها يقول بعض الشعراء:

لنا المهيمن يكفينا أعادينا　　　كما رفضنا إليه «ذات أنواط»

وفي هذه الشجرة يقول أبو العلاء في لزومياته:

والحظ يدرك أقوامًا فيرفعهم　　　وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
وشرفت «ذات أنواط» قبائلها　　　ولم تباين — على علاتها — الشجرا

وفي هذين البيتين أيضًا إشارة إلى ما ذكره «دوزي» من عبادة العرب للحجر.

(١٠) الجمال الصغيرة، قال الشاعر:

لا أمتع العوذ بالفصال، ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

(١١) قال (تعالى): ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(١٢) ومما جاء في القرآن الكريم قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ✻ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ✻ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

(١٣) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها — كما يتوهم بعض الناس — وقد ذكر «عبد الله بن عباس» في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ إن هذه الأسماء التي أطلقوها على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين، ماتوا، فقالت عشائرهم: لو أنَّا صورناهم ليكون في ذلك تذكير لنا، وتنشيط على العبادة، وحسن الاقتداء بهم، فصوروهم حتى إذا تطاول بهم الأمد عبدوهم. (المترجم)

(١٤) سميت كذلك لأنها تُرى من بعيد على شكل مكعب منتظم الأضلاع. «دوزي»

(١٥) ملاءة.

(١٦) قال ابن الكلبي: «كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل». (المترجم)

(١٧) روى ابن الكلبي: «إنه كان من عقيق أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من الذهب.» (المترجم)

(١٨) قالوا: وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال له هبل خزيمة. (المترجم)

(١٩) روى ابن الكلبي في كتابه الأصنام: «أنه لما سكن إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) مكة، ولد له بها أولاد كثيرون حتى ملئوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق، وضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضًا، فتفسحوا في الأرض التماس المعاش.»

قال: «وكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم، تعظيمًا للكعبة وصيانة وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنًا منهم بها، وصبابة بالحرم وحبًّا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار.» (المترجم)

(٢٠) قالوا: «إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو عمرو بن لحي، وإنه أول من غيَّر دين إسماعيل ونصب الأوثان، وقد جاء في كتاب الأصنام أن السبب في ذلك أنه مرض مرضًا شديدًا، فقيل له: إن البلقاء من الشام «حمة» إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: «ما هذه؟» فقالوا: «نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو.» فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.» (المترجم)

(٢١) هو أبو رجاء العطاردي تجد ترجمته في كتاب ابن قتيبة ص١١٩ وفي مسند الدارمي ص٣٦٤. «دوزي»

(٢٢) هذا هو حال أغلب الناس — على اختلاف أديانهم وأزمانهم — وليس أبلغ في أداء هذا المعنى من قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وفي ذلك يقول ابن دريد في مقصورته الرائعة:

نحن — ولا كفران لله — كما قد قيل للسارب أخلى فارتعى
إذا أحس نَبْأَةً رِيعَ، وإن تَطامَنَتْ عنه، تمادى وَلَها

(٢٣) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها وصوفها ولحمها، وما أجمل قول أحد العرب يهدد زوجته متهكمًا:

غضبت علي لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لأشربن بنعجة كوماء مالئة الإناء سحوف

(٢٤) كان «ذو الخلصة» — فيما يقول ابن الكلبي — مروة بيضاء، منقوشًا عليها كهيئة التاج، وكانت «بتبالة» بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة، وكان

سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر وكانت تعظمها وتهدي لها «خثعم» و«بجيلة» و«أزد الشراه» ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ومن كان ببلادهم من العرب «بتبالة»، قال: وكانت العرب جميعًا تعظمه. (المترجم)

(٢٥) قالوا: إن امرأ القيس بن حجر، لما أقبل يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة — وكانت له ثلاثة أقداح «الآمر والناهي والمتربص» — فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح، وضرب بها في وجه الصنم، وقال هذه الجملة، وتُروى — في رواية أخرى — بأشنع من ذلك.

قالوا: فكان امرؤ القيس أول من أخفره، ثم غزا بني أسد فظفر بهم!

وفي رواية أخرى أن رجلًا كان أبوه قد قتل، فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال:

لو كنت يا «ذا الخلصة» الموتورا   مثلي، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢٦) قال ابن الكلبي: «وكان لمالك وملكان ابني كنانة، بساحل جدة، وتلك الناحية، صنم يقال له سعدوكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه نفرت منه — وكان يهراق عليه الدماء — فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، وأسف فتناول حجرًا، فرماه به، وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت عليَّ إبلي.» ثم خرج في طلبها وانصرف وهو يقول (الأبيات).

(٢٧) هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التي يذبحونها عند أصنامهم.

(٢٨) يعرف تشريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جلاء بابل! فقد تولى «بختنصر» في عام (٦٠٦ق.م.) وأجلى اليهود عن بيت المقدس، وضربه وأخذ آنيته الثمينة، وقد مكث مخربًا نحو مئة عام، وشرد اليهود كل مشرد، وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وبلاد «مادي». وفي عام (٢١ب.م.) جاء «طيطوس» فنكب اليهود مرة أخرى وهدم بيت المقدس وشتت شملهم، وحرم عليهم الإقامة في فلسطين وقد كتب «يوسيفوس» المؤرخ كتابه عن اليهود، وما حدث لهم في تلك الموقعة. (المترجم)

(٢٩) **الصدوقيون**

فرقة من اليهود ظهرت في وقت العهد الجديد، وهي تنسب — في رأي بعض المؤرخين — إلى «صدقيا» وهو من أسرة أرستقراطية، من أحبار بيت المقدس في زمن

سليمان (عليه السلام)، وفي رأي آخرين أنهم منسوبون إلى الكلمة العبرية التي معناها «الحق» وهي قريبة الحروف من الكلمة العربية، وأهم مميزات الصدوقيين هي: أنهم كانوا حزب الأرستقراطية، وأنهم كانوا لا يعترفون بغير التوراة المكتوبة، ويرفضون كل ما عداها مما زيد عليها من الأحاديث الشفوية المروية عن موسى (عليه السلام) كما كانوا يرفضون كل ما أضيف إليها من التفاسير والشروح، التي أدخلها فيها النساخ.

ولهذا رفض الصدوقيون الإيمان بأهم الأسس التي بنيت عليها الديانة اليهودية، فلم يؤمنوا بالبعث، ولم يقبلوا فكرة الخلود، ولا فكرة الجزاء في الدار الآخرة، وكانوا — إلى ذلك — ينكرون الملائكة ويجحدون الأرواح، ويقررون — تقرير الجازم المستيقن — أن الإنسان مخير — بأوسع ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ — وأنه متمتع بحرية الإرادة في كل ما يفعله من خير أو شر، وأن سعادته وشقاوته — على هذا — ثمرة غرسه ونتاج عمله.

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين، لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين، كما يتبادر إلى الذهن من أقوالهم، وأن هذا الوهم سببه عدم تحري الدقة في فهم عبارتهم التي التبس على الكثيرين فهمها، وإنَّما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل في أعمال الإنسان، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يتعرف المناسبة التي قيلت فيها والقرينة التي اقترنت بها.

ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الإيمان وقوة العقيدة اللتان امتاز بهما الفريسيون الذين كانوا يعقدون آمالهم على الدار الآخرة، وما يتوقعونه فيها من الجزاء، فلم يحفلوا بالاعتبارات الدنيوية، على أن الإنصاف يقضي علينا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا في ظاهر معتقداتهم، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادئ، واتخذوها وسيلة إلى المداهنة والرياء، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا — على سبيل المجاز — صفة لكل من ينافق أو يُعنى بظاهر اللفظ ويستغني بالقشور عن اللباب، ويفضل المصطلحات والمظاهر، على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها.

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوبًا بالقضاء على الصدوقيين وقد ورد ذكرهم في «التلمود» ولكن عبارة «التلمود» غامضة لا يسهل اجتلاؤها لمن يريد تعرف الحقيقة.

وقد قسم ابن «حزم» — في كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق، وهي:

(١) السامرية: وهم يقولون إن مدينة القدس هي نابلس — وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا — ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهم توراة غير

التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وبعد يوشع (عليه السلام)، فيكذبون بنبوة «شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليشع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا» وغيرهم، ولا يقرون بالبعث البتة، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها.

(٢) الصدوقية: وينسبون إلى رجل يقال له «صدوق» وهم يقولون من بين سائر اليهود إن العزير هو ابن الله — تعالى الله عن ذلك — وكانوا بجهة اليمن.

(٣) والعنانية: وهم أصحاب عانان الداودي اليهودي، وتسميهم اليهود العراس والمس، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء، ويتبرءون من قول الأحبار ويكذبونهم، وهذه الفرق بالعراق ومصر والشام، وهم من الأندلس بطليطلة وطليبرة.

(٤) والربانية: وهم الأشعنية، وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود.

(٥) والعيسوية: وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني — رجل من اليهود كان بأصبهان — وبلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى وهم يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد ﷺ.

ويقولون إن عيسى بعثه الله (عز وجل) إلى بني إسرائيل — على ما جاء في الإنجيل — وأنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويقولون إن محمدًا ﷺ نبي أرسله الله (تعالى) بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام، وإلى سائر العرب كما كان «أيوب» نبيًّا في بني عيص، وكما كان «بلعام» نبيًّا في بني «مواب» بإقرار من جميع فرق اليهود. (المترجم)

(٣٠) قال أبو العلاء في رسالة الغفران: وبعض العلماء يقول: «إن سادات قريش كانوا زنادقة»، وما أجدرهم بذلك، وفي ذلك يقول شاعرهم:

ألمت بالتحية أم بكر ... فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوي — طوي بدر — ... من الأحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لا تكري ... على الكأس بعد أخي هشام
وبعد أخي أبيه وكان قرمًا ... من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عني ... بأني تارك شهر الصيام

إذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا «ابن كبشة» أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام؟
أتترك أن ترد الموت عني وتحييني إذا بليت عظامي؟

«ولا يدعي مثل هذه الدعاوى إلا من يستبسل وراءها للحِمام، ولا يأسف له إلا عند إلمام.» اهـ. (المترجم)

(٣١) يذهب الأستاذ سبرنجر إلى أن كلمة «حنيف» معناها في الأصل ملحد أو كافر، وعندي أن في هذا التفسير إسرافًا ومغالاة لا يقبلها باحث، وليس يتسع المقام لإظهار حقيقة الحنيفية والحنفاء التي سأبينها في بعض الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، فلْأكتفِ الآن بإحالة القارئ على ما كتبته في أوائل هذا الفصل. «دوزي»

الحنيفية

اختلف الناس في تفسير هذه الكلمة واضطرب الشراح في معانيها اضطرابًا شديدًا، بلغت مسافة الخلف فيه من النقيض إلى النقيض، ولهم العذر في ذلك فقد تطورت معاني هذه الكلمة — بمرور الزمن — فكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيهما أكثر المفسرين، وقد ذكر صاحب «لسان العرب» وغيره معاني مختلفة لهذه الكلمة لا تربطها صلة، وليس هنا مجال التوسع في سرد ما قالوه، وكتبوه في ذلك، فلنجتزئ بشرح معناها الذي نفهمه بإيجاز، وهو فهم يلائم بين تلك الآراء كلها: «كلمة الحنيف أصل معناها المائل عن الطريق المعبَّد السوي الذي ألفه سواد الناس إلى طريق آخر، وهذا هو ما فعله إبراهيم عليه السلام، فقد خالف ما كان عليه قومه من الشرك والوثنية، ومال عن سنتهم إلى طريق التوحيد، فأطلق عليه قومه اسم «الحنيف» ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه في حنيفيته ولكن مذهب إبراهيم وشريعته دخلها كثير من الضلالات والأوهام والبدع، ومن ثَمَّ تباين أتباعه في نحلهم وعقائدهم، فوجد منهم المؤمن الحق والمشرك والوثني، ولكن كلًّا منهم احتفظ لنفسه باسم الحنيفية، وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء، فلما جاء الإسلام وجد لفظة الحنيفية في حاجة إلى تحديد، فلم يكتفِ بوصف إبراهيم (عليه السلام) بالحنيفية، بل احترس، فقال عنه إنه كان حنيفًا مسلمًا.»

ولعل خير ما تختتم به هذه الكلمة هو قول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير الآية: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وإليك ما قال: «قال بعض المشتغلين بالعربية من الإفرنج: إن الحنيفية هي ما كان عليه العرب من الشرك، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى: في زمن الجاهلية: «إن فعلت هذا أكون حنيفًا.» وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة، وقد ناظرت بعض علماء الإفرنج في هذا، فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها، ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الكلمة تدل — لغة — على الشرك، وإنما مراده بكلمته، البراءة من دين العرب مطلقًا، وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضًا، والسبب في هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة، ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها، فنسوا بعضها بالمرة، وخرجوا ببعض آخر عن أصله، ووصفه كالحج.

ونفي الشرك عن إبراهيم — في آخر الآية — احتراس من وهم الواهمين وتكذيب لدعوى المدعين.» ا.هـ. (المترجم)

بعد وفاة النبي

(١) لهذه المحادثة التي أقنع بها مسيلمة سجاحًا بنبوته قصة طريفة يعرفها أكثر القراء ولا حاجة لذكرها في هذا المقام. (المترجم)

(٢) قال له عمر: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله!»

فقال له أبو بكر: ألم يقل «إلا بحقها»؟ وهذه الزكاة من حقها، واللهِ لا أفرق بين الصلاة والزكاة، وقد جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقال بعير — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ — لقاتلتهم عليه.» (المترجم)

(٣) وفي هذا يقول عمرو بن معد يكرب:

نُعطَى السوية في طعن له نفذ ولا سوية إذ تُعطى الدنانير

(المترجم)

(٤) وفي ذلك يقول الكميت:

يحلئن من ماء الفرات وظله حسينًا ولم يشهر عليهم منصل
كأنَّ حسينًا والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلي المتبقل!

(المترجم)

(٥) ارجع إلى «مصرع الوليد» في كتابنا «مصارع الخلفاء». (المترجم)

قواعد الإسلام

(١) عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ — ذات يوم — إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبته، ووضع كفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، [وتصوم رمضان] وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا.»

قال: «صدقت.»

قال: «فعجبنا منه يسأله ويصدقه.»

قال: «فأخبرني عن الإيمان.»

قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.»

قال: «صدقت.»

قال: «فأخبرني عن الإحسان.»

قال: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»

قال: «فأخبرني عن الساعة.»

قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل.»

قال: «فأخبرني عن أماراتها.»

قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.»

ثم أدبر، فقال «ردوه». فلم يروا شيئًا، فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي بعض روايات الحديث: «بينما نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الاسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك، قال: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله، ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ... ثم انصرف الرجل، فقال: ردوه عليَّ، فلم يروا شيئًا، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم.»

والمعنى أن جبريل (عليه السلام) جاء وتخطَّى الناس حتى انتهى إلى النبي (عليه السلام)، وجلس كهيئة المتعلم بين يدي من يتعلم منه تأدبًا، أو فعل ذلك من باب المبالغة في تعمية أمره على الحاضرين حتى يظنوا أنه من جفاة الأعراب، ولذلك استغربوا منه أنه تخطَّى الناس، وأنه جاء ماشيًا وليس عليه أثر السفر مع أنه ليس من أهل البلد، وقد نظر بعضهم إلى بعض حين رأوه فقالوا: «ما نعرف هذا» والمقصود من هذه القصة أن يسأل جبريل ويجيبه النبي (عليه الصلاة والسلام) ليتعلم الصحابة أمورًا هي جملة الدين وجماعه، وذلك لأنه بدأ أولًا بسؤاله عن الإيمان، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق بوجود الله (تعالى)، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه موصوف بكل صفة من صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة، منزه عن أضداد هذه الصفات، وعن الجسمانية والتحيز، وعن كل صفات النقص، وبأنه سبحانه واحد فرد حق صمد، وأنه خالق جميع المخلوقات يتصرف فيها بما شاء من التصرفات،

يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء، ثم التصديق بجميع الملائكة تفصيلًا بمن عرف تعيين أسمائهم، وإجمالًا بمن لم يعرف اسمه، وكذلك التصديق بجميع الرسل تفصيلًا بمن علمنا اسمه، وإجمالًا بمن لم نعلمه، واعتقاد أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله (تعالى)، وأنه أيَّدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه للخلق، وأنهم بينوا للمكلفين ما أمرهم ببيانه، نؤمن بهم جميعًا ولا نفرق بين أحد منهم، ونصدق بلقاء الله (تعالى) ورؤيته في الآخرة، وبالبعث، وبالقدر خيره وشره، هذا هو الإيمان فالإيمان هو الاعتقاد بالباطن، والتصديق الجازم بأصول الشريعة الإسلامية، وقواعد الشرع الشريف، فهو يتعلق بأعمال القلب، أما الإسلام فهو الانقياد وامتثال الأعمال الظاهرة المتعلقة بالجوارح كالصلاة بما فيها من خشوع القلب والجوارح وكالزكاة والصيام والحج، والحديث قد فرَّق بين حقيقة الإيمان والإسلام كما فرقت بينهما الآية في قوله (تعالى): ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ على أن الاسلام الذي هو اسم للأعمال الظاهرة، والإيمان الذي هو اسم للاعتقادات الباطنة كل منهما بما يتناوله ويشتمل عليه يصح أن يطلق عليه اسم الآخر، وهما معًا بكل ما يصدقان عليه من أعمال واعتقادات كالأجزاء التفصيلية التي تتركب منها جملة الدين وبها يكون جماعه وقوامه، ولهذا جاء في الحديث: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم.»

(والإحسان) من أحسنت العبادة إذا حسنتها وكملتها، وذلك أن العبد إذا قوي إيمانه تمثل دائمًا عظمة المولى، وأيقن أنه مطلع عليه في كل أحواله شهيد على عمله في كل وقت، فاذا هَمَّ بفعل معصية من المعاصي على اختلاف أنواعها، علم أن الله يراه على أي حالة ارتكب فيها المعصية وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيكف عن المعصية ويرجع عنها لقيام الدليل اليقيني الذي يجعله يحس في قرارة نفسه أن الله (تعالى) موجود حق وأنه ناظر إليه في كل عمله وفي كل ما يصدر منه من حركة أو سكون، فيحول علمه بذلك بينه وبين جميع المنكرات، وكذلك لا يستطيع أن يترك العبادات الواجبة عليه تهاونًا بها فإن المضيعين للفرائض إنما ضيعوها لجهلهم بمقام الألوهية وعدم معرفتهم بقدر الآمر وقدر الأمور، وجحدهم وعدم إقرارهم بالربوبية، ولذلك يقول الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك.» أي تعبده عبادة من يرى الله (تعالى) ويراه الله (تعالى)، ومن هذه حاله وتلك صفته ما دام في عبادته لا يترك شيئًا من الخضوع والإخلاص وحفظ القلب والجوارح ومراعاة الآداب إلا فعله،

وفي الحديث أيضًا الإيمان بالغيب، وباليوم الآخر، والسؤال عن الساعة، وبيان شيء من أشراطها وعلاماتها، فأصبح هذا الحديث — بما اشتمل عليه — كالجامع لعلوم الشريعة كلها. (المترجم)

(٢) لا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن القرآن هو كلام الله وأنه جعل الجواب على لسان نبيه محمد ﷺ. «دوزي»

(٣) ارجع إلى كتاب «دوزي» «تاريخ المسلمين في إسبانيا» (ج٢ ص١٠٩).

(٤) من المعروف عن «بورنوف» الذي يسلم كثير من الفارسيين إلى اليوم بصحة قوله: «إن بوذا مات سنة ٥٤٤ قبل الميلاد». «دوزي»

(٥) هذا ما قاله المسعودي في مذكراته عن الهند ص٩٠. «دوزي»

(٦) ارجع إلى رسالة الغفران (ج٢). (المترجم)

(٧) لا تنس أنه لا يزال إلى اليوم في التيبت يعدونه إلهًا في شكل إنسان. «دوزي»

(٨) هذا المثال عظيم الخطر لأنه أقدم مثال نستدل به على أصل هذه الفكرة، وما أجدره بأن يضاف إلى المجموعة الفنية التي جمعها «سنين شنيدر»، ولو اطلع «هوج» على كتاب «شنيدر» لأمن الوقوع فيما وقع فيه من الخطأ حين تصدَّى لتفسير هذا الرمز العددي، فقد نسب هذا الرقم — حين عرض للكلام عنه — إلى مضاعفات العدد (٦) وعلل ذلك بأن رقم ستة يدل على عدد الأيام التي تم فيها خلق العالم.

(٩) قال أبو العلاء المعري في نشأة المذاهب:

نحل غدت مللًا فكل شريعة تبدي — لمضمر غيرها — إكفارها

(المترجم)